مقدمات أساسية



حياته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره

د. عبد الرحمن سالم





بسم الله الرحمن الرحيم


الرسول
حياته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره

الكتـــــــاب: السيرة النبوية

المؤلـــــــف: د. عبد الرحمن أحمد سالم

عدد الصفحات: ٢٢٤ صفحة

سنة الطباعــة: ٢٠١٨م

بلـد الطباعــة: بيروت/ لبنان

الطبعـــــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع

مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



الهاتف: 00201099938159

البريد الإلكتروني: info@aalamaladab.com

الموقع: www.aalamaladab.com

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: Alsirah Alnbouiah

Editor: Dr. Abd alrahman Ahmed Salim

Pages: 224

Year: 2018

Printerd in: Beirut, Lebanon

Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية،

سالم، عبد الرحمن
السيرة النبوية/ تأليف: د. عبد الرحمن سالم.
القاهرة: عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٧م
٢٢٤ص، ١٧×٢٤ سم.
رقم الإيداع: ٢٠٣٩٦/٢٠١٧

ISBN: 978-977-6539-54-9







المحتويات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

تمثل سيرة النبي محمد ﷺ أحد الموضوعات التي يتجدد الحديث حولها دائمًا رغم غزارة ما كتب عنها في القديم والحديث، باللغة العربية وغيرها. وإن كل من يكتب عن الرسول ﷺ لواجدٌ في حياته معينًا لا ينضب من المواقف والدروس والتجارب التي تزداد ثراء وعمقًا بإعادة النظر فيها وإلقاء مزيد من الضوء عليها. وهذا الكتاب يمثل محاولة لتقديم الجوانب الأساسية في حياته ﷺ، دون الدخول في التفاصيل التي قد لا تسهم كثيرًا في جلاء الصورة، بل لعلها تشتت انتباه القارئ. وقد أخذنا في الاعتبار أن تكون هذه الجوانب مستمدة من أوثق مصادر السيرة وأضبطها.

وتتعدد أنواع المصادر التي يعتمد عليها باحثو السيرة. فهناك ما يمكن أن نطلق عليه اسم المصادر المتخصصة في السيرة، ويأتي علىٰ رأسها سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي من المصادر المتقدمة، وهناك العديد من المصادر المتأخرة في هذا الجانب، وهي تكاد تعتمد اعتمادًا كاملًا علىٰ تلك المصادر المبكرة. ثم هناك كتب طبقات الصحابة، وهي التي تدور حول ما يعرف في السنة النبوية بـ «علم الرجال» وعلىٰ رأسها كتاب «الطبقات الكبرىٰ» لمحمد بن سعد. ومن كتب المتأخرين التي تحتل أهمية خاصة في هذا المجال كتاب «أُسْد الغابة» لابن الأثير. وهناك مصدر أساسي

من مصادر السيرة يتمثل في كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة، ويأتي علىٰ رأسها بالطبع صحيح البخاري وصحيح مسلم. ومن مصادر السيرة التي لا ينبغي التقليل من أهميتها كتب التاريخ العام أو الحوليات، ولعل أهم هذه المصادر علىٰ الإطلاق «تاريخ الطبري»؛ فهو يتسم بغزارة مادته وتعدد رواياته وحسن عرضه مع تحري الدقة في هذا العرض. ومن المصادر المتأخرة التي تدور في هذا الإطار: كتاب الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي.. علىٰ سبيل المثال لا الحصر.

هذا؛ وتمثل كتب الأنساب أحد المصادر الأساسية للسيرة. وينبغي هنا التنويه بصفة خاصة بكتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري، فهو غني بمادته التي يدور الكثير منها حول أحداث السيرة. والبلاذري يتحرىٰ الدقة في تقديم مادته التي قد لا توجد أحيانًا في غيره من المصادر.

بقي أن نشير أيضًا إلىٰ الكتب الجغرافية أو كتب البلدان التي تتضمن كثيرًا من المادة التاريخية، وهذه الكتب عديدة، ومن أشهرها كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي.

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم بصفته مصدرًا أساسيًّا من مصادر السيرة. صحيح أن إشارات القرآن إلىٰ أحداث السيرة قد تكون مختصرة في كثير من الأحيان، ولكن أهميتها البالغة تكمن في وثاقتها التي لا تقبل المناقشة. ويمكن أن يضاف إلىٰ ذلك مصادر التفسير القرآني. فلا شك أنها من بين المصادر المساعدة في هذا المجال.

أما المراجع الحديثة فلا شك أنها تقدم وجهات نظر قد تكون في كثير من الأحيان جديرة بالمناقشة، ويتضح ذلك بصفة خاصة في الكثير مما يكتبه الباحثون الغربيون، ويعتبر المستشرق البريطاني «مونتجومري وات» من أبرز كتاب السيرة الغربيين في العصر الحديث، فقد خصص لها عددًا من مؤلفاته، ورغم ما يوصف به «وات» من اعتدال فإن الكثير من آرائه يحتاج إلىٰ إعادة نظر، وقد أشرنا إلىٰ بعضها في هذا الكتاب.

ورغم أن كتابنا هذا قد أغفل كثيرًا من التفاصيل المتصلة بالسيرة النبوية فإننا نطمع أن يكون قد نجح في تغطية أهم جوانبها وفي إثارة فضول القارئ لمعرفة المزيد.

والله من وراء القصد.

د. عبد الرحمن سالم

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تمهيد
عن أوضاع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

المقصود بشبه الجزيرة العربية:

يقصد بشبه الجزيرة العربية تلك المنطقة الواقعة في الجنوب الغربي من آسيا، ويحدها من الشمال بلاد الشام، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عدن، ومن الشرق الخليج العربي والفرات، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة.

وتنقسم شبه الجزيرة العربية إلىٰ خمسة أقسام أساسية هي: تهامة، ونجد، والحجاز، والعَروض، واليمن، وترتبط هذه الأقسام بجبل السراة، وهو أعظم جبال شبه الجزيرة العربية، وهو يمتد من أقصىٰ جنوبها في اليمن إلىٰ أقصىٰ شمالها في أطراف بادية الشام. فالمنطقة الواقعة غربي جبل السراة حتىٰ ساحل البحر الأحمر تتميز بانخفاضها، وهي لهذا تسمىٰ (تهامة) أو (الغَوْر). والمنطقة المرتفعة الواقعة شرقي جبل السراة سميت (نجدًا) لارتفاعها. والمنطقة الفاصلة بين تهامة ونجد سميت (الحجاز) لحجزها بينهما[١]. والمنطقة الواقعة شرقي (نجد) حتىٰ الخليج العربي من بلاد اليمامة والبحرين وما والاها سميت (العَروض) «بفتح العين» لاعتراضها ما بين اليمن ونجد وأطراف فارس[٢]. وتقع المنطقة الخامسة، وهي اليمن، في الجزء

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ج ٤، ص ١٢٦.

الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، ويلحق بها عدن وحضرموت والشِّحْر[1]، ولا يعرف علىٰ وجه القطع سر تسمية هذه المنطقة باليمن، ويقال إنها سميت بذلك ليمنها أو لوقوعها علىٰ يمين الكعبة[2].

سكان شبه الجزيرة العربية:

استوطن العرب شبه الجزيرة العربية منذ عهود موغلة في القدم، وقد اصطلح المؤرخون علىٰ تقسيم العرب إلىٰ ثلاث طبقات:

١- **العرب البائدة:** وهم الذين زالت آثارهم من مسرح التاريخ، ولم يبق من أخبارهم إلا القليل، ومن قبائلهم المشهورة: عاد وثمود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ومنهم كذلك: طَسْم وَجَدِيس[3].

٢- **العرب العاربة:** وهم عرب الجنوب من أهل اليمن وما حولها، ويعرفون بالقحطانيين، أي أبناء قحطان، ولا يعنينا هنا الدخول في تفاصيل اختلاف النسَّابين حول النسب الكامل لقحطان[4]، ولكن الذي يعنينا أن قحطان هو الجد الأعلىٰ لعرب الجنوب، أو القحطانيين. فمن أشهر قبائل القحطانيين حِمْيَر (بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء)، وكهلان، ومن أشهر قبائل حمير (قضاعة) التي ينتمي إليها التبابعة ملوك اليمن المشهورون[5]، ومن أشهر قبائل كهلان (طيء والأزد). وإلىٰ الأزد ينتسب الأوس والخزرج[6].

---

(١) الشِّحْر (بكسر أوله وسكون ثانيه): بين عدن وعمان. ياقوت، ج ٣، ص ٣٧١.

(٢) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص ٦، وانظر أيضًا:

Ph. Hitti, History of the Arabs, P. 44.

(٣) ويطلق علىٰ هؤلاء العرب أحيانًا مصطلح «العرب العاربة». انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٦-٧. أما عرب الجنوب الآتي ذكرهم فهم العرب القحطانيون.

(٤) حول تفاصيل ذلك ارجع إلىٰ ابن حزم في جمهرة أنساب العرب، ص ٧-٨.

(٥) ابن قتيبة: المعارف: ص ١٠٣-١٠٤.

(٦) المصدر نفسه: ص ١٠٩.

٣- **العرب المستعربة**: وهم عرب الشمال من نسل عدنان الذي ينتهي نسبه إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم ﷺ ويعرفون بالعدنانيين. ولفظ «المستعربة» يشير إلىٰ اختلاط دمهم بدم غير عربي. والمعروف أن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم العربية التي كانت تقيم بواد قريب من مكة(١)، ثم تعرب نسله بعد ذلك، فهم العرب المستعربة، وأول من يُعَدَ من العرب المستعربة عدنان الذي يختلف النسابون في تفاصيل نسبه، وإن كان الكل يجمع علىٰ أنه ينتهي إلىٰ إسماعيل عليه السلام، ولعدنان من الولد: معد، وعك. وأشهر أولاد معد هو نزار، وله من الولد مضر وربيعة وإياد (ويضاف إليهم أنمار أحيانًا). والصحيح المحض الذي لا شك فيه -كما يذكر ابن حزم- أن قبائل مضر وقبائل ربيعة ابني نزار، ومَن تَنَاسَلَ مِن إياد ومن عك، هم صرحاء ولد إسماعيل عليه السلام(٢). وإلىٰ مضر تنتمي قريش قبيلة النبي ﷺ.

طبيعة الحياة في شبه الجزيرة العربية وانعكاسها علىٰ أوضاعها الحضارية قبل الإسلام:

اتسمت منطقة شبه الجزيرة العربية بأنها -في معظمها- جدباء غير ذات زرع، ومن هنا فقد غلب عليها طابع الحياة البدوية التي تقوم علىٰ الترحال من مكان إلىٰ مكان سعيًا وراء المرعىٰ حيث لا يُعرف لمطرها القليل مكان معلوم أو موسم محدد.

ولكن اليمن في الجنوب تعد استثناء من تلك المنطقة بما منحها الله من أمطار غزيرة وطبيعة خضراء ومناخ معتدل؛ ولهذا عرفت اليمن في التاريخ باسم: اليمن السعيد Arabia Felix(٣)، فلا غرو -إذن- أن تقوم في تلك البقعة من شبه الجزيرة العربية أسس حضارة وطيدة، حيث توافر لها من الظروف الطبيعية ما لم يتوافر لسواها من بقية أرجاء شبه الجزيرة، وإن حضارة مملكة سبأ وسد مأرب العظيم لشاهد علىٰ ما بلغته هذه البلاد من رقي وعظمة.

لم تتمتع بقية شبه الجزيرة العربية إذن بما تمتعت به اليمن من طبيعة ساعدتها علىٰ

---

(١) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٥٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب، ص ١٠.

(٣) انظر مناقشة فيليب حتي لذلك في كتابه:

History of the Arabs, P. 44.

الاستقرار والتقدم. وقد كان من الطبيعي -والأمر كذلك- أن تكون القبيلة هي ركيزة الحياة الاجتماعية والسياسية في شمال شبه الجزيرة. فحياة الجفاف والخشونة التي عاشتها هذه المنطقة جعلت الصراع من أجل السيطرة علىٰ ما يتاح من ماء ومرعىٰ أمرًا طبيعيًّا مألوفًا. وحيث إنه من المتعذر وجود حكومة مركزية تدير شئون مجتمع بدوي متنقل كهذا وتضمن له أمنه؛ فقد كان علىٰ الفرد أن يلتمس الأمن في حمىٰ قبيلته، وكان علىٰ كل قبيلة أن تختار زعيمًا أو سيدًا يتولىٰ أمورها، وبهذا أصبحت القبيلة تمثل كيانًا قائمًا بذاته يسعىٰ قدر طاقته إلىٰ تأمين وسائل الحياة لأفراده، ولو علىٰ حساب غيره من الكيانات التي لا تتمتع بالقدر نفسه من القوة.

وقد انبثقت من هذا المفهوم للقبيلة العربية قبل الإسلام مجموعة من القيم والتقاليد التي تأصلت في حياة العربي الجاهلي، وكان بعضها إيجابيًّا بنَّاءً، وبعضها الآخر سلبيًّا مدمرًا.

فمن القيم الإيجابية قيم الشجاعة والنخوة والكرم؛ فلا بد في ابن الصحراء الموحشة أن يكون شجاعًا، وإلا لما استطاع مواجهة مخاطرها. والشجاع دائمًا ذو نخوة وشهامة؛ فهو يأبىٰ الضيم، ويخفُّ لنجدة المستغيث، أما الكرم فهو صفة كان يقدرها عرب الجاهلية حق قدرها؛ لأن المسافر في تلك الفيافي القاحلة قد يتعرض لخطر الموت إن لم يجد من يسعفه بالطعام أو الشراب أو المأوىٰ؛ ولهذا كان إشعال النار في ليل الصحراء أمرًا يحرص عليه الكرماء في ذلك الزمان حتىٰ يهتدي علىٰ ضوئها من ضل الطريق أو نفد طعامه أو شرابه.

أما القيم السلبية التي سادت عند عرب الجاهلية فقد كان من أهمها انتشار روح العصبية الذميمة، وسيادة قانون القوة في علاقات الأفراد والجماعات وتحكُّم نزعة الثأر والانتقام في النفوس، وما يصحب ذلك من طيش واندفاع أعمىٰ وراء النزوات الطارئة، ثم المكانة المنحطة للمرأة في مجتمع ما قبل الإسلام.

ويرجع انتشار روح العصبية إلىٰ أن حياة الجاهليين -كما أسلفنا- كانت تدور حول محور القبيلة؛ فالقبيلة كانت تمثل وحدة سياسية مستقلة في ذلك الزمان. ومن هنا كان انتماء العربي كاملًا لقبيلته؛ فهو يربط مصيره بمصيرها، ويسارع إلىٰ نصرتها في ميدان القتال، ولا يعنيه بعد ذلك أكانت علىٰ الحق أم علىٰ الباطل.

ونحن نجد صدىٰ لذلك الخلق الذميم في الأدب الجاهلي، ومن ذلك قول شاعرهم.

قومٌ إذا الشرُّ أبدىٰ ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات علىٰ ما قال برهانا

أما سيادة قانون القوة فذلك أمر طبيعي حين تختفي الحكومات التي تحدد في دساتيرها حقوق الفرد وواجباته وتصون في الوقت نفسه حقوقه من أن يجار عليها، فلا يرىٰ الأفراد حينئذ منهجًا لصيانة حقوقهم وتأمين حياتهم إلا منهج القوة. وكلما أمعن الفرد في اتباع هذا المنهج كان ذلك من وجهة نظره أجْلبَ للأمن وأدْعَىٰ للطمأنينة، فليس غريبًا إذن أن نجد الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلْمَىٰ يقول في معلقته المشهورة:

ومن لم يذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَم

إن هذا يعني أن البدء بالظلم كان يمثل في نظر الجاهلي وسيلة لدرء ظلم متوقع.

ومرة أخرىٰ نقول: إن اختفاء الحكومة أو السلطة الشرعية جعل العربي الجاهلي يتقمص دورها ويمسك بالقانون في يديه، فلا يجد من سبيل إذا لحق به ظلم إلا أن يثأر لنفسه ويشبع رغبة الانتقام في داخله. والثأر يؤدي إلىٰ الثأر. وهكذا وجدنا قبائل أوشك أن يفني بعضها بعضًا نتيجة تلك الرغبة العارمة في الانتقام دون أن تجد حكومة شرعية تقف في طريقها أو مبدأ دينيًا يكبَح جماحها. والمؤكد أن كثيرًا من الأسباب التي أثارت حروب العرب في الجاهلية كان تافهًا، ولكن النفس عندما تخلو إلا من دوافع الانتقام والأثرة والبغضاء تهبط إلىٰ درْك الحيوانية في علاجها للأشياء. وتعدُّ حرب داحس والغبراء -وهي الحرب التي استمرت أربعين سنة- مثالًا واضحًا علىٰ ذلك[1]. وإلىٰ تلك الحرب يشير زهير بن أبي سُلْمَىٰ في قوله

---

(١) داحس والغبراء اسما فرسين كانا لقيس بن زهير بن جَذِيمة العَبْسِي نُسبت إليهما تلك الحرب بين عبس وذبيان، وكان سببها رهانًا بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر الفزاري (من ذُبيان) علىٰ سباق الخيل، وقد دخل حذيفة السباق بفرسين هما الخطار والحَنْفَاء، ولكنه أمر بعض رجاله أن يعوقوا مسيرة داحس والغبراء في أثناء السباق، ومن هنا نشبت تلك الحرب المشهورة التي اشترك في بعض ملاحمها عنترة بن شداد العبسي، وتحدث عنها في شعره. لمزيد من التفاصيل راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٦٦-٥٨٣، والأصفهاني: الأغاني، ج ١٧ ص ١٨٦-٢٠٨.

يمدح هرِم بن سنان والحارث بن عوف:

تداركتما عَبْسًا وذُبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منْشم[1]

وهناك أيضًا تلك الحرب المدمرة التي نشبت بين قبيلتي بكر وتغلب اللتين تنتميان معًا إلىٰ وائل، وهي الحرب التي أثارها مقتل كليب، وقد كادت كل من القبيلتين أن تفني الأخرىٰ، وقد استمرت هذه الحرب أربعين سنة كذلك[2].

ولا شك أن انحطاط مكانة المرأة في الجاهلية يرتبط بتلك العادات الذميمة التي تحدثنا عنها. فإذا كانت العصبية متحكمة في النفوس وقانون القوة هو السائد والصراع هو منهج الحياة ونظامها، فمن الطبيعي أن يتضاءل دور المرأة وتنحط قيمتها في أرجاء تلك الغابة. وقد بلغ استهتار الجاهليين بمكانة المرأة حدًّا جعل بعضهم يقدم علىٰ قتل مولودته الأنثىٰ دون وازع من ضمير أو قانون. وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الخلق الذميم في غير موضع؛ فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩][3].

هذه لمحة خاطفة من صورة الحياة القبلية التي كانت مسيطرة بعاداتها وتقاليدها علىٰ شمال شبه الجزيرة العربية. ولكن هذه المنطقة لم تخلُ تمامًا من معالم الحياة

(١) منْشم (بفتح الشين وكسرها) يقال إنها امرأة كانت بمكة عطارة، وكانت خُزاعة وجُرْهُمُ إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثر القتلىٰ فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عطر منشم، فذهب مثلًا، وهناك أقوال أخرىٰ في المقصود من هذه الكلمة راجعها في (لسان العرب) لابن منظور، مادة «نشم». والمراد علىٰ أي حال أن عبسًا وذبيان كانوا قد عزموا علىٰ أن يفني بعضهم بعضًا.

(٢) راجع التفاصيل في الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٥٢٣-٥٣٩، والأغاني للأصفهاني ج ٥ ص ٣٤-٦٤.

(٣) ويقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: «كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت علىٰ رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته». ويضيف في هذا السياق أن صعصعة بن ناجية، جد الفرزدق الشاعر، كان ممن منع الوأد في الجاهلية؛ فبه افتخر الفرزدق في قوله:

ومنا الذي مَنَع الوائدات فأحيا الوئيد فلم تُوأدِ

انظر: الكشاف، ج ٤، ص ٧٠٣-٧٠٨.

والوائدات هي القبائل التي كانت تدفن بناتها أحياء، والمقصود بالوئيد المشرفات علىٰ الموت، وهو من قبيل المجاز، وافتخار الفرزدق بجده الذي منع هذه العادة دليل علىٰ انتشارها.

الحضرية، وهذا ما سوف نتحدث عنه الآن باختصار.

أهم المراكز الحضرية في شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

تحققت ملامح الحياة الحضرية في شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام في عدد من المراكز أهمها: مكة، ويثرب، والطائف.

أما مكة فهي تقع بين الطائف ويثرب في الحجاز، وهي إلىٰ الجنوب من يثرب، وإلىٰ الشمال الغربي من الطائف، وطبيعتها طبيعة وعرة، فالوادي الذي تقوم فيه تكتنفه الجبال، وهو وادٍ غيرُ ذي زرع كما وصفه القرآن الكريم. وقد نتوقع -نتيجة لهذا- ألا تتهيأ أسباب الحياة الحضرية لمكة.

ولكن الواقع أن مكة تمتعت بوضع تجاري متميز؛ فقد كانت ملتقىٰ القوافل التجارية القادمة من اليمن إلىٰ الشام ومن الشام إلىٰ اليمن[1]. وهذا الوضع المتميز لمكة أتاح لأهلها الثراء والمشاركة في تلك الحياة التجارية المزدهرة. وقد ضربت قبيلة قريش بسهم وافر في ذلك النشاط، وكانت هناك رحلتان تجاريتان تشهدهما مكة في كل عام، وهما رحلة الشتاء ورحلة الصيف: الأولىٰ إلىٰ اليمن، والثانية إلىٰ الشام[2]. وسوف نتحدث حديثًا مستقلًّا في موضع آخر عن دور قريش في ذلك النشاط التجاري وعن مكانتها في مكة بصفة عامة، ولكن الذي يعنينا إبرازه هنا هو أن مكة بحكم مكانتها التجارية المتميزة اكتسبت طابعًا حضاريًّا، وكانت تعتبر في الواقع عاصمة ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربية، وذلك رغم الطبيعة الجافة القاسية التي كانت تحيط بها.

علىٰ أن مكة تمتعت بمكانة أخرىٰ مهمة فوق مكانتها التجارية، وتلك هي المكانة الدينية الرفيعة التي جعلتها مهوىٰ الأفئدة وَمَحَطَّ الرحال. فالكعبة بيت الله الحرام التي أنشأها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانت في تلك البقعة المباركة[3]، بل إن نشأة الكعبة

(١) عباس محمود العقاد: مطلع النور، ص ١١٢-١١٣.

(٢) وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ الرحلتين في قوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ .. [قريش: ١، ٢].

(٣) يقول ياقوت في تفسير كلمة الكعبة: «سميت الكعبة؛ لأنها مكعبة علىٰ خلق الكعب، وقيل: التكعيب التربيع، وكل بناء مربع كعبة، وقيل: سميت لارتفاع بنائها، وكل بناء مرتفع فهو كعبة، ومنه: كَعَبَ ثديُ الجارية إذا علا في صدرها وارتفع». معجم البلدان ج ٤ ص ٥٢٨.

ارتبط بها اتساع عمران مكة واستقرار إسماعيل عليه السلام فيها عند قدومه مع أبيه إبراهيم عليه السلام وأمه هاجر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقد كان انبثاق عين زمزم استجابة إلهية لدعاء الخليل إبراهيم عليه السلام وأصبحت مكة ﴿حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: ٥٧] وانضمت إلىٰ مكانتها التجارية مكانتها الدينية لتجعل منها مركزًا حضاريًّا متميزًا، فاستحقت بجدارة لقب «أم القرىٰ»(١).

أما يثرب -وهي التي عرفت باسم «المدينة» في العصر الإسلامي- فإنها لم تنافس مكة في مكانتها التجارية أو الدينية رغم أن أهلها كانوا علىٰ قدر لا بأس به من الاستقرار والأخذ بأسباب الحضارة. وكان سكانها يتكونون في جملتهم من العرب واليهود. أما العرب فيتمثلون في قبيلتي الأوس والخزرج اللتين تنتميان معًا إلىٰ قبيلة الأزد اليمانية. وقد هاجرت كلتا القبيلتين من اليمن بعد انهيار سد مأرب الذي يضعه بعض المؤرخين في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي(٢). أما اليهود فهم قبائل بني قينقاع وبني قُرَيظة وبني النَّضير. وقد ورث الأوس والخزرج كثيرًا من التقاليد الحضارية عن أجدادهم اليمنيين، كما عُرف اليهود أيضًا بنشاطهم التجاري وباهتمامهم التقليدي بالصياغة وببعض المهن الأخرىٰ كالزراعة والحدادة وصنع الأسلحة. وهكذا تجلىٰ الطابع الحضري في مجتمع يثرب بوضوح. ويثرب -مثل مكة- كانت في الأصل محطة علىٰ الطريق التجاري الممتد من الجنوب إلىٰ الشمال، أي من اليمن إلىٰ الشام(٣).

وأخيرًا نأتي إلىٰ الطائف، وهي إلىٰ الجنوب الشرقي من مكة، وقد تميزت باعتدال مناخها مما شجع علىٰ الاستقرار فيها، كما تمتعت بالمياه الجارية التي حولت أرضها

(١) يقصد بالقرية في التعبير القرآني المدينة أو الحاضرة، فأم القرىٰ هي أم المدن أو الحواضر، أي العاصمة بالتعبير الحديث، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورىٰ: ٧].

(2) De lacy ôleary, History of Arabia Before Muhammad, P. 89.

هذا؛ ولا يتفق المؤرخون حول التاريخ الدقيق لانهيار سد مأرب الذي ينسب البعض حدوثه إلىٰ وقت أسبق مما ذكرنا. راجع جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٣٨٨-٣٨٧.

(3) Ibid., P. 8.

إلىٰ بساتين حافلة بأنواع الثمار، واشتهرت علىٰ الأخص ببساتين العنب البالغ الجودة الذي «لا يوجد مثله في بلد من البلدان» كما يقول ياقوت[1]. وعرف أهل الطائف بالثراء الوافر وكانت لهم حصونهم المنيعة. وتمثل قبيلة «ثقيف» أهم العناصر التي تكوَّن منها مجتمع الطائف وهي تنتمي إلىٰ قيس عيلان بن مضر[2]، فهم من عرب الشمال العدنانيين. وكان بالطائف أيضًا قوم من حمير وقوم من قريش[3].

إن ما ينبغي أن نؤكده هنا أن هذه المراكز الحضرية في شبه الجزيرة العربية لم تكن إلا استثناءات خارجة علىٰ نمط الحياة العام هناك، ولم تؤثر هذه الاستثناءات بصورة كبيرة في سيطرة الحياة القبلية بعاداتها وتقاليدها علىٰ شبه الجزيرة العربية في مجملها.

إمارتا اللخميين والغساسنة: ظروف نشأتهما وطبيعة دورهما:

لا شك أن حياة الجفاف والفقر التي سيطرت علىٰ شبه الجزيرة العربية جعلت بعض القبائل فيها تتخذ من غارات السلب والنهب علىٰ المناطق المتاخمة الأكثر غنىٰ أسلوبًا لتحصيل وسائل العيش، وقد كانت الأقاليم المجاورة التي تتمتع بالخصب والثراء هي تلك التي كانت تنتمي إلىٰ إمبراطوريتي الفرس والروم، فالعراق إلىٰ الشرق كان يخضع لسيطرة الفرس، والشام إلىٰ الشمال كان يخضع لسيطرة الروم. وهكذا وجدنا بدو الجزيرة العربية يشنون غارات متوالية علىٰ تلك الأقاليم، ممَّا شكَّل مصدر إزعاج لدولتي الفرس والروم. وكان علىٰ الدولتين أن تفكرا معًا في وسيلة تضع حدًّا لتصاعد تلك الغارات. ومن هنا تهيأت الظروف لنشأة إمارتي اللخميين والغساسنة.

أ- إمارة اللخميين أو مملكة الحيرة:

ينتمي اللخميون إلىٰ قبيلة كهلان التي تنتمي بدورها إلىٰ عرب اليمن القحطانيين. وقد نشأت إمارة اللخميين بمدينة الحيرة بالعراق في حدود سنة ٢٤٠م تحت رعاية الفرس الساسانيين؛ وذلك لتحقيق أهداف السياسة الفارسية في المنطقة، وعلىٰ رأس هذه الأهداف صد غارات السلب والنهب التي دأب عرب شبه الجزيرة العربية علىٰ

---

(١) معجم البلدان: ج ٤، ص ١١.

(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٢٦٦.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠.

توجيهها ضد حدود الإمبراطورية الفارسية، وهكذا قامت مدينة الحيرة تحت إمارة اللخميين بدور المنطقة العازلة Buffer Zone وأدت الغرض الذي أناطه الفرس باللخميين علىٰ خير وجه. وكان من بين المهام الأخرىٰ التي اضطلع بها اللخميون في الحيرة دعم الفرس في صراعهم الطويل ضد البيزنطيين (الروم). ورغم أن الفرس لم يكونوا أهل كتاب فإنهم سمحوا لعرب الحيرة باعتناق المسيحية النسطورية التي كانت تناصب المذهب الملكاني العداء، وهو المذهب الذي كانت تدين به الكنيسة البيزنطية. وقد بلغت إمارة الحيرة قمة مجدها في عهد المنذر الثالث ابن ماء السماء الذي كان معاصرًا للإمبراطور الفارسي كسرىٰ أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) والإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م). ولكن دولة المناذرة اللخميين بالحيرة بدأت تتدهور بعد مقتل المنذر الثالث سنة ٥٥٤م علىٰ يد الحارث بن جبلة الغساني حليف البيزنطيين[(١)]، وانتهىٰ الأمر بالفرس إلىٰ أن يفقدوا ثقتهم باللخميين، وقد غضب الإمبراطور الفارسي علىٰ النعمان بن المنذر ملك الحيرة اللخمي (وممدوح النابغة الذبياني) فحبسه حتىٰ مات في محبسه سنة ٦٠٢م، وبموته قضىٰ الفرس علىٰ حكم اللخميين في الحيرة وأخضعوا المدينة لسيطرتهم المباشرة[(٢)].

ب- إمارة الغساسنة بالشام:

الغساسنة هم بنو مازن بن الأزد، وينتهي نسبهم -كما ينتهي نسب أبناء عمومتهم اللخميين- إلىٰ كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ فهم ينتمون -إذن- إلىٰ عرب اليمن القحطانيين.

ولا نعرف علىٰ وجه اليقين تاريخ هجرة الغساسنة إلىٰ الشام، وإن كان بعض المؤرخين المحدثين يرجح أن هذه الهجرة بدأت في حدود عام ٢٥٠م[(٣)]. وهذا يعني أن وجودهم في الشام سبق وجود البيزنطيين هناك.

وعندما فرض البيزنطيون سيادتهم علىٰ الشام استعانوا بالغساسنة في تدعيم نفوذهم

(1) ôleary, Arabia Before Muhammad, p. 165.

(٢) راجع مادة «الحيرة» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بول Buhl وعرفان شهيد، ج ١٦، ص ٢٣٤-٢٣٨.

(٣) د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص ٣٦-٣٧.

في ذلك الإقليم وولوهم الإمارة علىٰ جميع القبائل العربية المقيمة علىٰ الحدود بين الشام وشبه الجزيرة العربية مثل جذام وكلب وجهينة والقين وبهراء وبليّ وتنوخ وسليح وغيرها من قبائل العرب. وعقد البيزنطيون مع الغساسنة حلفًا قام علىٰ أساس الدفاع المشترك، بحيث يقدم الغساسنة للبيزنطيين العون العسكري ضد القبائل العربية التي تهاجم حدود الإمبراطورية البيزنطية وضد الفرس؛ كما يقدم البيزنطيون -من جانبهم- للغساسنة العون العسكري اللازم إن تعرضوا لهجوم مماثل.

وقد اعتنق الغساسنة المسيحية في غضون القرن الرابع الميلادي وحاولوا نشرها بين القبائل العربية الأخرىٰ وخصوصًا في الشام ومدينة نجران باليمن، ولكن المسيحية التي اعتنقها الغساسنة كانت علىٰ المذهب المونوفيزيتي[1] (اليعقوبي فيما بعد) المخالف للمذهب الملكاني (الديوفيزيتي)[2] وهو المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية.

ولم يتخذ الغساسنة مركزًا ثابتًا بالشام بل كان لهم معسكر متنقل، وأبرز الأماكن التي ارتبط اسمهم بها إقليم حوران وعاصمته بصرىٰ، وإقليم الجولان وعاصمته الجابية، وقد مثلت مدينة بصرىٰ أهم مركز ديني للغساسنة، كما مثلت الجابية أهم مركز سياسي لهم، وقد كان لمدينة (جلِّق) جنوبي حوران دور سياسي ملحوظ في تاريخ الغساسنة، وهي التي أشار إليها حسان بن ثابت في قوله يمدح الغساسنة:

لـلـه در عـصـابـة نـادمـتـهـم ... يومًا بجلِّق في الزمان الأول[3]

وقد شهدت إمارة الغساسنة قمة مجدها في عهد الحارث بن جبلة الذي يلقب بالأعرج، ويعرف أيضًا بالحارث بن أبي شَمِر أو الحارث الرابع، وقد حكم من حوالي سنة ٥٢٩ إلىٰ ٥٦٩م واتخذ من الجابية مقرًّا له. وكان الحارث بن جبلة -كنظيره

(١) وهو يعني مذهب الطبيعة الواحدة في السيد المسيح، أي الطبيعة الإلهية.

(٢) وهو يعني مذهب الطبيعتين في السيد المسيح: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية.

(٣) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري بشرح عبد الرحمن البرقوقي (دار الكتاب العربي بيروت) ص ٣٦١. وقد يقصد بجلق مدينة دمشق، انظر: ياقوت: معجم البلدان ج ٢، ص ١٧٩، وقد جاءت بهذا المعنىٰ في قول أمير الشعراء أحمد شوقي:

قم ناج جلِّق وانشُد رسم مَنْ بانوا ... مشت علىٰ الرسم أحداث وأزمان

الشوقيات (طبعة المكتبة التجارية الكبرىٰ بالقاهرة) ج ٢، ص ٩٥.

المنذر الثالث اللخمي ملك الحيرة- معاصرًا للإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول، وقد أعلىٰ الإمبراطور منزلة الأمير الغساني، وأمَّره علىٰ كل القبائل العربية بالشام، ومن هنا خلع عليه لقب «فيلارق» Phylarch الذي يعني شيخ القبائل، وأنعم عليه برتبة البطريق Patricius التي كانت في الدرجة التالية لرتبة الإمبراطور[١].

وبعد وفاة الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩م تولىٰ ابنه المنذر إمارة الغساسنة حتىٰ سنة ٥٨١م، وهو الذي شهد حكمه مولد محمد ﷺ سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م. ومنذ إمارة المنذر ابن الحارث بدأت العلاقات بين الغساسنة والبيزنطيين تتجه نحو التدهور، وقد كان ذلك راجعًا لعدد من الأسباب يأتي علىٰ رأسها الصراع الديني بين الجانبين؛ فقد أرادت الكنيسة البيزنطية أن تفرض مذهب الطبيعتين (في السيد المسيح) علىٰ الكنيسة العربية في الشام، التي كانت تؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة، ولكن الكنيسة العربية وقفت صامدة أمام الضغوط البيزنطية، وتمسكت بمذهبها، فكان لذلك آثاره السلبية علىٰ العلاقات السياسية بين الجانبين. وقد ثار الغساسنة علىٰ البيزنطيين بقيادة النعمان ابن المنذر بن الحارث بن جبلة، ولكن البيزنطيين تمكنوا من أَسْرِهِ وإرساله إلىٰ القسطنطينية سنة ٥٨٢ أو ٥٨٣م[٢]. ونتيجة لهذه العلاقات المتردِّية لم يُقَدِّم الغساسنة ولا عرب الشام بصفة عامة عونًا ملحوظًا للبيزنطيين عندما دهم الغزو الفارسي بلاد الشام سنة ٦١٣-٦١٤م. ولكن يبدو أن الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) حاول في وقت لاحق أن يصل ما انقطع من علاقات البيزنطيين بالغساسنة، ومما ترويه مصادرنا في هذا الصدد أن جبلة بن الأيهم -آخر ملوك الغساسنة- انضم للبيزنطيين في معركة اليرموك (في خلافة عمر بن الخطاب) ثم أسلم، ولكنه ارتد بعد إسلامه بقليل، ولحق بالروم[٣].

---

(١) نولدكه: أمراء غسان، ص ١٢ وما بعدها، محمد كرد علي: خطط الشام ج ١، ص ٦٧.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول علاقة الغساسنة بالبيزنطيين في تلك الفترة ارجع إلىٰ: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤١٢-٤١٧. وانظر أيضًا:

Trimingham, Cristianity amony the Arabs, PP. 185-187.

(٣) حول إمارة الغساسنة بالشام وتطور العلاقة بينها وبين البيزنطيين، ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص ٣٦-٤٦.

أديان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

رغم أن المجوسية كان لها أتباع بين سكان شبه الجزيرة العربية، ورغم أن اليهودية والنصرانية أيضًا كان لهما وجود ملحوظ في تلك المنطقة، فمن الممكن أن نقرر باطمئنان أن الوثنية كانت أعمق جذورًا من كل هذه الأديان في أرض شبه الجزيرة العربية.

لقد كانت المجوسية معروفة في قبائل تميم، ويرویٰ أنها كانت شائعة أيضًا بين قبائل البحرين؛ نظرًا لقربها من فارس. ويفسر الأستاذ العقاد شيوع المجوسية في هذه القبائل بأنها «كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام، ولا ينكرون في عبادتها للنار شيئًا؛ لأن إشعال النيران للقرىٰ والاستسقاء وإشهار الحلف لم تكن مجهولة في البادية العربية، ولعلهم سبقوها إلىٰ عبادة بعض الكواكب؛ لأنهم كانوا أحوج إلىٰ رصد الأنواء والاهتداء بالنجم في سفر الليل»[(١)].

أما اليهودية فقد عرفت طريقها إلىٰ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعدة قرون، وقد كانت هناك مراكز مختلفة لليهودية في بلاد العرب، ومن بينها تيماء، وَفَدَك، وَخَيْبر، ووادي القرىٰ. ولكن لعل أبرز هذه الأماكن من حيث التجمع اليهودي بها كان اليمن ويثرب.

وقد ارتبطت اليهودية في اليمن بملوك حِمْير، وخاصة بالملك ذي نواس[(٢)]، الذي كان شديد التعصب لليهودية؛ وهو الذي يقترن اسمه في كثير من مصادرنا التاريخية بمذبحة نصارىٰ نجران[(٣)]. التي يقال إنها حدثت سنة ٥٢٣م[(٤)]، وراح ضحيتها حوالي عشرين ألفًا[(٥)]. لقد أراد ذو نواس استئصال المسيحية من اليمن، ويمكن أن يُفسَّر ذلك تفسيرًا سياسيًّا في ضوء الدوافع القومية، فقد كان مسيحيو شبه الجزيرة العربية (ومعهم الأحباش) يوالون البيزنطيين أعداء الفرس، وكان يهود اليمن موالين

---

(١) عباس محمود العقاد: مطلع النور، ص ٣٧.

(٢) ويُعرف في النصوص النصرانية باسم Damuns وبصيغ أخرىٰ مشابهة. انظر: جواد علي، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤٦٢-٤٦٣، ٤٦٩.

(٣) تاريخ الطبري ج ٢، ص ١٢٣، والكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٢٩.

(4) TrimInghm, op. cit. 289.

(٥) تاريخ الطبري ج ٢، ص ١٢٣.

للفرس[1]، فأراد ذو نواس أن يقضي علىٰ مركز الولاء البيزنطي في دولته وعلىٰ مطامع الأحباش والبيزنطيين. ويرىٰ بعض المؤرخين أن نصارىٰ نجران الذين تعرضوا لمذبحة ذي نواس هم «أصحاب الأخدود»[2] الذين ورد ذكرهم في قوله تعالىٰ في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٤-٧][3]؛ في حين يرىٰ آخرون أن هذه الآيات لا تشير إلىٰ ذي نواس وأصحابه «لأن كلًّا من اليهود والنصارىٰ يؤمن بالله العزيز الحميد»[4].

وسواء أكانت هذه الآيات تشير إلىٰ ذي نواس ونصارىٰ نجران أم إلىٰ غيرهم فإنه من الثابت أن نصارىٰ نجران تعرضوا علىٰ يد ذي نواس لاضطهاد وملاحقة؛ مما حدا بهم إلىٰ أن يستغيثوا بالإمبراطورية البيزنطية حامية المسيحية، ولم يكن الإمبراطور البيزنطي في ذلك الوقت (وهو جستين الأول)[5] في وضع يسمح له بإرسال حملة بعيدة المدىٰ، فاتصل بتابعه ملك الحبشة المعروف باسم «ألاأصبحة»[6] وطلب منه التدخل لإنقاذ نصارىٰ اليمن، فاستجاب ملك الحبشة ووجه حملة ضخمة إلىٰ بلاد اليمن سنة ٥٢٥م[7] تمكنت من هزيمة ذي نواس وقتله والقضاء علىٰ مُلك الحميريين ووضْع حد للنفوذ اليهودي في اليمن. وقد استمرت اليمن مستعمرة حبشية حتىٰ استنجد أحد أبنائها -وهو سيف بن ذي يزن- بالإمبراطور الفارسي كسرىٰ أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) فأنجده كسرىٰ بجيش خلَّص اليمن من سيطرة الأحباش في حدود سنة ٥٧٦م[8]، وأخضعها للسيادة الفارسية التي دامت حتىٰ ظهور الإسلام وانضواء اليمن تحت لوائه.

---

(1) Cf., Ôleary, Arabia Before Muhammad, P. 177.

(٢) حول ذلك ارجع إلىٰ د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٩١.

(٣) وهناك أقوال أخرىٰ في تفسير المراد بأصحاب الأخدود راجعها في: **جامع البيان في تفسير القرآن** لمحمد بن جرير الطبري ج ٣٠ ص ٨٤-٨٥.

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٦-٢٧.

(٥) جستين الأول أوجستين الأكبر Justin the Elder تولىٰ حكم الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٥١٨م إلىٰ ٥٢٧م، وقد ابتدأ بحكمه عصر الأسرة المعروفة في التاريخ البيزنطي باسم «أسرة جستنيان».

(٦) جواد علي: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤٦٣.

(7) Trimingham. op. cit., 299.

(8) P. Sykes, A History of Persia، vol. I, p. 455.

علىٰ أن اليهودية في يثرب كانت تختلف عنها في اليمن، ذلك أن يهود يثرب لم يكونوا -علىٰ أرجح الآراء- عربًا تهوَّدوا كما رأينا في اليمن بل كانوا يهودًا أصلاء نزحوا عن موطنهم بفلسطين إلىٰ الجزيرة العربية في حوالي القرن الأول أو الثاني للميلاد[1]. وينفي الأستاذ العقاد نفيًا قاطعًا أن يكون يهود يثرب عربًا تَهَوَّدُوا؛ لأن القول بذلك -علىٰ حد تعبيره- «يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحول إلىٰ اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا في كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم . . وليس في هجرة اليهود من فلسطين إلىٰ بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم في القرن الأول أو الثاني للميلاد»[2].

وقد تكوَّن يهود يثرب من قبائل بني قَيْنُقَاع وبَني قُرَيْظَة وبني النَّضير، والمعروف أن يهود بني قينقاع كانوا حلفاء الخزرج في حربهم ضد الأوس، كما كان يهود بني النضير وبني قريظة حلفاء الأوس في حربهم ضد الخزرج، ولم تكن علاقة اليهود بعضهم ببعض علاقة تآلف ومودة، فلم يكن يربط بين بني قريظة وبني النضير إلا حسدهم لبني قينقاع ومحاولة الإيقاع بين الأوس والخزرج[3]؛ ولهذا لم يقدِّم اليهود -رغم أنهم أهل كتاب- قدوة صالحة لغيرهم من العرب الوثنيين المحيطين بهم، وصدق فيهم قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥].

(١) يثور جدل واسع لم يحسم بعدُ حول هذه القضية، ولا تقطع فيها كارين آر مسترونج برأي. انظر كتابها: سيرة النبي محمد ص ٢١٥-٢١٦، ويبدي التردد نفسه مونتجومري وات في كتابه Muhammad at Medina، P. 192 ولكنه يضيف إلىٰ القبائل اليهودية الثلاث في المدينة قبيلة بني ثعلبة التي يروي ما يقال عن أصلها العربي. المرجع نفسه، ص ١٩٤. أما ديلاسي أوليري فيطرح احتمال انتماء بني قينقاع إلىٰ أصل عربي، أما بنو قريظة وبنو النضير فيرىٰ أنهما قبيلتان يهوديتان «هاجرتا إلىٰ شبه الجزيرة العربية بعد تدمير هيكل سليمان سنة ٧٠م، أو بعد طرد الإمبراطور الروماني هادريان لليهود من فلسطين سنة ١٣٢م» انظر:
Arabia Before Muhammad, P. 173 f.
وفي الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ما يفيد أن يهود بني قريظة وبني النضير يهود أصلاء وليسوا عربًا تهوَّدُوا، انظر الأغاني ج ٢٢، ص ١٠٩-١٢٨.

(٢) عباس العقاد: مطلع النور، ص ٤٥.

(٣) المرجع السابق ص ٤٣.

وقد وجدت المسيحية أيضًا طريقها إلىٰ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولعل أهم مركز للمسيحية علىٰ الإطلاق في شبه الجزيرة كان نجران في شمال اليمن، وكان للغساسنة والأحباش الدور الأكبر في نشر المسيحية في شبه الجزيرة العربية بصفة عامة وفي مدينة نجران بصفة خاصة؛ وذلك بتشجيع الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تُعدُّ معقل المسيحية الأكبر في العالم في ذلك الوقت، وكانت ترىٰ في نشر المسيحية في أي مكان دعمًا لنفوذها السياسي. علىٰ أن المسيحية التي انتشرت في نجران (وفي غيرها أيضًا من أرجاء شبه الجزيرة العربية) كانت علىٰ المذهب المونوفيزيتي (اليعقوبي)[١] القائل بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح، ولم تكن علىٰ المذهب الديوفيزيتي (الملكاني) القائل بالطبيعتين، وهو المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية.

وقد ظهرت المسيحية في أماكن أخرىٰ من شبه الجزيرة العربية غير نجران، فقد وُجدتْ عدة قبائل انتشرت فيها المسيحية ومن أهمها تغلب وبهراء وتنوخ ولخم وجذام، بل إن المسيحية كان لها أتباعها أيضًا بين قبيلة قريش نفسها بمكة. وقد كان أبرز هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي الذي «تنصَّر واستحكم في النصرانية وقرأ الكتب» علىٰ حد تعبير بعض المؤرخين[٢]، ومن هؤلاء أيضًا ابن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد الذي ذهب إلىٰ ملك الروم (الإمبراطور البيزنطي) يلتمس منه أن يساعده في أن يصبح سلطانًا علىٰ مكة، وذلك في مقابل أن يقوم ابن الحويرث بنشر المسيحية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ولكن عثمان توفي بعد ذلك بقليل[٣]. والأمر الذي يجب أن نؤكده هنا -رغم ذلك- أن انتشار المسيحية بين قريش بمكة كان محدودًا للغاية.

---

(١) نُسب المذهب المونوفيزيتي إلىٰ يعقوب البراذعي مطران الرها؛ لأنه كان أكبر دعاته في الشرق. وقد كان الأمير الغساني الحارث بن جبلة علىٰ علاقة طيبة بالإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول. كما كانت الإمبراطورة ثيودورا (زوج جستنيان الأول) متعاطفة مع المونوفيزيتيين، وقد استطاع الحارث -بتعضيد ثيودورا- أن يحصل من جستنيان علىٰ قرار بتعيين يعقوب البراذعي مطرانًا للكنيسة المونوفيزيتية في بلاد الشام، وظل يعقوب البراذعي حتىٰ وفاته سنة ٥٧٨م يجوب البلاد الشرقية محاولًا توحيد كنائسها جميعها تحت راية المذهب المونوفيزيتي وإعادة بث الروح في هذا المذهب، فنسب إليه، لمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ:

De lacy ôleary, Arabia Before Muhammad, P. 139f.

(٢) محمد بن حبيب: المحبر، ص ١٧١، وانظر أيضًا: ابن كثير: البداية والنهاية ج٢، ص ٢٢١.

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ: محمد بن حبيب: المنمق، ص ١٧٨ وما بعدها.

غير أننا ينبغي أن نقرر أن الأديان التي ذكرناها الآن (وهي المجوسية واليهودية والمسيحية) رغم انتشار بعضها في أماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية -لم تستطع أن تنافس الوثنية في هذا المجال، ويقدم الباحثون أسبابًا عدة لظهور الوثنية ثم انتشارها بين العرب لعل أحراها بالقبول هو أن العرب في البداية كانوا يحملون خلال أسفارهم حجارة من الحرم تعبيرًا عن حبهم وتعظيمهم لذلك المكان المقدس وتذكيرًا لهم بمكة . . ولم يكن ذلك التصرف في عهده الأول ينطوي علىٰ أي دلالة وثنية، فقد كانت الملة الحنيفية التي أتىٰ بها إبراهيم ﷺ ما تزال تعمر نفوس هؤلاء، فلما طال بهم الأمد وبعُدَ عهدهم بدين إبراهيم ﷺ لم تفطن الأجيال اللاحقة إلىٰ أن أسلافهم لم يُعَظِّمُوا الحجارة لذاتها بل كانوا يعظمون ما ترمز إليه وهو مكة والبيت الحرام، فلما اختفت الصلة بين الرمز والمرموز إليه أصبح تعظيم الحجر مقصودًا لذاته[١]، ومن هنا نشأت عبادة الأصنام ثم اتسعت، وتحوَّل الكثير من العرب إلىٰ وثنيين يعبدون من دون الله آلهة صنعوها بأيديهم، وقد بلغ رسوخ هذه العقيدة في أنفسهم حدًّا جعلهم يبذلون الدم والمال في سبيل الدفاع عنها والصد عن دعوة التوحيد التي أتىٰ بها محمد ﷺ، كما سنوضح ذلك في موضعه من هذا الكتاب.

والملاحظ أن عبادة الأصنام عند العرب تأثرت بالعصبية القبلية، فقد رأينا القبائل العربية الكبرىٰ تتنافس في اتخاذ أصنام خاصة بها[٢]؛ فكان هُبَل (في جوف الكعبة) كبيرَ الآلهة وكان صنم قريش الأول[٣]، وتأتي بعده العُزَّىٰ من حيث الأهمية عند قريش[٤]، أما اللات فقد كان مقرها الطائف[٥]، وكانت أهم صنم عند ثقيف، ورغم أن مناة (علىٰ ساحل البحر بين المدينة ومكة)[٦] كانت صنمًا يحظىٰ بتقدير العرب

(١) راجع التفاصيل في: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي، ج ١ ص ٨٩-٩٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٥٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٤.

(٤) والعُزَّىٰ في الأصل لقبيلة غطفان، وكان مقرها نخلة، ولكن قريشًا كانت تعظمها، يروي المؤرخون أن أبا سفيان -بعد انتهاء معركة أحد- وقف يصيح بأعلىٰ صوته ليُسمع المسلمين: اعلُ هُبَل! لنا العزَّىٰ ولا عُزَّىٰ لكم! تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٢٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٥٥.

(٦) يذكر اليعقوبي أن مناة كان منصوبًا بفدك مما يلي ساحل البحر، وكان للأوس والخزرج. تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٥.

جميعًا فقد كانت الأوس والخزرج تخصّه بمزيد من التعظيم وتذبح له القرابين، وهناك أصنام أخرىٰ لقبائل أخرىٰ لا يعنينا الخوض في تفاصيلها هنا[١].

وقد يظن المرء أن سيطرة هذه الروح الوثنية علىٰ العرب الجاهليين قطعت الصلة بينهم وبين ملة إبراهيم عليه السلام ولكن الواقع أنه وُجد بين هؤلاء العرب من لجأ إلىٰ فطرته الصافية فاهتدىٰ إلىٰ عبادة الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام، وأبرز مثال علىٰ هؤلاء «المتحنثين»[٢] أو «الحنفاء»[٣] زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزىٰ الذي كان لا يأكل إلا ما ذُبح علىٰ اسم الله وحده، وكان زيد يقول عن نفسه: «يا معشر قريش . . والله ما أعلم علىٰ ظهر الأرض أحدًا علىٰ دين إبراهيم غيري» وكان يناجي ربه قائلًا: «اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه»! وفي زيد هذا قال ﷺ إنه: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**»[٤].

ومهما يكن فلا بد أن نقرر أن أمثال زيد كانوا قلة بين العرب الوثنيين، وكانت هذه القلة أيضًا في حاجة إلىٰ تبصير بحقيقة الدين الخالص.

---

(١) للمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١ ص ٩٣-٩٤.

(٢) يقول ابن منظور: «تحنّث: تعبّد واعتزل الأصنام ..» ثم يروي عن ابن سيده قوله: «وهذا عندي علىٰ السلب كأنه ينفي بذلك الحِنْثَ الذي هو الإثم عن نفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] أي انف الهجود عن عينيك، ونظيره: تأثم وتحَوَّب أي نفىٰ الإثم والحُوب». راجع مادة (حنث) في لسان العرب لابن منظور، ج ٢ ص ١٠١٨-١٠١٩.

(٣) جاء في لسان العرب لابن منظور (مادة حنف): «حنف عن الشيء وتحنف: مال، والحنيف: المسلم الذي يتحنّف عن الأديان أي يميل إلىٰ الحق، وقيل: هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام علىٰ ملة إبراهيم».

(٤) حول أخبار زيد بن عمرو بن نفيل راجع: أسد الغابة لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٩٥، والأغاني للأصفهاني، ج ٣، ص ١٢٣-١٣١.

الفصل الأول
قريش ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية قبل الإسلام

قريش بين القبائل العربية:

تنقسم القبائل العربية -كما ذكرنا- إلىٰ قسمين أساسيين: القحطانية والعدنانية. وقد ارتبط القحطانيون بجنوب شبه الجزيرة العربية أو اليمن، كما ارتبط العدنانيون بشمال شبه الجزيرة العربية، وتعدّ مكة المكرمة موطنهم الأصلي.

وقد تفرعت من العدنانيين قبائل مضر وربيعة وإياد وأنمار، وتفرعت من مضر قيسُ عيلان بن مضر وإلياس بنِ مضر، وتفرعت من إلياس مضر قبائل عدة أشهرها تميم وهذيل وأسد بن خزيمة والهُون بن خزيمة، وكنانة بن خزيمة[١].

وتنتمي قريش إلىٰ كنانة، وهي تنقسم إلىٰ بطون شتىٰ منها: جُمَح وسهْم وعَدِي ومخزوم وتيم وزُهرة وعبد الدار، وعبد مناف[٢].

الآراء حول اشتقاق كلمة «قريش» ومعناها:

تختلف الآراء حول اشتقاق كلمة «قريش» ومعناها، فقيل: إنها مأخوذة من التَّقرُّش بمعنىٰ التجمُّع بعد التفرق، وقيل: إنها من التَّقرُّش بمعنىٰ التكسب والتجارة. وقيل بل هي تصغير كلمة «قرْش» وهي سمكة البحر المعروفة، وقيل غير ذلك. والواقع أن كل هذه الآراء لا تستند إلىٰ دليل قاطع؛ فكثير من أسماء الأعلام تفقد دلالتها الأصلية

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٠-١١.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢ ص ٥٩.

بتقادم العهد ولا تعني أكثر من المسمىٰ الذي تشير إليه، ويبدو أن أصحاب هذه الآراء استندوا في تفسيراتهم هذه إلىٰ ما اشتهرت به قبيلة قريش من صفات أو أنشطة فحاولوا الربط بين اسم «قريش» وبين كلمات تفيد هذه المعاني. فالرأي الذي يذهب إلىٰ أنها مأخوذة من التقرش بمعنىٰ التجمع بعد التفرق يستند إلىٰ ما قام به قُصَي بن كلاب من لمِّ شتات قريش وجمعهم بالحرم؛ ولهذا قال الشاعر حذافة بن غانم العدوي في حديثه لقريش[1]:

أبوكم قُصيٌّ كان يُدْعَىٰ مُجمِّعًا ... به جمع الله القبائل من فِهْرِ[2]

والرأي الذي يذهب إلىٰ أن الكلمة مأخوذة من التقرش بمعنىٰ التكسُّب والتجارة يستند إلىٰ النشاط التجاري المتميز الذي اشتهرت به قبيلة قريش[3]، أما الرأي الذي يربط بين الكلمة وبين سمكة القريش فهو يستند إلىٰ ما عرفت به قريش من القوة والسيادة علىٰ غيرها من القبائل[4]. ولا يهمنا البحث في أصول الأعلام -علىٰ أي حال- بقدر ما يهمنا معرفة المدلول الموضوعي لهذه الأعلام علىٰ وجه الدقة.

مكانة قريش من كنانة:

يذهب الأكثرون إلىٰ أن القرشيين هم هؤلاء الذين ينتسبون إلىٰ النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، والنضر هو قريش[5]، وهناك من يقول إن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة هو قريش[6]، ولكن الأرجح أن النضر هو قريش.

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٦٣-٢٦٥، البداية والنهاية لابن كثير، ج ٢ ص ١٨٧، لسان العرب لابن منظور (مادة قرش)، ج ٥، ص ٣٥٨٥-٣٥٨٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٧. وحول أصل هذا اللقب ارجع أيضًا إلىٰ: ابن قتيبة: المعارف، ص ٧٠؛ وتاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٤٠.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة (قرش)، ج ٥، ص ٣٥٨٦.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٥) ابن قتيبة: المعارف، ص ٦٧، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٣٣، سيرة ابن هشام، ج ١ ص ١٠٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢، ص ١٨٦.

(٦) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٢.

ويشير حديث رسول الله ﷺ إلىٰ أن قريشًا هم صفوة كنانة، وذلك حيث يقول: «**إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم**». رواه مسلم.

فمن المفهوم -إذن- أن يكون النضر -وهو أصل قريش- أبرز أولاد كنانة. وكان لكنانة من الولد -غير النضر- مَلْك ومِلكان وعبد مناة[1].

ولكن مما لا شك فيه أن قريشًا تدين بالكثير مما تمتعت به من قوة ونفوذ بمكة إلىٰ قصي بن كلاب.

مكانة قريش بمكة ودور قصي بن كلاب في تأسيس تلك المكانة:

تفردت قبيلة «جُرْهم» اليمانية بالسلطة زمانًا في مكة بعد أن استطاعت طرد العمالقة من الحجاز. وجُرْهم هؤلاء هم الذين تزوج منهم إسماعيل ﷺ وقد صارت سدانة البيت الحرام ومفاتيحه لجرهم، وبقيت فيهم نحو ثلاثمائة سنة، فأكلوا مال الكعبة الذي يُهْدىٰ إليها واستحلوا حرمها[2].

ثم آلت سدانة البيت ومفاتيحه إلىٰ قبيلة خزاعة حيث انتهت أخيرًا إلىٰ رجل منهم يقال له سليمان (أو سليم) بن عمرو ويكنىٰ بأبي غُبْشان، وكان أبو غبشان هذا معاصرًا لقصي بن كلاب الذي اجتمع معه علىٰ شراب بالطائف، ويروي المؤرخون أن أبا غبشان سكر في مجلسه هذا فاشترىٰ منه قصي سدانة البيت بزق خمر وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنه عبد الدار بالمفاتيح إلىٰ الكعبة، فنادىٰ عبد الدار بأعلىٰ صوته: «يا معشر قريش، هذه المفاتيح مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردها الله عليكم ..» فلما أفاق أبو غبشان ندم حيث لا ينفع الندم، ولهذا قيل في المثل: «أخسر من صفقة أبي غبشان»[3]، وقال بعض الشعراء في ذلك:

باعت خزاعةُ بيتَ الله إذ سكرتْ ... بزقِّ خمر، فبِئْسَتْ صفقةُ البادي!
باعت سِدَانتها بالنَّزْر وانصرفت ... عن المقام وظِلِّ البيت والنادي[4]

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ج ٤، ص ٢٦٢، سيرة ابن هشام، ج ١ ص ١٢٥.
(٣) صبح الأعشىٰ، ج ٤، ص ٢٦٣.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولكن خزاعة لم تستسلم بسهولة، فجمعت جموعها لحرب قصي، فاستنصر قصي قومه فنصروه، وكانت لهم الكَرَّةُ علىٰ خزاعة، فأجلوهم عن مكة، فخلصت هذه المدينة لقصي وأصبح له الأمر بها وتولىٰ شئون البيت الحرام، وذلك في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، وكان أهم ما فعله قصي بعد ذلك أن جمع قريشًا من منازلهم في الشعاب ورؤوس جبال مكة، فقسم مكة بينهم، وأنزلهم منها منازلهم التي أصبحوا عليها[١].

وقد خطا قصي خطوة أبعد في سبيل جمع كلمة قريش ورعاية أمورهم، فأنشأ «دار الندوة»، وكانت تُعرف أحيانًا باسم «دار قصي بن كلاب» وجعل بابها إلىٰ الكعبة، وفي هذه الدار كانت قريش تقضي أمورها، «فما تُنكح امرأةٌ ولا رجل من قريش إلا في دار قصي بن كلاب، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره . . »[٢].

وهكذا بدأت المكانة الاجتماعية لقريش في مكة تبرز وتتأكد علىٰ يد قصي بن كلاب. وكان قصي مسموع الكلمة في قريش، «وكانت قريش في حياته، وبعد وفاته، يرون أمره كالدِّين المتبع»[٣].

ولم تكن تلك المكانة الاجتماعية التي تبوأتها قريش علىٰ يد قصي، راجعة فقط إلىٰ نزولها بمكة وإنشاء دار الندوة، بل كانت راجعة كذلك إلىٰ قيام قصي، ثم أولاده من بعده، بمسئولية رعاية البيت الحرام، كما أشرنا آنفًا، ذلك أن الكعبة المكرمة كانت موضع إجلال العرب جميعًا، ومن هنا فإن من يتولىٰ القيام علىٰ أمورها لا بد أن يذيع صيته بين العرب وترتفع مكانته.

وقد نظم قصي بن كلاب وظائف الكعبة علىٰ النحو التالي:

السِّقَاية: وهي تعني جَلْبَ الماءِ من مصادره -حيث وجِدَتْ- إلىٰ مكة لسقاية

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٦-٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٨-٢٥٩، وانظر أيضًا: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٠، ومعجم البلدان لياقوت (مادة مكة) ج ٥، ص ٢١٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٠، ويقول البلاذري: «وكان أمر قصي عند قريش دينًا يعملون به ولا يخالفونه».. أنساب الأشراف ج ١، ص ٥٢.

الحاج، ذلك أن بئر زمزم كانت قد ردمت قبل ذلك الوقت فلم يكن الحصول علىٰ الماء سهلًا في مكة وخاصة في موسم الحج، ومن أجل ذلك، كان توفير الماء للحجاج بمكة عملًا جليلًا يضمن لصاحبه رفعة الشأن وطيب الذكر.

الرِّفَادة: وهي تعني إطعام الحجيج في موسم الحج حتىٰ يخرجوا راجعين إلىٰ بلادهم، يروي الطبري وغيره أن قصيًّا فرض ذلك علىٰ قريش وقال لهم: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته الحرام، وإن الحاجّ ضيف الله وزوَّار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم شرابًا وطعامًا أيام هذا الحج حتىٰ يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يخرِجون لذلك كلَّ عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيصنعه طعامًا للناس أيام مِنىٰ، فجرىٰ ذلك من أمره علىٰ قومه في الجاهلية»[1].

الحجابة: وهي سدانة البيت، أي القيام عليه وحفظه وتولي مفاتيحه[2].

اللواء: وهي راية يعقدونها علىٰ رمح عند إعلان الحرب ويرفعونها علامة علىٰ الجيش الذي يتبعونه.

الندوة: وهي رياسة الاجتماعات المهمة طوال العام، وهي الاجتماعات التي كانت تعقد عادة في دار الندوة.

فتلك هي أهم مناصب الكعبة أو وظائفها، وقد تولاها قصي بن كلاب فأحسن القيام بها، فلما كبر ووهن منه العظم عهد بوظائف الكعبة كلها إلىٰ ابنه عبد الدار؛ فقد كان أسنَّ أولاده وأحبَّهم إليه، وإن لم يكن أصلحهم للرياسة، وقد استمرت هذه الوظائف في يد عبد الدار، وكان إخوته لا ينازعونه في ذلك، ولكن أبناءهم تشاجروا بعد ذلك مع أبناء عبد الدار حول هذه الوظائف، وانقسمت بطون قريش علىٰ نفسها؛ ذلك أنه عندما عظم شأن بني عبد مناف بن قصي قالوا: «نحن أولىٰ بما يتولاه بنو عبد الدار منهم»[3]. وأيدهم في موقفهم ذلك من بطون قريش: بنو أسد، وبنو زُهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، وتحالف هؤلاء جميعًا إلا يُسْلم بعضهم بعضًا، وأتوا بإناء فيه طيب فغمسوا أيديهم فيه ومسحوها بأركان الكعب فسُمُّوا «المطيِّبين»، علىٰ

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٦٠، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ١٩٢.

(٢) جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (حجب)، ج٢، ص ٧٧٧: «وفي الحديث: قالت بنو قصي: فينا الحجابة، يعنون حجابة الكعبة، وهي سدانتها وتولي حفظها، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها».

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٥.

حين انضم إلىٰ بني عبد الدار من قريش: بنو مخزوم، وبنو جُمَح، وبنو سهم، وبنو عدي بن كعب، وهؤلاء يعرفون بـ «الأحلاف»، ويروىٰ أن بني عدي قالوا في هذه المناسبة: «إنما الطِّيب لربات الحجال»! وأتوا بجفنة فيها دم، فغمسوا أيديهم فيها، فسُمِّي بنو عدي لذلك «لَعَقَة الدم» و«وَلَغَة الدم»[1]، وقد همَّ الفريقان -المطيِّبون والأحلاف- بالقتال علىٰ وظائف الكعبة، ثم اصطلحوا علىٰ أن تكون لبني عبد مناف الرفادة والسقاية، «وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار، فانُبرَمَ الأمر علىٰ ذلك واستمر»[2].

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فقد بقيت تلك الوظائف الجليلة في قريش، ولا شك أن بقاءها في قريش -منذ أن اضطلع بها قصي بن كلاب- أكسب هذه القبيلة منزلة فريدة، لا في مكة وحدها، بل في شبه الجزيرة العربية جمعاء.

ولم تنحصر مكانة قريش قبل الإسلام في ذلك الجانب الاجتماعي البارز بل استمدت المزيد من التأكيد والقوة بما عُرف عن هذه القبيلة من نشاط اقتصادي متميز. والواضح أن الذي ساعد «قريشًا» علىٰ أن تمارس دورها هذا الاقتصادي هو ذلك الموقعُ التجاري الفريدُ الذي تمتعت به مكة كملتقىٰ للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب. لقد سبق أن أشرنا إلىٰ أن موقع مكة التجاري كان من بين ما أسهم في دعم مكانتها الخاصة قبل الإسلام. والواقع أن قبيلة قريش كانت من المهارة بحيث استطاعت أن تحوِّل مكة من مجرد محطة تجارية إلىٰ عنصر إيجابي مشارك فيما يدور حولها من نشاط، وهكذا وجدنا قريشًا تسهم بالدور الأكبر في الرحلتين المعروفتين باسم: رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وقد كانت الأولىٰ إلىٰ بلاد اليمن والحبشة والعراق[3]. والثانية إلىٰ بلاد الشام[4]، ونجد في القرآن الكريم ما يؤكد هذا الدور في قوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٦، ويروي المؤرخون أنه «لما كان يوم أحد أتىٰ زيدُ بن الخطاب، أخو عمر، أبا جَهْم بن حذيفة بن غانم، فقال له أبو الجهم: أنا والغ الدم! فقال له زيد: قد أتاك والغٌ مثلك»! المصدر نفسه ص ٥٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١ ص ٥٩.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها، وانظر أيضًا: تفسير الكشاف للزمخشري، ج ٤، ص ٨٠١.

ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[1] [قريش: ١-٤].

والجدير بالذكر أن تجارة قريش بلغت أوج ازدهارها في عهد هاشم بن عبد مناف ابن قُصَيّ وإخوته عبد شمس ونوفل والمطلب. وقد استطاع هاشم أن يحصل من دولة الروم علىٰ إذن لقريش بأن تجول بتجارتها في أنحاء الشام، دون التعرض لها بأذىٰ، وحصل علىٰ مثل ذلك من ملوك الغساسنة بالشام، ونجح عبد شمس في إبرام معاهدة تجارية مع النجاشي ملك الحبشة، فتحت المجال واسعًا لتجارة القرشيين في ذلك الإقليم، كما عقد نوفل معاهدة تجارية مع إمبراطور الفرس أتاحت التعامل مع العراق وفارس، وعقد المطَّلب مثل هذه المعاهدة مع اليمن التي كانت حينذاك تحت حكم الحميريين[2]. وهكذا استطاع بنو عبد مناف -بمواهبهم التجارية الفذة- أن يصلوا باقتصاد قريش إلىٰ مدىٰ لم يسبق له نظير في العظمة، «فجبَّر الله بهم قريشًا»[3] -كما يقول الطبري- «فسُمُّوا المجبِّرين»[4]. وقد كان من الطبيعي أن تُسْهم هذه المكانة الاقتصادية التي تمتعت بها قريش في دعم مكانتها الاجتماعية.

ظلت قريش تتمتع بهذه المكانة المتميزة -اجتماعيًّا واقتصاديًّا- حتىٰ ظهور الإسلام. ونحن نقرأ ما يفيد أن عبد الله بن عبد المطلب -والد الرسول ﷺ- كان يتردد علىٰ الشام في تجارة قريش[5]، كما كان أبو طالب بن عبد المطلب -عم الرسول ﷺ- من بين مَنْ أسهموا من القرشيين بنصيب في ذلك النشاط التجاري، ويروىٰ أن رسول الله ﷺ صحب عمه أبا طالب في إحدىٰ رحلاته التجارية إلىٰ الشام

---

(١) والإيلاف مصدر آلف (بالمد)، ويمُنُّ الله علىٰ قريش هنا بأنه -سبحانه- قد كفل لهم الأمن والسلامة فجعل نفوسهم تألف الرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر في الشتاء والصيف، ومن هنا فإن عليهم تقديم واجب الشكر بعبادة رب هذا البيت الذي أكرمهم لمجاورتهم له. ويقول الزمخشري: «أطلق الإيلاف، ثم أبدل عنه المقيَّد بالرحلتين، تفخيمًا لأمر الإيلاف وتذكيرًا بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولًا به» الكشاف، ج ٤ ص ٨٠٢.

(٢) راجع: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢، وانظر أيضًا: أنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٥٩.

(٣) في لسان العرب لابن منظور مادة (جَبَر) ج ١ ص ٥٣٥: «الجَبْر» خلاف الكسر، جَبَر العظم والفقير واليتيم.. وَجَبَّره ... ويقال: جبّرت الكبير أجبِّره تجبيرًا وجبرته جبرًا ...».

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٤٥.

وهو ابن اثنتي عشرة سنة[1]. وهناك العديد من الشخصيات القرشية الأخرىٰ التي برزت في هذا المجال، لعل من أشهرهم أبا سفيان بن حرب، بل إن نساء قريش أسهمن بنصيبهن أيضًا في ذلك الميدان، وتُعَدُّ السيدة خديجة بنت خويلد أبرز مثال علىٰ هؤلاء. والمعروف أن الرسول ﷺ كان -قبل بعثته- من بين من استأجرتهم السيدة خديجة للعمل في تجارتها ثقة منها في صدقه وأمانته[2].

فالخلاصة: أن قريشًا كانت تحتل مكان الذروة بين القبائل العربية جميعها بقيامها علىٰ رعاية بيت الله الحرام مما جعلها تتمتع بوضع اجتماعي فريد، وقد عززت هذا الوضع الاجتماعي بمكانتها الاقتصادية المتميزة بما أفاء الله عليها من ثراء ونعمة، وذلك بفضل نشاطها التجاري الذي لم يستطع غيرها أن ينافسها فيه، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك حين رد علىٰ منطق المترددين في قبول دعوة محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

في تلك القبيلة التي كانت تتسنم تلك الذروة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الحرم الآمن وُلِد رسولُ الله ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٧٧-٢٧٨، والروض الأنف للسهيلي، ج ١، ص ٣١٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨٠.

الفصل الثاني

الرسول ﷺ قبل البعثة

الهاشميون أسرة رسول الله ﷺ:

من الضروري -قبل أن نتناول سيرة رسول الله ﷺ قبل البعثة- أن نتعرف باختصار إلىٰ تلك الشجرة التي أنبتت ذلك الفرع الزكي؛ لأن التعرف إلىٰ الفروع لا يمكن أن يتم بصورة صحيحة دون أن يسبقه التعرف إلىٰ الأصول.

ونبي الإسلام ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقبيلة قريش -كما سبق أن أشرنا- تنتسب إلىٰ النضر في أصح الأقوال، فالرسول ﷺ كناني قرشي، ولكنه قبل ذلك هاشمي، أي ينتسب إلىٰ هاشم بن عبد مناف. فالهاشميون -أو آل البيت- هم أهل الرسول ﷺ الأدْنَوْن الذين يجب علينا أن نتعرف إليهم الآن.

ولنبدأ بجده الأعلىٰ هاشم بن عبد مناف، و«هاشم» لقبُه الذي غلب علىٰ اسمه الأصلي وهو «عمرو»[1]، وإنما لُقِّبَ هاشمًا «لأنه أول من هَشَمَ الثريد لقومه بمكة وأطعمه»[2]. ويلقي البلاذري الضوء علىٰ ذلك فيقول: «أصابت قريشًا سَنَةٌ -أي شدة- ذهبت بأموالهم وأقحطوا فيها، وبلغ هاشمًا ذلك وهو بالشام، وكان متجره بغزة

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٦، وهشم الثريد أي كسره، والثريد هو «ما يُهشَم من الخبز ويُبَلُّ بماء القِدْر وغيره» انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (ثَرَدَ)، ج ١، ص ٤٧٦.

وناحيتها، فأمر بالكعك والخبز فاستكثر منهما، ثم حملا في الغرائرِ[1] علىٰ الإبل، حتىٰ وافىٰ مكة، فأمر بِهَشْم ذلك الخبز والكعك، ونُحِرَت الإبلُ التي حَمَلت. فأشبع أهل مكة، وقد كانوا جَهدوا»[2].

ومن المآثر التي ينسبها الكثير من مؤرخينا إلىٰ هاشم أيضًا أنه أول من سنَّ لقريش رحلتي الشتاء والصيف[3]، وفي ذلك يقول أحد الشعراء[4]:

عمرو العُلَىٰ هَشَمَ الثريد لقومه ... ورجالُ مكة مُسْنِتونَ عِجَاف[5]

وهو الذي سنّ الرحيل لقومه ... رِحَلَ الشتاء ورحلة الأصياف[6]

وينكر ابن خلدون أن يكون هاشم هو «أول من سنَّ الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب»؛ لأن الرحلتين -علىٰ حد قوله- «من عوائد العرب في كل جيل لمراعي إبلهم ومصالحها؛ لأن معاشهم فيها»[7]. ولكن الواضح أن ابن خلدون يخلط هنا بين الرحلتين التجاريتين لقريش في الشتاء والصيف وبين تنقل العرب من مكان إلىٰ مكان في المواسم المختلفة طلبًا للكلأ، وهما أمران لا وجه للخلط بينهما، وأقل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أنَّ هاشمًا إن لم يكن هو أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف من الوجهة الواقعية فإنه «كان يحمي تلك الرحلات وينظمها فُنسب إليه أنه أول من سنَّها»، كما يرىٰ الأستاذ العقاد[8].

---

(١) الغرائر: جمع غرارة، وهي وعاء من نسيج خشن يوضع فيه القمح ونحوه.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٩، وانظر أيضًا: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٤٢، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٣٦، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٧.

(٤) هو عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ طبقًا لرواية البلاذري، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٥) عمرو: المقصود به هاشم، ومُسْنِتون: أصابتهم سَنَة وهي الجدب والقحط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨، ويُروَىٰ هذان البيتان أيضًا علىٰ الوجه التالي:

عمرو الذي هَشَم الثريد لقومه ... ورجالُ مكة مُسْنِتون عجاف

سُنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢، ص ٢٣٦.

(٧) ابن خلدون: العبر، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٨) مطلع النور، ص ١٢٠.

وتذكر بعض الروايات أن هاشمًا كان أكبر أولاد عبد مناف[1]، وإذا جاز لنا أن نشكك في صحة هذه الرواية فلا مجال للتشكيك في أنه كان أعظمهم مكانة، ومن أجل هذه المكانة المتميزة ولي بعد أبيه منصب السقاية والرفادة[2].

وقد توفي هاشم بغزة من أرض فلسطين في إحدىٰ رحلاته التجارية وهو في ريعان شبابه، ودفن هناك[3].

أما عبد المطلب -الجد المباشر للرسول ﷺ- فقد كان أبرز أولاد هاشم[4]، وإليه صار شرف قريش، فلا شك أن عبد المطلب كان سيد قومه بلا منازع، وقد ارتبطت به أحداث أعطت لاسمه ذيوعًا ومكانًا في التاريخ؛ فقد جدد حفر بئر زمزم بعد أن كانت مطموسة من عهد جرهم، ولكن لعل أبرز ما ارتبط به اسم عبد المطلب من أحداث كان محاولة أبرهة الحبشي غزو الكعبة، وهي تلك المحاولة التي باءت بالفشل، وقد أعلن أبرهة أنه لم يأتِ لقتال أهل مكة وإنما أتىٰ لهدم البيت الحرام[5]، وكان قد بنىٰ كنيسة عظيمة في صنعاء باليمن سماها «القُلَّيس»[6] أراد أن يصرف إليها حجاج بيت الله الحرام لتصبح كعبة العرب جميعًا[7]، وكانت اليمن حينذاك تحت حكم أبرهة. ويذكر المؤرخون أن أبرهة استخدم الفيلة في حملته تلك؛ ولهذا عرف العام الذي حدثت فيه بعام الفيل (٥٧٠ أو ٥٧١م) وهو العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وكان أبرهة قد اتصل بعبد المطلب سيد مكة وهو في طريقه لغزو الكعبة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٦، وتذكر بعض الروايات الأخرىٰ أن هاشمًا وعبد شمس كانا توأمين، ويروىٰ أيضًا أن عبد شمس كان أكبر من هاشم. انظر تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٢، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ١٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٦٣، وانظر أيضًا: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٤، وتوفي هاشم عن خمسة وعشرين عامًا، وقيل: عن عشرين عامًا، والأول أثبت. البلاذري: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) خلف هاشم عددًا من الولد غير عبد المطلب وهم: الشفاء ونضلة، وأسد، وأبو صيفي، وضعيفة، وخالدة، وحنَّة، انظر: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٤.

(٥) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٣.

(٦) وهي من الكلمة اليونانية Ekklesia بمعنىٰ «كنيسة». انظر:

Trimingham, Christianity among the Arabs, P. 304.

(٧) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٠، وانظر أيضًا مادة «أبرهة» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية بقلم بيستون، ج ١، ص ١٨٠، وللمؤلف وجهة نظر تختلف مع ما في المصادر العربية.

وأبلغه رسالة مؤداها أن أهل مكة في أمانٍ إن خَلّوا بينه وبين غايته الأساسية وهي هدم البيت الحرام، فكان ردّ عبد المطلب أنه يريد إبله التي استولىٰ عليها جند أبرهة، وعددها مائتا بعير. فتعجب أبرهة وقال لعبد المطلب: أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه! فقال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا سيمنعه[1]! وقد مضىٰ أبرهة لغايته التي أعلنها وهي هدم الكعبة، ولكن الله صان بيته الحرام، وسحق جيش أبرهة ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] علىٰ ما جاء في سورة الفيل.

لقد كان عبد المطلب -إذن- بمثابة زعيم مكة أو أميرها بدليل تلك المفاوضات التي دارت بينه وبين أبرهة، وقد أضاف عبد المطلب إلىٰ هذا كله أنه اضطلع بوظيفتي الرفادة وسقاية الحاج بعد مهلك عمه المطَّلب بن عبد مناف[2].

أما عبد الله بن عبد المطلب -والد الرسول ﷺ- فقد كان أحب أبناء عبد المطلب إليه، وهو الملقب بالذبيح الثاني[3]، وتروي مصادرنا في تفسيرها لهذا اللقب أن عبد المطلب نذر علىٰ نفسه إن رزق عشرة من الولد واستطاعوا نصرته ومَنَعَهُ أن يذبح أحدهم لله عند الكعبة. وسبب هذا النذر أن عبد المطلب كان قد لقي عناء وهو يعيد حفر بئر زمزم. ولم يكن له من الولد غير الحارث، وقد خذلته قريش في البداية، فلما انبثق الماء من زمزم قامت تنازعه حقه فيها، ولم تُخَلِّ بينه وبين زمزم إلا بعد مكابدة،

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥١. وكانت الرفادة والسقاية قد صارتا للمطلب بن عبد مناف بعد وفاة أخيه هاشم. انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٥٧. وكان المطَّلب شديد الحب لابن أخيه عبد المطلب. واسم عبد المطلب شيبة أو شيبة الحمد، وإنما عرف بعبد المطلب لشدة ارتباطه بعمه المطلب. وكانت أم عبد المطلب -وهي سلمىٰ بنت زيد بن عمرو- من يثرب من بني عدي بن النجار. وعندما ولد ابنها شيبة الحمد (وهو عبد المطلب) كانت مقيمة بيثرب، وفي تلك الأثناء توفي هاشم بن عبد مناف بغزة، فمكث عبد المطلب بيثرب سبع سنين أو ثماني سنين، ثم ذهب عمه المطلب من مكة إلىٰ يثرب وحمله معه إلىٰ مكة، وكان الناس لا يعرفونه، فقيل: هو عبد المطلب، فاشتهر عبد المطلب بذلك، وتوارىٰ اسمه شيبة الحمد. للتفاصيل ارجع إلىٰ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٦ وما بعدها، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص٦٤-٦٥، وتاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٥.

ومن هنا أحسَّ عبد المطلب بقيمة الذرية التي تمنع جانبه وتشد أزره، فأخذ علىٰ نفسه النذر السابق. فلما تكامل أولاده عشرة[1]، وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره ذلك، ودعاهم إلىٰ الوفاء به فأجابوه، ثم اتفقوا علىٰ أن يأخذ كل منهم قِدْحًا[2]، ويكتب عليه اسمه، ودخلوا علىٰ هبل بهذه القداح. وكان ذاك شأن العرب؛ كلما حل بهم أمر لم يكن وجه الرأي فيه واضحًا ذهبوا إلىٰ «هُبَل» بجوف الكعبة يسألونه أن يُخرج لهم الحقَّ في هذا الأمر. وكان هناك في الكعبة من يسمَّىٰ عندهم صاحب القداح، وهو الذي يتولىٰ مسئولية ضربها. فلما ضرب صاحب القداح علىٰ أولاد عبد المطلب بقداحهم التي في أيديهم خرج القِدْح علىٰ عبد الله، وكان أحب أبنائه إليه -كما أشرنا- فأخذ عبد المطلب شَفرته وهمَّ بذبحه فوقفت قريش في وجهه قائلين: «لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه، فما بقاء الناس علىٰ هذا؟!» ثم انتهىٰ بهم الرأي إلىٰ أن يذهب إلىٰ عرَّافة بالمدينة ليعرض عليها أمره مع ابنه، وقالوا له في ذلك: «إن أمرتك أن تذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته». وتمضي الرواية قائلة إن عبد المطلب ذهب مع بعض قومه إلىٰ تلك العرافة، ولم تكن حينذاك بالمدينة بل كانت بخيبر، فتوجهوا إليها وعرضوا عليها الأمر، فطلبت منهم لقاءها في اليوم التالي، وعندئذ سألتهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرٌ من الإبل. فطلبت منهم أن يضربوا بالقداح علىٰ عبد الله وعلىٰ عشر من الإبل أمام صنم هُبَل؛ فإن خرج القِدْح علىٰ عبد الله فعليهم أن يزيدوا في الإبل عشرًا عشرًا حتىٰ يرضىٰ هُبَل. ففعلوا ذلك، فخرج القِدْح علىٰ عبد الله، فزادوا عشرًا من الإبل، ثم ضربوا بالقداح مرة أخرىٰ، فخرج القِدْح علىٰ عبد الله، فزادوا عشرًا «ثم لم يزالوا يضربون بالقداح ويخرج القِدْح علىٰ عبد الله، فكلما خرج عليه زادوا من الإبل عشرًا، حتىٰ ضربوا عشر مرات وبلغت الإبل مائة، وعبد المطلب قائم يدعو، ثم

(١) يذكر البلاذري أسماء اثني عشر من أبناء عبد المطلب وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، والعباس، وعبد الله، وضرار، وحمزة، والمقوَّم، وحَجْل، وَقُثم، وأبو لهب، والغيداق، انظر: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٨٧-٩٠.

(٢) القِدْح: هو السهم قبل أن يُراش ويُنْصَل، أي قبل أن يُلْحَق به الريش والنَّصل.

ضربوا فخرج القِدْح علىٰ الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهىٰ رضا ربك يا عبد المطلب»[١]. وهكذا نحر عبد المطلب مائة من الإبل فداء لابنه عبد الله الملقب بالذبيح الثاني، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الدية مائة من الإبل.

هذه هي الرواية التي يرددها الكثير من المؤرخين حول فداء عبد المطلب لابنه عبد الله، وهناك رواية أخرىٰ مؤداها أن عبد المطلب كان قد نذر إن رُزق عشرة من الولد أن ينحر أحدهم. فلما بلغ عدد أولاده عشرة أقرع بينهم فطارت القرعة علىٰ ابنه عبد الله، وكان أحب أولاده إليه. فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة علىٰ الإبل[٢].

ومهما اختلفت الروايات حول حقيقة نذر عبد المطلب فإن الذي لا مجال للشك فيه أن ابنه عبد الله كان عنده بأخص مكان. ومن هنا سعىٰ بنفسه لتزويجه فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة[٣] «وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا»[٤]، وقد تزوجها عبد الله فحملت منه بمحمد ﷺ، ثم سافر عبد الله إلىٰ الشام في تجارة لقريش، فلما فرغ من تجارته وانصرف راجعًا أحس بالمرض قبل وصوله إلىٰ مكة، فنزل بالمدينة عند أخوال أبيه من بني عدي بن النجار، فلبث هناك شهرًا وهو مريض، ثم توفي ودفن بالمدينة وسنه حينذاك خمس وعشرون سنة[٥]، وكان ﷺ حين توفي والده ما زال جنينًا طبقًا لأشهر الروايات[٦].

---

(١) انظر تفاصيل هذه الرواية في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٠-٢٤٣. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٦٤-١٦٨، والكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٥-٧، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٣٠-٢٣١. وقد كانت الدية عشرًا من الإبل قبل هذه القصة. وأول من وُدِي بالمائة عبد الله. السهيلي: الروض الأنف، ج ١ ص ٢٧١.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٠-٢٥١. وانظر هذه الرواية أيضًا في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٣) آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، يلتقي نسبها مع نسب رسول الله ﷺ عند كلاب بن مرة.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٣.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٩٢. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٦) ابن كثير: المصدر نفسه، والصفحة نفسها، وانظر أيضًا: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٩٢.

محمد ﷺ منذ مولده إلىٰ وفاة جده عبد المطلب:

هكذا شاء الله أن يولد محمد ﷺ يتيمًا، وكان مولده عام الفيل، وهو العام الذي توجّه فيه أبرهة الحبشي لغزو مكة، ويوافق سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م[١]. فكانت ولادته ﷺ يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول علىٰ أشهر الروايات[٢]، وهو يوافق نيسان (أبريل) من شهور السنة الشمسية[٣]، وقد قام جده عبد المطلب مقام والده عبد الله، فأحاطه بكفالته ورعايته.

وقد رضع محمد ﷺ في البداية -بجانب أمه- من ثُوَيبة جارية عمه أبي لهب، وهي التي أرضعت عمه حمزة، وجعفر بن أبي طالب، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[٤]. ثم حظيت بشرف إرضاعه ﷺ حليمة بنت أبي ذؤيب التي تنتمي إلىٰ بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، ومن ثَمَّ عُرفت بالسعدية. وكان من عادة قريش وغيرهم من أشراف العرب أن يرسلوا أولادهم في مرحلة مبكرة جدًّا من حياتهم إلىٰ البادية ليستمدوا من طبيعة الحياة هناك صلابة وعزمًا وصحة بدن؛ وليكون ذلك أفصح لألسنتهم[٥]. وكانت المراضع من نساء البادية يأتين إلىٰ الحضر بحثًا عن الرُّضَعاء والتماسًا للرزق من وراء حضانتهم وإرضاعهم في البادية. ومن بين القبائل التي اشتُهرتْ نساؤها بذلك قبيلة بني سعد المذكورة. وقد ترددت حليمة في البداية أن تأخذ محمدًا لإرضاعه لِمَا عرفته من يُتْمه، ولِمَا قد يترتب علىٰ ذلك من ضآلة الأجر الذي ستتقاضاه مقابل إرضاعه وحضانته. فلما لم يُتَحْ لها سواه قَبِلتْه حتىٰ لا تعود بغير رضيع، وذلك بعد أن استشارت زوجها الحارث بن عبد العُزَّىٰ[٦] في أخذه، فقال لها: «لا عليك أن تفعلي؛ فعسىٰ أن يجعل الله لنا فيه بركة». وهذا ما كان. تقول

---

(١) يختار محمود باشا الفلكي سنة ٥٧١م تاريخًا لمولده ﷺ. انظر: محمد الخضري: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص ٩.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٧١، وقيل: في الثاني من شهر ربيع الأول، أو الثامن أو العاشر منه. انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ج ١ ص ٩٢، وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٧.

(٣) يذكر السهيلي أنه ولد في العشرين من نيسان (أبريل). انظر: الروض الأنف، ج ١، ص ٢٨٣.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٩.

(٥) السهيلي: الروض الأنف، ج ١، ص ٢٨٧.

(٦) الحارث بن عبد العزىٰ بن رفاعة بن ملان ينتمي -كزوجه حليمة- إلىٰ بني سعد بن بكر بن هوازن. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٥٦.

حليمة: «لم يزل الله يُرينا البركة نتعرَّفها حتىٰ بلغ سنتين؛ فكان يشبُّ شبابًا لا تَشِبُّه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتىٰ كان غلامًا جَفْرًا» (أي قويًا)[١].

والواضح أن حليمة السعدية أسبغت علىٰ محمد ﷺ كل اهتمام ورعاية. وقد شاركها هذا الاهتمام كلُّ أفراد أسرتها، وكان لحليمة وزوجها الحارث بن عبد العزىٰ من الولد عبد الله وأُنَيسة وخِذامة، وهي التي يقال لها الشيماء، فهؤلاء هم إخوة الرسول ﷺ من الرضاعة. ويذكر بعض المؤرخين أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها[٢].

وتختلف الروايات حول المدة التي قضاها محمد ﷺ في حضانة حليمة السعدية؛ فيذكر البعض أنها كانت خمس سنوات، وقيل: أربعًا[٣]، وتذكر بعض الروايات أنه ظل في حضانتها حتىٰ السادسة[٤]، وتبدو الرواية الأولىٰ أصح الروايات؛ فقد رجع محمد ﷺ من عند حليمة قبل وفاة أمه، ولكن المدة التي نَعِم فيها بحنان أمه ورعايتها لم تَطُلْ؛ فقد توفيت وقد جاوز السادسة بثلاثة أشهر[٥].

وهكذا وجد محمد ﷺ نفسه في سن مبكرة محرومًا من حنان الأبوة والأمومة معًا، ولكن جده عبد المطلب حاول جاهدًا أن يعوضه بعض ما فقده، فقد كان بالغ الرأفة به، شديد الحرص عليه، حفيًا به أعمق ما تكون الحفاوة. فمما يروىٰ في ذلك أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، ولم يكن بنوه يجترئون علىٰ الجلوس عليه إجلالًا لأبيهم ومهابة له، فكان محمد ﷺ يأتي وهو صبي فيجلس عليه، فيحاول أعمامه منعه، فيأبىٰ ذلك عبد المطلب قائلًا: «دعوا ابني؛ فوالله إن له لشأنًا»، ثم يُجلسه معه علىٰ فراشه ويمسح ظهره بيده «ويسُرُّه ما يراه يصنع»[٦]. ويذكر المؤرخون

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٥٥. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٧٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٥٧، وزاد المعاد لابن القيم، ج ١، ص ١٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٥) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠. وقد كانت آمنة في زيارة قبر زوجها عبد الله بن عبد المطلب بالمدينة، ثم توفيت بالأبواء، «وهو موضع معروف بين مكة والمدينة، وهو إلىٰ المدينة أقرب». انظر: السهيلي: الروض الأُنُف، ج ١، ص ٢٩٧.

(٦) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٨٠.

أن عبد المطلب ضم محمدًا ﷺ إليه بعد وفاة أمه آمنة، «ورقَّ عليه رقةً لم يرقَّها علىٰ ولده وكان يقرِّبه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام»[1]. إلىٰ هذا المدىٰ وصل حُبُّ عبد المطلب لحفيده محمد ﷺ وحنوُّه عليه، ولكن العمر لم يمتد طويلًا بعبد المطلب بعد وفاة آمنة ليسبغ علىٰ الرسول ﷺ مزيدًا من عطفه ورعايته، فوافاه الأجل وقد بلغ الرسول ﷺ من العمر ثماني سنين علىٰ أشهر الأقوال[2].

محمد ﷺ منذ وفاة جده عبد المطلب إلىٰ زواجه بخديجة:

الحق أن مظاهر رعاية عبد المطلب لمحمد ﷺ امتدت لتشمل الفترة التي تلت وفاة عبد المطلب نفسه، فبتوصية منه تحمَّل أبو طالب بن عبد المطلب مسئولية رعاية محمد ﷺ، والواضح أن عبد المطلب لم ير أجدر من أبي طالب بنيل شرف هذه المسئولية الجليلة؛ فالمعروف أن أبا طالب كان شقيقًا لعبد الله والد الرسول ﷺ؛ فقد كانا لأم واحدة هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ، وكان لهما شقيق آخر هو الزبير بن عبد المطلب، وشقيقات أربع هن: عاتكة، وبرة، وأروىٰ، وأميمة[3]. ولكن هذا لم يكن كل ما رشَّح أبا طالب -في نظر أبيه عبد المطلب- لكفالة محمد، وإلا لاستطاع أن يختار الزبير لهذه المهمة. إن الذي رشح أبا طالب لذلك -فضلًا عن كونه العم الشقيق لمحمد ﷺ- هو مؤهلاته الشخصية التي لم يتمتع بها غيره؛ فقد كان يتسم بدماثة الخلق وسماحة النفس، ويُعرف في الوقت ذاته بصلابته ومهابته بين قريش؛ ولهذا كان خليقًا بأن يمنح محمدًا عطفه وحمايته معًا، يقول اليعقوبي: «كفل رسولَ الله ﷺ بعد وفاة عبد المطلب أبو طالب عمه، فكان خير كافل. وكان أبو طالب سيدًا شريفًا مطاعًا مهيبًا مع إملاقه»[4].

ولا جدال في أن أبا طالب قام بمهمته علىٰ خير وجه، وقد بلغ تعلق محمد به في طفولته مبلغًا جعله لا يكاد يصبر علىٰ فراقه، ومما يروىٰ بهذا الصدد أن أبا طالب تهيأ يومًا للسفر في تجارة إلىٰ الشام، «فلما أجمع السير ضَبَّ به رسول الله ﷺ .. فرقَّ له

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٦١-٢٦٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٣، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٦٦.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٣٩، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٨٧-٨٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤.

أبو طالب فقال: والله لأخْرُجَنَّ به معي، ولا أفارقه ولا يفارقني أبدًا»[1]. وقد نزل أبو طالب خلال تلك الرحلة بُصْرىٰ من أرض الشام، وكان عمر الرسول ﷺ حينئذ تسع سنين[2] (أو اثنتي عشرة سنة طبقًا لبعض الروايات)[3]. وهذه هي الرحلة التي تذكر مصادرنا أن محمدًا التقىٰ خلالها -في أثناء نزوله ببصرىٰ- براهب في صومعته يقال له بَحِيرَىٰ[4]، وهو الراهب الذي استطاع في هذا اللقاء أن يتنبأ بمبعثه ﷺ.

والجدير بالذكر هنا أن رعاية أبي طالب لمحمد ﷺ كان لها انعكاسها علىٰ زوجه وأم أولاده جميعًا وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم. وقد تقدم السنّ بفاطمة حتىٰ أدركت الإسلام وماتت مسلمة. ويروىٰ أن الرسول ﷺ قال يوم ماتت: «**اليوم ماتت أمي!**»، «وكفنها بقميصه ونزل علىٰ قبرها واضطجع في لحدها، فقيل له: يا رسول الله، لقد اشتد جزعك علىٰ فاطمة! قال: إنها كانت أمي؛ إنْ كانت لتجيع صبيانها وتُشبعني، وتشعثهم وتدهنني، وكانت أمي!»[5].

هكذا شبَّ محمد ﷺ في رعاية عمه أبي طالب الذي قام بدور الأب، وفي رعاية فاطمة زوج عمه التي قامت بدور الأم.

وكان من أبرز الأحداث التي عاصرها الرسول ﷺ خلال تلك المرحلة المبكرة من شبابه حرب الفِجَار، وهي التي كانت بين كنانة وقيس عيلان، وتعرف هذه الحرب

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١ ص ٩٦-٩٧ ويورد البلاذري الرواية الأولىٰ ولكنه يرجح الثانية. وانظر حول ذلك أيضًا: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٧٧-٢٧٨، وتذكر بعض المصادر أن اسم الراهب هو جرجيس أو سرجيوس، وعلىٰ هذا يكون بحيرىٰ هو لقبه. انظر: الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج ٣، ص ١٩٣، هذا، ويشكك الكثير من المستشرقين في قصة لقاء الرسول ﷺ ببحيرىٰ، ويعتبرها أوليري «إحدىٰ أصعب المأثورات في حياة الرسول المبكرة» انظر:

Arabia before Muhammad, P. 187.

وانظر أيضًا:

M. Watt, Muhammad، Prophet and Statesman، P. 3.

ومع ذلك فنحن لا نجد في أساس القصة أمرًا مستغربًا رغم أن التفاصيل التي ترويها بعض مصادرنا قد تكون في حاجة إلىٰ إعادة نظر.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٤.

بـ «الفجار الثاني» أو «الفجار الآخر» إشارة إلىٰ حرب أخرىٰ سابقة عليها بين كنانة وقيس عيلان أيضًا تعرف بـ «الفجار الأول»، ولم يكن لها كبير شأن[١].

أما الفجار الثاني فيصفه ابن الأثير بأنه «لم يكن في أيام العرب أشهر منه ولا أعظم». ويضيف ابن الأثير أنه «إنما سُمِّي الفجار لما استحل الحيَّان كنانة وقيس فيه من المحارم»[٢]. ويرىٰ بعض المؤرخين أنه سمي بذلك لأن كنانة وقيس عيلان «اقتتلوا في رجب، وكان عندهم الشهر الحرام الذي لا تسفك فيه الدماء، فسمي الفجار لأنهم فجروا في شهر حرام»[٣].

وتختلف الروايات حول سن الرسول ﷺ إبان هذه الحرب التي دامت أربع سنين[٤]؛ وذلك راجع في المقام الأول إلىٰ عدم التحديد الدقيق لبداية هذه الحرب ونهايتها، ثم إنه راجع كذلك إلىٰ أن بعض الروايات نظر إلىٰ بداية الحرب، في حين نظر بعضها إلىٰ نهايتها، ونظر بعضها الآخر إلىٰ ما بين ذلك[٥].

وفي هذا السياق يذكر بعض المؤرخين أن حرب الفجار الثاني كانت «بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة»[٦]، وذلك دون أن نعرف علىٰ وجه التحديد هل المقصود بذلك بداية الحرب أو نهايتها.

والظروف التي أدت إلىٰ قيام حرب الفجار تتلخص في أن النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة أراد أن يبعث بقافلة تجارية له إلىٰ سوق عكاظ ليبيعها هناك، وأراد في الوقت نفسه أن يؤمِّن هذه القافلة ضد هجمات قطاع الطرق. وكان في مجلسه البرَّاض بن قيس بن رافع (وهو من قبيلة كنانة)، وعروة بن عتبة بن جعفر

---

(١) حول «الفجار الأول» ارجع إلىٰ: الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٥٨٨-٥٨٩، والأغاني للأصفهاني، ج ٢٢، ص ٥٤-٥٦.

(٢) الكامل، ج ١، ص ٥٨٩-٥٩٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥.

(٤) قيل: إن الرسول ﷺ كان حينذاك ابن أربع عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، وقيل: سبع عشرة، وقيل: عشرين، وقيل: ثمان وعشرين، انظر: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩٨-٢٠١، والأغاني للأصفهاني، ج ٢٢، ص ٥٦، وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥.

(٥) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٣٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٥٨٩.

الرحَّال (وهو من قبيلة هوازن التي تنتمي إلىٰ قيس عيلان). فعرض عروة الرحَّال علىٰ النعمان أن يجير قافلته، فقبل النعمان عرضه؛ فأحْفَظ ذلك البرَّاض وقال لعروة محتجًا: أتجيرها علىٰ كنانة؟ قال: نعم، وعلىٰ الخلق! فأضمر البرَّاض قتل عروة، وعندما خرج عروة في قافلة النعمان خرج وراءه البرَّاض يطلب غفلته حتىٰ تمكن من قتله، فهاجت الحرب بين قيس وكنانة من أجل قتل البرَّاض لعروة(١).

وقد انضمت قريش إلىٰ كنانة في هذه الحرب وشهد الرسول ﷺ بعض أيامها مع أعمامه، وروي عنه أنه قال: «**كنت أيام الفجار أنبُل علىٰ عمومتي**» أي: أناولهم النَّبل، أو أردّ عنهم نَبْل عدوهم إذا رموهم بها(٢). وقد انتهت الفجار بعد أربع سنين من بدايتها بصلح قام علىٰ أساس أن يدفع الفريق الذي قلَّ عدد قتلاه دية القتلىٰ الزائدين في الفريق الآخر، فدفعت قريش وكنانة بمقتضىٰ هذا الصلح دية عشرين رجلًا من قيس(٣).

ولم يمضِ طويل زمن علىٰ انقضاء حرب الفجار حتىٰ شهد الرسول ﷺ حلفًا عُرف باسم «حلف الفُضول»(٤). ولا بد أولًا من معرفة الملابسات التي عقد فيها هذا الحلف. فقد قدم مكة رجل زُبيدي من أهل اليمن ببضاعة له(٥)، فاشتراها منه العاص

(١) راجع المزيد من التفاصيل في سيرة ابن هشام، ج ١ ص ١٩٨-٢٠١، وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥. والكامل لابن الأثير ج١، ص ٥٩٠-٥٩١، والأغاني للأصفهاني، ج ٢٢، ص ٥٦-٥٨، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٢ ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ويروىٰ: «كنت أَنبَل علىٰ عمومتي يوم الفجار» بضم الهمزة في (أُنبّل) وفتح النون وتشديد الباء، والمعنىٰ واحد؛ أي أناولهم النَّبل للرمي، كما يذكر ابن منظور في لسان العرب، مادة نبل، ج ٦، ص ٤٣٣١. ويقول ابن هشام: «قال رسول الله ﷺ: «**كنت أنْبُل علىٰ أعمامي**»، أي أرد عنهم نَبْلَ عدوهم إذا رموهم بها». سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٠١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٥٩٥.

(٤) تذكر بعض الروايات أن حلف الفضول عقد بعد انقضاء حرب الفجار بأربعة أشهر وقبل البعثة بعشرين عامًا، أي إن عمر الرسول ﷺ حينئذ كان عشرين عامًا، البداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٧٠، ويذكر ابن شاكر الكُتُبي أن حلف الفضول عُقد وعمر الرسول ﷺ تسعة عشر عامًا. انظر: عيون التواريخ، ج١، ص ٣٧. وهناك روايات أخرىٰ في هذا الصدد لا داعي للتوسع فيها. والثابت علىٰ كل حال أن حلف الفضول كان بعد انقضاء حرب الفجار بوقت غير طويل.

(٥) رجل زُبيدي (بضم الزاي): منسوب إلىٰ بني زُبيد، وهي قبيلة من مَذْحج، أما «زَبيدي» بفتح الزاي) فهي نسبة إلىٰ زَبيد، وهي مدينة باليمن، راجع: ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج ٢، ص ٦٠.

ابن وائل السَّهمي ورفض أن يعطيه ثمنها، فاستغاث الزُّبيدي بالأحلاف من قريش (وهم بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي) فأبوا أن يغيثوه، فاعتلىٰ جبل أبي قُبَيْس -وقريش في أنديتهم حول الكعبة- فأنشد عدة أبيات مطلعها:

يا آلَ فِهْرٍ لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنَّفر

فلما سمع ذلك الزبير بن عبد المطلب بن هاشم قال: «ما لهذا مترك!»[1] فاجتمع في دار عبد الله بن جُدعان التيمي عدد من بطون قريش وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زُهرة، وبنو تيم[2]، وتحالفوا في ذي القعدة، في شهرٍ حرام، «علىٰ ألا يُظْلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتىٰ يأخذوا له بحقه ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم»[3]. ثم انطلقوا إلىٰ العاص بن وائل وقالوا له: «والله لا نفارقك حتىٰ تؤدي إليه حقه»، فنزل العاص علىٰ إرادتهم وأعطىٰ الرجل حقه. فمكثوا كذلك لا يُظْلمُ أحدٌ حقَّه بمكة إلا أخذوه له[4]. وحين رأت قريش ذلك قالت: «لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر»، فعرف ذلك الحلف بـ «حلف الفضول»[5].

إن التقدير العميق الذي لقيه حلف الفضول بمكة عبَّر عنه أصدق تعبير عتبةُ بن ربيعة ابن عبد شمس الذي لم يدخل قومه في حلف الفضول، وذلك حين قال: «لو أن رجلًا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتىٰ أدخل في حلف الفضول»[6].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٤١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٧، ص ٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٧١، وقد وردت في سبب التسمية روايات أخرىٰ، من بينها أنه لما سمع بهذا الحلف بعض من لم يدخله من قريش قال يعيبه: «هذا من فضول القوم»، وقيل: بل سُمِّي بذلك لأن المشتركين فيه قالوا: «لا ندع لأحدٍ عند أحدٍ فضلًا إلا أخذناه منه». وقيل: بل السبب أن قومًا من جرهم عقدوا حلفًا شبيهًا بهذا الحلف يقوم علىٰ نصر المظلوم، وكان اسمهم الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث، فلما عقدت قريش مثل حلفهم سموه بذلك. انظر: الأغاني للأصفهاني، ج ١٧، ص ٢٩٤ وص ٣٠٠، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٧١.

(٦) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ١٧، ص ٢٩٠.

لقد كان الرسول ﷺ أحد شهود هذا الحلف وهو في صدر شبابه، وبعد الإسلام أشار ﷺ إلىٰ هذا الحلف إشارة تتعدد صيغها في مصادرنا ويتفق مضمونها، فمن ذلك ما يروىٰ من أنه قال: «شهدت حلفًا في دار عبد الله بن جُدْعَان لم يزده الإسلام إلا شدة، ولهو أحبُّ إليَّ من حمر النَّعم، أما لو دُعيتُ إليه اليوم لأجبت»[١]. فالواضح أن مبادئ هذا الحلف تتفق في جوهرها مع قيم الإسلام وتوجيهاته؛ لأنها مبادئ تهدف إلىٰ حماية حقوق الإنسان وإنصاف المظلوم من الظالم، ولم يزد الإسلام هذه المبادئ إلا شدة كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ.

لقد كانت الفترة التي شهدتْ صدرَ شباب الرسول ﷺ فترة وداعة وسكينة وتأمل. وقد اشتهر الرسول ﷺ بعزوفه عن لهو الشباب ولغو الحديث وتحمله المبكر للمسئولية. ومن هنا أراد في سن مبكرة أن يخفف عن عمه أبي طالب بعض مؤونته -وكان أبو طالب كثير العيال- فاشتغل برعي غنم أهله وأهل مكة. وكان رعي الغنم -كما ذكر ﷺ- حرفة الأنبياء، ومما يروىٰ عنه في هذا الصدد قوله: «ما من نبي إلا وقد رعىٰ الغنم». قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا»[٢]، ويشرح «السهيلي» الحكمة من وراء ذلك بقوله: «إنما جعل الله هذا في الأنبياء تقدمةً لهم، ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أممهم رعايا لهم»[٣]. ثم إن رعي الغنم يتيح للراعي فرصة التفكير والتأمل وتصفية النفس؛ فلا شك أن «راعي الغنم الذكي القلب» -كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل- «يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار وفي تلألؤ النجوم إذا جَنَّ الليل موضعًا لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم يبتغي أن يرىٰ ما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرًا لهذا الكون وخَلْقه .. وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد ﷺ يقتضي انتباهه ويقظته حتىٰ لا يعدو الذئب علىٰ شاة منها وحتىٰ لا تضل إحداها في مهامه البادية، فأي انتباه وأية قوة تحفظ علىٰ نظام العالم كل إحكامه! وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الإنسان الدنيا والسموّ به عنها»[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٧٨.

(٣) الروض الأنف، ج ١، ص ٢٩٦.

(٤) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٣٥.

ومضت الحياة بالرسول ﷺ علىٰ هذا النحو الوادع المطمئن في مكة حتىٰ أتيحت له -حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره- فرصة الخروج من مكة مشتغلًا في تجارة السيدة خديجة بنت خويلد[١]. ويروي المؤرخون في هذا السياق أن خديجة كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وقد بلغها عن رسول الله ﷺ صدقُ الحديث وكرم الخُلُق وتمام الأمانة (وكان ﷺ يلقب بالأمين) فلما عرفت ذلك منه عرضت عليه أن يخرج في مالها إلىٰ الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل ذلك منها رسول الله ﷺ وخرج في تلك المهمة مع غلام لها يقال له ميسرة، حيث توجها إلىٰ الشام[٢]. وهناك باع ﷺ السلع التي خرج بها واشترىٰ ما أراد أن يشتري ثم رجع إلىٰ مكة ومعه ميسرة، وقد باعت خديجة ما جاء به محمد ﷺ فتضاعف ربحها فتفاءلت به خيرًا. ثم كان حديث ميسرة لها عما شد انتباهه في شخصية محمد ﷺ من سمات ودلائل تفوق مستوىٰ البشر العاديين -كان ذلك الحديث سببًا لأن تزداد عليه حرصًا، وبه تمسُّكًا[٣]. ومنذ ذلك الوقت بدأت حياة محمد ﷺ تتخذ مسارًا جديدًا.

محمد ﷺ منذ زواجه بخديجة حتىٰ البعثة:

لقد أتيح لخديجة أن تتعرف إلىٰ محمد ﷺ عن كثب، واستطاعت خلال فترة وجيزة من تعرفها إليه أن تكتشف مواطن السمو والعظمة في شخصيته. وكانت خديجة -بشهادة ثقات المؤرخين- «أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهن

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، فهي تلتقي مع رسول الله ﷺ عند قصي بن كلاب.

(٢) في بعض مصادرنا إشارة سريعة إلىٰ أن أحد الرهبان، واسمه نسطورا أو نسطور (كما في ابن خلدون)، رأىٰ محمدًا ﷺ في أثناء رحلته تلك إلىٰ الشام وشاهد فيه من الدلائل ما جعله يخبر ميسرة أنه النبي القادم. ولكن المصادر لا تلقي ضوءًا كافيًا علىٰ ذلك. انظر: ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ج ١، ص ٣٨، ابن خلدون: العبر، ج ٢، ص ٣٩٥، السهيلي: الروض الأنف، ج ١، ص ٣٢٣. وقد سبق أن ذكرنا أن محمدًا ﷺ -خلال رحلته الأولىٰ إلىٰ الشام وهو غلام بصحبة عمه أبي طالب- قابل راهبًا يقال له بحيرىٰ، وأشرنا إلىٰ ما يثيره بعض المستشرقين من تشكيك حول ذلك، وهي شكوك لا تقوم علىٰ أساس متين رغم قلة المادة المتاحة في هذا الصدد.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٠٣-٢٠٥، تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨٠-٢٨١، الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٣٩٤٠.

مالًا»[1] وكان سادات قريش يتطلعون إلىٰ الزواج منها ولكنها لم تكن راغبة في ذلك، فلما رأت محمدًا ﷺ وعرفت ما كان يتحلىٰ به من صفات نادرة عرضت عليه نفسها، فذكر ذلك لأعمامه، فخطبها له عمه حمزة من عمها عمرو بن أسد (وكان أبوها قد توفي)[2]، فتزوجها محمد ﷺ وكانت سنه حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وكانت خديجة تكبره بخمسة عشر عامًا طبقًا لأشهر الروايات[3].

لقد كان زواج محمد ﷺ من خديجة معلمًا بارزًا في مسار حياته، فقد وجد فيها معوانًا علىٰ كل مصاعب الحياة، وأغدقت عليه هذه الزوجة المخلصة من حبها ورعايتها ما عوَّضه عن مرارة اليتم الذي ذاقه صغيرًا، ومما زاد في توثيق وشيجة الصلة الزوجية بين محمد ﷺ وخديجة أن الله رزقه منها كل أولاده إلا إبراهيم، فقد ولدت له زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وعبد الله (الملقب بالطاهر والطيب)، فأما ابناه فقد ماتا قبل الإسلام، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ[4].

في بيت خديجة نَعِم محمد بالطمأنينة والأمان، وأتاح له هذا الزواج الهادئ المستقر أن يمارس رياضته الروحية المحببة، وهي التأمل المستغرق العميق الذي لا تشتته مشاغل الحياة ومصادر القلق فيها. وفي تلك الفترة كان يحلو له الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من عبادة الأوثان، «فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه -والتحنث: التعبد- . . . ويمكث الليالي قبل أن يرجع إلىٰ أهله، ثم يرجع إلىٰ

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٠٥، تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨١.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٠. وانظر أيضًا: الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٣٩، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، ج ١، ص ٣٨، وزاد المعاد لابن القيم، ج ١، ص ٢٦. ويذكر ابن كثير في بعض رواياته أن عمر خديجة عند زواجها من محمد ﷺ كان خمسًا وثلاثين. البداية والنهاية، ج ٢، ٢٧٣. وتطرح المستشرقة البريطانية «كارين آرمسترونج» احتمالًا مؤداه أن خديجة كانت دون الأربعين عند زواجها من محمد ﷺ لأنها أنجبت منه ستة أطفال. انظر كتابها: سيرة النبي محمد ص ١٢٥-١٢٦. ولكن ذلك ليس دليلًا حاسمًا علىٰ كل حال.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨١، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٧٣. ويروي البلاذري أن عبد الله «وُلِدَ بعد المبعث في الإسلام وتوفي بمكة، فقال العاص بن وائل: محمد أبتر، لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٠٥.

خديجة فيتزود»[١]. وكانت خديجة تشجعه علىٰ ذلك النهج القويم الذي ترك في نفسها أعمق الأثر، وهيأها لتكون أول من آمن برسول الله ﷺ.

علت مكانة محمد ﷺ بين أهل مكة في تلك الفترة لِمَا اشتُهر به من صدق وأمانة واستقامة وبُعْدٍ عن سفاسف الأمور، وقد لقبوه بالأمين كما ذكرنا. ومن أبرز الأحداث التي ارتبط بها اسم محمد ﷺ في تلك المرحلة إعادة بناء الكعبة، ففي العام الخامس والثلاثين من ميلاد محمد ﷺ -أي قبل البعثة بخمس سنين- قررت قريش هدم الكعبة وإعادة بنائها، وسبب ذلك أن الكعبة كان قد أصابها سيل تصدعت منه جدرانها[٢]، ولم تكن الكعبة مسقوفة، فكان ذلك يغري بها اللصوص الذين يطمعون فيما تحوي من كنوز، ومن هنا أقدمت قريش علىٰ هدم الكعبة وإعادة بنائها بعد أن ترددت طويلًا مخافة أن تنزل بها نقمة الآلهة إن فعلت ذلك، ويُرْوَىٰ أن الوليد بن المغيرة المخزومي كان أول من بدأ الهدم، «فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صُنْعَنَا، فَهَدَمْنا»[٣]. فلما أصبح الوليد غاديًا علىٰ عمله اطمأن الناس فهدموا معه.

فلما انتهىٰ الناس من هدم الكعبة أخذوا يجمعون الأحجار لإعادة بنائها، ثم بنوا حتىٰ إذا ارتفع البناء وآن أن يوضع الحجر الأسود في موضعه من الجانب الشرقي[٤] تنازعت قبائل قريش في ذلك، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلىٰ موضعه دون الأخرىٰ لتنال شرف ذلك. واحتدم الصراع حتىٰ تحالفت القبائل وتواعدت للقتال وكادت الحرب أن تشتعل بينها.

مكثت قريش علىٰ ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، ثم نزلت علىٰ اقتراح من أبي أمية ابن المغيرة[٥] الذي كان وقتذاك أسنَّ قريش كلها، حيث قال لهم: «يا معشر قريش،

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٠٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١٢.

(٤) هيكل: حياة محمد، ص ١٤٠.

(٥) أبو أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه أبو حذيفة، من بني مخزوم. هو عم خالد بن الوليد ووالد أم سلمة (واسمها هند) زوج رسول الله ﷺ. انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٩٢، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٤٤-١٤٦.

اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه». فكان أول من دخل عليهم محمد ﷺ، فلما رأوه قالوا: «هذا الأمين، قد رضينا به، هذا محمد». وعندما قصوا عليه الأمر قال لهم: «**هلمّ لي ثوبًا**» -أي أحضروا لي ثوبًا- فجاءوه به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا**»، ففعلوا، حتىٰ إذا بلغوا موضعه أخذه فوضعه في مكانه بيده ثم بنىٰ عليه[1]. وهكذا تجلت حكمة محمد ﷺ وبعد نظره، واستطاع بهذا الحل البارع أن يجنب قريشًا مخاطر فتنة كادت تعصف بأمنها وسلامتها، وقد رضي القرشيون بحكم محمد ﷺ وقراره؛ فقد كانت مكانته لديهم قبل البعثة فوق مستوىٰ الشبهات.

وكانت رغبة محمد ﷺ في الخلوة والتأمل تتزايد يومًا بعد يوم حتىٰ بلغت ذروتها في العام الذي اختاره الله فيه لرسالته. والمعروف أنه ﷺ كان يتعبد في خلوته في غار حراء علىٰ الملة الحنيفية التي أتىٰ بها إبراهيم ﷺ واستمد الإسلام نفسه منها أساس دعوته، وهو ما يتضح في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]. ولا شك أن تجربة الخلوة والتأمل التي عاشها محمد ﷺ قبل بعثته كانت إعدادًا روحيًا له من الله سبحانه لحمل أقدس رسالة عرفتها البشرية وهي الرسالة الخاتمة أو دعوة الإسلام.

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١٣-٢١٤، تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٨٩-٢٩٠، وقارن بما في أنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٩٩-١٠٠.

الفصل الثالث
بعثة الرسول ﷺ وتطور الدعوة في مكة حتى هجرة المسلمين إلى الحبشة

هكذا هيّأ الله محمدًا ﷺ لاستقبال دعوته، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة بدأ في تلقي الوحي، وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان[١]. وتذكر مصادرنا أنه بينما كان ﷺ ذات يوم في غار حراء مستغرقًا في عبادته وتأمله كعادته إذْ هتف به بغتة هاتف يقول له: يا محمد .. أنت رسول الله! فيروىٰ أن رسول الله ﷺ قال: «**فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري**[٢]**، ثم دخلت علىٰ خديجة فقلت: زملوني .. زملوني ..! حتىٰ ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد .. أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق**[٣] **من جبل، فتبدَّىٰ لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ. قلت: ما اقرأ؟ قال: فأخذني فَغَتَّني (أو غَطَّني) ثلاث مرات (أي ضمني بشدة) حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم قال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت علىٰ نفسي، فأخبرتها

(١) يوم الاثنين. انظر البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٠٥.

(٢) البوادر: جمع بادرة، قيل: هي لحمة بين المنكب والعنق، وقيل: هي عروق تضطرب عند الفزع، ويرْوَىٰ: يرجف فؤادي. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧.

(٣) يقول ابن منظور: «جبل حالق: لا نبات فيه كأنه حُلِق، وهو فاعل بمعنىٰ مفعول .. وقيل: الحالق من الجبال المنيف المشرف، ولا يكون إلا مع عدم نبات، ويقال: جاء من حالق أي من مكان مشرف .. وفي حديث المبعث: فهممت أن أطرح بنفسي من حالق، أي من جبل عال» لسان العرب، ج ٢، ص ٩٦٦.

خبري، فقالت: أبْشِر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم وتَصْدُق الحديث وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلّ وتَقْرِي الضيف وتُعين علىٰ نوائب الحق»[1].

كانت هذه التجربة شديدة الوقع علىٰ الرسول ﷺ عميقة الأثر في نفسه، ولم يكن في البداية يعرف حقيقتها علىٰ وجه التحديد، بل يُرْوَىٰ أنه قال لخديجة حين ذهب إليها: «ما أراني إلا قد عُرِض لي»، أي أصابني مسٌّ من الجن، وقد حاولت السيدة خديجة أن تخفف عنه من وقعها، ولكنها هي أيضًا لم تكن علىٰ بينة من كُنْه ما حدث، ولهذا انطلقت برسول الله ﷺ إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد الذي كان قد تنصر -كما ذكرنا- واستحكم في النصرانية وقرأ الكتب، فلما عرف ورقة من رسول الله ﷺ ما حدث له قال: «هذا الناموس[2] الذي أنزل علىٰ موسىٰ بن عمران، ليتني فيها جَذَع![3] ليتني أكون حيًا حين يخرجك قومك!» فقال ﷺ: «**أَمُخْرِجِيَّ هم**»؟ قال: «نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عُودِيَ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[4].

ألقت كلمة «ورقة» الطمأنينة في نفس رسول الله ﷺ، وعرَّفته أن ما مر به من تجربة لم يكن إلا استهلالًا لأعظم رسالة. ولا شك أن ذلك أثار في نفسه الشوق لمواصلة الاستماع إلىٰ ذلك النداء المقدس، ولكنه انتظر طويلًا قبل أن يستقبل الوحي مرة أخرىٰ؛ وهذا ما يُعرف لدىٰ علماء السيرة بـ «فترة الوحي» أي إبطائه علىٰ رسول الله ﷺ، وهي الفترة التي استمرت أربعين يومًا علىٰ أرجح الآراء[5]. وقد اشتد حزنه ﷺ عندما فتر عنه الوحي؛ لأنه ظن أن الله قد جفاه وقلاه، ولهذا يذهب البعض إلىٰ أن الله بدد مخاوفه إذْ أنزل عليه قوله -سبحانه- في سورة الضحىٰ: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣].

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٢) الناموس: تعريب للكلمة اليونانية (nomos) التي تعني القانون أو الشريعة. أما قول السهيلي في الروض الأنف، ج ١، ص ٤٠٨ إن الناموس هو صاحب سر الملك فلا أساس له.

(٣) جَذَع: أي صغير السن.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٩. والرواية في صحيح البخاري، ج ١، ص ٣-٤ (مع بعض الاختلاف اليسير في اللفظ).

(٥) محمد الخضري: نور اليقين، ص ٢٤.

وينبغي أن نشير في هذا السياق إلىٰ خلاف المفسرين وعلماء السيرة حول أول ما أنزل من القرآن بعد فترة الوحي، فيرىٰ البعض -في ضوء ما ذكرناه الآن- أن سورة الضحىٰ كانت أول ما نزل بعد هذه الفترة؛ فهي تعيد إلىٰ نفس الرسول ﷺ الطمأنينة وتؤكد له أن الله ﷻ ما قلاه إذ أبطأ عليه الوحي. في حين يرىٰ آخرون أن أول ما أنزل بعد فترة الوحي هذه كان قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]. أما سورة الضحىٰ في رأي هؤلاء فقد نزلت بعد فترة أخرىٰ للوحي استمرت ليالي يسيره[١].

والذي نميل إليه في ضوء السياق التاريخي هو أن هذه الآيات من سورة المدثر كانت أول القرآن نزولًا بعد الآيات الخمس الأولىٰ من سورة العلق، فقد نزل جبريل علىٰ الرسول ﷺ أول ما نزل دون أن يحمل إليه تكليفًا بإبلاغ دعوة[٢]، بل أثار في نفسه شعورًا قويًا أنه مقدم علىٰ أمر جليل. وعندما نزلت الآيات الأولىٰ من سورة المدثر كان الأمر واضحًا غاية الوضوح أمام الرسول ﷺ. إنها الرسالة أو أمانة التبليغ عن الله ﷻ، لقد استمر الرسول ﷺ يذهب إلىٰ غار حراء ويخلو فيه بعد أن تلقىٰ آيات الوحي الأولىٰ من سورة العلق. وكم كان يتوقد شوقًا إلىٰ أن يصغي للنداء الإلهي مرة أخرىٰ. وبعد طول انتظار تراءىٰ له جبريل ثانيةً في غار حراء فتملكته الرهبة وكرَّ راجعًا إلىٰ أهله وهو يقول: «زمّلوني .. زمّلوني» أي دثروني وغطوني، فأنزل الله ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ .... إلىٰ آخر الآيات. فتضمنت هذه الآيات -كما أشرنا- تكليفًا للرسول ﷺ بالإنذار، أي بتبليغ كلمة الله، وهنا بدأ يدرك حق الإدراك أنه أمام مهمة محددة، وبدأت آيات الوحي تتوالىٰ لتحدد أمامه معالم هذه المهمة بوضوح وترسم له خطوات التنفيذ.

ولم تكن تلك المهمة التي أنيطت بالرسول ﷺ سهلة، بل كانت بالغة الصعوبة والتعقيد، لقد كان عليه أن يبلغ كلمة التوحيد وشريعة الإسلام إلىٰ قوم تأصلت فيهم روح الوثنية وسيطرت عليهم عاداتها وتقاليدها، كان عليه أن يقتلع جذور الجاهلية

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: البداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ١٧. وانظر أيضًا: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١١١.

الراسخة في نفوسهم، ويغرس مكانها جذور الدين الجديد بقيمه ومفاهيمه، وما أصعبها من مهمة! ولم يكن الرسول ﷺ يملك من أسلحة لتنفيذ هذه المهمة إلا سلاح الإيمان المطلق برسالته وبنصر الله.

فكيف سارت الدعوة في مراحلها الأولىٰ وتطورت؟

أ- الدعوة في مرحلة الكتمان:

كان علىٰ الرسول ﷺ -إذن- أن يستجيب للأمر الإلهي: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، والمقصود بالإنذار مطلق التبليغ، سواء أكان جهرًا أم سرًا، ولكن الحكمة كانت تقتضي ألا يجهر الرسول ﷺ بدعوته علىٰ الملأ وهي ما زالت وليدة ناشئة لم تكتسب بعدُ أنصارًا؛ ولهذا كان أسلوبه في تلك المرحلة أن يدعو من يثق فيه ويطمئن إليه من أهله وخلانه، «فكان أول من صدقه وآمن به واتبعه من خلق الله . . زوجته خديجة -رحمها الله»[(١)]. وهذا أمر يجمع عليه ثقات المؤرخين، وهو منطقي تمامًا، ولكن ما لا يجمعون عليه هو الترتيب الزمني للسابقين إلىٰ الإسلام بعد خديجة، فيذكر البعض أن عليَّ بن أبي طالب كان أول هؤلاء إسلامًا، وقيل أبو بكر، وقيل زيد بن حارثة[(٢)]، وتضع بعض مصادرنا هذا الأمر بصورة أكثر تحديدًا حيث تذكر أن أول من آمن من الصبيان عليُّ بن أبي طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن الموالي زيد بن حارثة[(٣)]، ويروىٰ أن علي بن أبي طالب أسلم في اليوم التالي لبعثة الرسول ﷺ، وكان عمره تسع سنين، وقيل: عشرًا[(٤)]. والجدير بالذكر أن عليًا كان في حجر محمد ﷺ

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٣٠٧، وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٥٩، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ١٢٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٢٢. ولمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٠٩-٣١٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٨، والجدير بالإشارة هنا أن المستشرق البريطاني مونتجومري وات يذهب إلىٰ أن زيد بن حارثة كان أسبق إسلامًا من أبي بكر، وأن مصادر السيرة جاملت أبا بكر علىٰ حساب زيد بن حارثة؛ لأن أبا بكر -منذ هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة- أصبح أهم شخصية بعد محمد ﷺ. انظر كتابه Muhammad at Mecca, P. 86. والحق أن هذا الرأي لا يستند إلىٰ أساس صحيح؛ لأن مصادرنا ذكرت الروايات كافة، ولم يثبت أنها جاملت صحابيًا لمكانته اللاحقة، وإلا لجاملت عمر بن الخطاب علىٰ سبيل المثال. للمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: قراءة نقدية في كتابات مونتجومري وات في السيرة النبوية، وهو بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر: العدد ٨٢، ص ٩٣-٩٤.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣١٠، ٣١٢.

وفي رعايته قبل الإسلام[1]، وأتيحت له الفرصة أن ينهل ما شاء من نبع آدابه وأخلاقه، فلا غرو أن يكون من بين أسبق السابقين إلىٰ الإيمان بدعوته.

وقد كان لإسلام أبي بكر في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام أثر قوي في تأييد الدعوة وضم مزيد من الأنصار إليها، لقد كان أبو بكر -كما يتفق المؤرخون- «رجلًا مؤلَّفًا لقومه، محببًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش[2]، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلًا تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلىٰ الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم علىٰ يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله»[3].

فهؤلاء النفر الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر ﷺ كانوا هم سياج الإسلام في سنيه الأولىٰ واستمروا مصدر دعم وقوة للإسلام حتىٰ لفظوا آخر أنفاسهم، وانضم إليهم عدد آخر من السابقين الأولين، فيهم أبو ذر الغفاري (وهو جُندُب بن جُنادة) وبلال بن رباح، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمار بن ياسر، وعتبة بن غزوان، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وخَبَّاب بن الأرتّ، ومصعب بن عمير، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي.

وفي تلك المرحلة من تاريخ الدعوة كان الرسول ﷺ يلتقي بالمسلمين سرًّا في دار الأرقم بن أبي الأرقم[4]، عند الصفا ليبلغهم ما ينزل به الوحي من تعاليم الإسلام.

---

(١) كان أبو طالب كثير العيال، وأصابت قريشًا أزمة شديدة، فأراد محمد ﷺ أن يخفف عن أبي طالب بعض عنائه ويرد إليه بعض جميله، فذهب إلىٰ عمه العباس -وكان أيسر بني هاشم- فقال له: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترىٰ من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف من عياله، فوافق العباس وانطلقا إلىٰ أبي طالب يعرضان عليه هذا الأمر، فقال لهما: إذا تركتما لي عقيلًا فاصنعا ما شئتما! فأخذ محمد ﷺ عليًّا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه». انظر: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣١٣.

(٢) أي كان أكثر القرشيين علمًا بأنساب قريش.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣١٧.

(٤) هو الأرقم بن عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي. وأبو الأرقم كنية عبد مناف. ويروىٰ أن الأرقم كان ترتيبه الثاني عشر في إسلامه، وقد توفي سنة ثلاث وخمسين من الهجرة عن =

ولا نعرف على وجه اليقين متى بدأ الرسول ﷺ يتخذ دار الأرقم ملتقى سريًا له مع صحابته ولكن بعض مصادرنا تشير إلى أن المسلمين عندما كملوا أربعين بإسلام عمر ابن الخطاب (في العام الخامس أو السادس للبعثة) خرجوا من دار الأرقم[1]. وقد يمكننا أن نقبل أن المسلمين ظلوا بدار الأرقم حتى أسلم عمر، ولكن من الصعب أن نصدق أنهم كملوا أربعين بإسلامه؛ لأن هجرة الحبشة الثانية، وقد حدثت في حوالي ذلك الوقت ضمت أكثر من سبعين.

ولما كان الرسول ﷺ -خلال المرحلة التي نتحدث عنها الآن- قد آثر أن يحصر دعوته في نطاق أهله والمقربين إليه، فقد كان من الطبيعي أن يدعو عمه أبا طالب إلى الإسلام، فهو -فضلًا عن قرابته القريبة- كان واحدًا من ألصق الناس به وأحبهم إليه، وقد قال أبو طالب للرسول ﷺ عندما عرض عليه الإسلام: «أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن -والله- لا يُخْلَص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ»[2].

وفي هذه المرحلة من تاريخ الدعوة فرض الله الصلاة على رسوله ﷺ وعلى المسلمين. والذي فُرض حينئذ كان أصل الصلاة، أما الصلوات الخمس بهيئاتها المعروفة فلم تفرض إلا ليلة الإسراء[3]، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلَّوا ذهبوا إلى شعاب مكة فاستخْفوا من قومهم، واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين كانت الدعوة خلالها محاطة بالسرية والكتمان[4]. وبعد انقضاء السنين الثلاث الأولى دخلت الدعوة في طور جديد.

ب- الدعوة في مرحلة الجهر:

يروي الطبري أن «الله ﷻ أمر نبيه محمدًا ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادئ الناس بأمره ويدعو إليه فقال له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ

= ثلاث وثمانين سنة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٧٤-٧٥، وحول دار الأرقم ارجع إلى مادة الأرقم في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم ركندورف ج ٣، ص ٨.

(١) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٣-٢٤، وابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٥٠-٥١.

(٤) هذه هي الرواية التي ترددها معظم المصادر. وتذكر بعض الروايات أن الدعوة السرية استمرت أربع سنين. انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١١٦.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. وكان قبل ذلك -في السنين الثلاث من مبعثه إلىٰ أن أُمر بإظهار الدعاء إلىٰ الله -مُستَتِرًا مُخْفيًا أمرَه ﷺ، وأنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦][1].

هكذا تعيَّن علىٰ محمد ﷺ بمقتضىٰ هذا الأمر الإلهي الصريح -أن يدخل في مواجهة مباشرة مع مشركي مكة ومع تقاليد الوثنية المتأصلة في نفوسهم. ورغم جسامة العبء وفداحة التبعة مضىٰ ﷺ في تنفيذ الأمر الإلهي دون تردد، فبدأ بدعوة عشيرته الأقربين. وتختلف الروايات في ذلك، فبعضها يذكر أنه بدأ بدعوة بني عبد المطلب، وقيل: بل إن دعوته اتسعت عندئذ لتشمل بني عبد مناف، وقيل: بل إنها شملت كل قريش، وهذا واضح مما يعرضه الطبري في إحدىٰ رواياته حيث يقول: «لما نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ بالأبطح[2] ثم قال: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني قُصَيّ -قال: ثم فَخَذَ[3] قريشًا قَبِيلةً قبيلةً حتىٰ مرَّ علىٰ آخرهم -إني أدعوكم إلىٰ الله وأنذركم عذابه»[4].

ولكننا نميل -في ضوء السياق المنطقي للأحداث- إلىٰ القول بأن الرسول ﷺ بدأ بدعوة بني عبد المطلب عندما أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين، فبنو عبد المطلب هم أقرب الناس إليه وأعرفهم به، وهم -بناء علىٰ ذلك- ينبغي أن يكونوا أسرع الناس استجابة لدعوته. وقد دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ طعام في بيته «وهم يومئذ أربعون رجلًا، يزيدون رجلًا أو ينقصونه» ثم حاول ﷺ أن يعرض عليهم دعوته فقاطعه عمه أبو لهب، فتفرق القوم قبل أن يكلمهم رسول الله ﷺ. ثم دعاهم الرسول ﷺ في الغد إلىٰ مثل ما دعاهم إليه بالأمس، فلما طعموا قال لهم: **«يا بني عبد المطلب، إني والله**

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣١٨.

(٢) جاء في لسان العرب لابن منظور، ج ١، ص ٢٩٩-٣٠٠: «الأبطح مَسِيل واسع فيه دُقاق الحصىٰ .. قال ابن الأثير: وبطحاء الوادي وأبطحه حصاه اللين في بطن المسيل، ومنه الحديث: أنه ﷺ صلىٰ بالأبطح، يعني أبطح مكة، قال: هو مسيل واديها .. وبطحاء مكة وأبطحها: معروفة، لانبطاحها ... وقريش البطاح: الذين ينزلون أباطح مكة وبطحاءها، وقريش الظواهر: الذين ينزلون ما حول مكة ..».

(٣) فَخَذَ قريشًا: أي ذكرها فخذًا فخذًا. والمعروف أن الشَّعب أكثر هذه المصطلحات اتساعًا، وتليه القبيلة، ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٢.

ما أعلم شابًّا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به؛ إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالىٰ أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم جميعًا. ولكن عليًّا -وكان ما زال حدثًا- أجاب بقوله: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه». فأخذ الرسول ﷺ برقبته ثم قال: «**إن هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا**»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: «قد أمرك محمد أن تسمع لابنك وتطيع!»[1].

هكذا صد القوم عن دعوة رسول الله ﷺ، ولكن هذا الصدود لم يزده إلا إصرارًا علىٰ المضي في طريق تبليغ رسالته، وإذا كانت عشيرته الأقربون قد خذلته اليوم فإن هذا لا يعني أنها ستستمر في خذلانه، ولا يعني أيضًا أن غيرهم من قريش وسائر العرب سيعرضون عن دعوته. وقد كان الرسول ﷺ يعلم حق العلم أنه يحمل أمانة ثقيلة وأنه واجدٌ في سبيل أدائها كل عنت ومشقة. وكانت كلمة ورقة بن نوفل ما زالت تتردد في أذنيه: «إنه لم يجئ رجلٌ قطّ بما جئت به إلا عُودِي»؛ ولهذا مضىٰ ﷺ في طريقه وهو علىٰ استعداد لمواجهة كل التحديات والصبر عليها.

نتيجة لذلك قرر الرسول ﷺ أن يسير في دعوته خطوة أبعد لعله يجد آذانًا صاغية في دائرة أوسع من دائرة بني عبد المطلب، فيروىٰ أنه صعد «الصفا» ذات يوم فنادىٰ قريشًا فاجتمعت إليه فقال لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل . . . أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: «ما جربنا عليك كذبًا!» قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: «تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟!»[2] فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ **[المسد: ١-٣]**.

كان واضحًا من كل هذا أن دعوة الإسلام سوف تواجه مقاومة عنيفة وأن هذه المقاومة سوف تتصاعد كلما سارت الدعوة علىٰ طريق الجهر. وكان علىٰ الرسول ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وألا تذهب نفسه حسرات علىٰ الذين صدوا عن صراط الله، فالله غالب علىٰ أمره.

---

(١) المصدر نفسه، والجزء نفسه ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) المصدر نفسه، والجزء نفسه ص ٣١٩، ويروىٰ: «تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!» انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٢٠.

ومما لا شك فيه أن كلمة الحق -حتىٰ لو لم تجد في البداية آذانًا صاغية- تستقر في نفوس من وهبهم الله الفطرة الصحيحة وتمارس تأثيرها الكامن داخلها حتىٰ تجعلها تُسلم وجهها لله طائعة. وهذا ما سوف يحدث مع كثير من هؤلاء الذين أعرضوا في البداية عن دعوة الإسلام، أما الذين طبع الله علىٰ قلوبهم فقد أصروا واستكبروا استكبارًا وقاوموا دعوة الحق باللسان والسيف حتىٰ لفظوا آخر أنفاسهم.

والجدير بالملاحظة هنا أن قريشًا لم تأخذ ما جاء به الرسول ﷺ في البداية مأخذ الجد؛ ولهذا كانت مقاومتها له مقصورة علىٰ الاستهزاء به والسخرية من دعوته، وقد شمل ذلك مرحلة الدعوة السرية، فلا شك أن أنباءها ترامت إلىٰ بعض مسامع القرشيين فلم يعيروها التفاتًا، تهوينًا من أمرها، وقد شمل ذلك بداية مرحلة الجهر بالدعوة، ذلك أن قريشًا لم يكن يدور بخاطرها أن الرسول ﷺ سوف يستمر طويلًا في دعوته هذه عندما يلمس إعراض قومه، ولهذا اكتفت في بداية مرحلة الجهر بالدعوة بأن تصدَّ عنه وتتجاهل أمره، ولكن الأمور اختلفت تمامًا بعد قليل.

قريش ومقاومة الدعوة:

لا شك أن التوحيد هو حجر الزاوية في دعوة الإسلام. والتوحيد يعني إسلام الوجه خالصًا لله الواحد الأحد الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك. فلم يكن هناك بد من أن يجهر الرسول ﷺ بكُنْه دعوته، وإلا لما كان مبلغًا عن ربه، ولكن قريشًا كانت تتخذ آلهة من دون الله: أحجارًا لا تضر ولا تنفع. ومن هنا جاء الصدام المباشر بين دعوة الإسلام وعقيدة القرشيين الذين بدؤوا يدركون مدىٰ خطورة هذه الدعوة علىٰ موروثاتهم وتقاليدهم ونظام حياتهم.

فعندما بدأ الرسول ﷺ يوضح موقف الإسلام من عبادة الأصنام ويذكر آلهة قريش ويعيبها، ويتهم من يعبدونها بالضلال والزَّيغ أدركت قريش أبعاد هذه الدعوة الجديدة وأنها ما جاءت إلا لتهدم معتقدات وقيمًا وعادات تأصلت في مجتمعهم. وقد رأىٰ مشركو قريش أن يتدرجوا في المقاومة، فذهبوا في البداية إلىٰ أبي طالب عم الرسول ﷺ، وهم يعرفون مدىٰ حبه له وحرصه عليه، فقالوا له: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا،

وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه[1]!» ولكن أبا طالب لم يزد علىٰ أن ردهم ردًا جميلًا وقال لهم قولًا رقيقًا كما يروي المؤرخون. وهكذا مضىٰ الرسول ﷺ علىٰ ما هو عليه؛ يظهر دين الله ويدعو إليه ويهاجم الوثنية، دون أن يلقىٰ اعتراضًا من عمه.

ومن هنا ذهب كبراء قريش مرة أخرىٰ إلىٰ أبي طالب يشكون إليه رسول الله ﷺ. وكانت لهجة الشكوىٰ هذه المرة تشوبها نبرة التهديد؛ ليس للرسول ﷺ فقط بل لأبي طالب نفسه؛ حيث قالوا له: «يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا -والله- لا نصبر علىٰ هذا: مِن شَتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتىٰ تكُفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتىٰ يهلك أحد الفريقين». وهنا أحس أبو طالب بحرج موقفه؛ لأنه وجد نفسه بين خيارين كلاهما بغيض إلىٰ نفسه: فهو إما أن يخذل ابن أخيه ويقف في وجه دعوته، وهذا ما لا يرضاه؛ وإما أن يتنكر لقومه ويناصبهم العداء، وهذا أيضًا ما يود لو تحاشاه، وفكر أبو طالب طويلًا في مخرج من هذه الأزمة، ثم انتهىٰ به التفكير إلىٰ أن يدعو رسول الله ﷺ إلىٰ الاجتماع به بمحضر من سادة قريش، وفيهم أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم ويواجهه بهم لعله يصل معهم إلىٰ كلمة سواء، فلما جاء رسول الله ﷺ قال له عمه: «أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول ما تقول؟» فأجابه قائلًا: **«يا عم، إني أريدهم علىٰ كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»**. ولما سأله القوم: ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فتفرقوا عنه فزعين وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: ٥][2].

ويروىٰ أيضًا في هذا السياق أن أبا طالب -عندما هددته قريش- بعث إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له: «يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا؛ فأبق

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٧٧، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٣. والمقصود أن أبا طالب لما كان يخالف الرسول ﷺ في دينه كما يخالفه القرشيون، في الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يتخذ منه موقفًا معاديًا نظرًا لمنزلته عنده، فإن القرشيين يستطيعون أن يكْفُوه تبعة حربه، أي أن يتولوا عنه هذه المهمة.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٥.

عليَّ وعلىٰ نفسك ولا تُحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق»! وقد ظن الرسول ﷺ عندما سمع هذه الكلمة «أنه بدا لعمه فيه بَدَاءٌ» (أي ظهر له فيه رأي)، وأنه خاذله ومُسْلِمُه إلىٰ قريش، وأنه قد ضَعُفَ عن نصرته والقيام معه. فقال له: **«يا عمِّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر حتىٰ يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»**، ثم أجهش بالبكاء. فقال له عمه: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت؛ فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا»[١].

وقد أرادت قريش أن تجرب مع أبي طالب وسيلة أخرىٰ من وسائل الضغط والإغراء معًا، فأخذوا إليه عُمَارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وقالوا له: «هذا عُمارة بن الوليد أنْهَدُ[٢] فتىٰ في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونُصْرته، واتخذه ولدًا، فهو لك، وأسْلِمْ لنا ابن أخيك -هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرَّق جماعة قومك وسفَّه أحلامهم -فنقتله، فإنما هو رجل برجل!» فقال أبو طالب: «والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا» فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: «والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا علىٰ التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا»، فقال أبو طالب للمطعم: «والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ؛ فاصنع ما بدا لك»[٣].

بعد أن استنفدت قريش كل وسائلها في الضغط علىٰ أبي طالب دون جدوىٰ بدأت تلجأ إلىٰ أسلوب آخر من أساليب الضغط وهو تعذيب المستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ، أما رسول الله ﷺ فقد منعه الله منهم بعمه أبي طالب، وقد وثبت كل قبيلة علىٰ من فيها من ضعاف المسلمين فجعلوا يعذبونهم بالحبس والضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة في شدة الحر. وقد تأثر بعض هؤلاء من شدة العذاب فاضطروا إلىٰ النطق بكلمة الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، علىٰ حين صبر بعضهم الآخر علىٰ كل ألوان الأذىٰ والتنكيل. ومن بين هؤلاء الذين عُذِّبُوا فصبروا: بلال بن

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٧٨، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٢) أنهد -كما يقول السهيلي- «أي أقوىٰ وأجلد. ويقال: فرس نَهْد للذي يتقدم الخيل. وأصل هذه الكلمة التقدم، ومنه يقال: نَهَدَ ثدي الجارية أي: برز قدمًا». الروض الأنف، ج ٢، ص ٨.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٧٩، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٧، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ٤٦.

رباح، وكان عبدًا حبشيًا، وكان سيده أمية بن خلف الجُمَحي[(١)] «إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُلْقَىٰ علىٰ صدره ويقول: لا تزال هكذا حتىٰ تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزىٰ»[(٢)]، فكان بلال يقول وهو في تلك الحال: أحد أحد! «وما أعطاهم قط كلمة مما يريدون»[(٣)]. وقد اشترىٰ أبو بكر بلالًا من أمية وأعتقه فخلصه مما فيه من العذاب[(٤)].

ومن هؤلاء الذين تعرضوا لأبشع ألوان التعذيب عمار بن ياسر أبو اليقظان العَنْسي وأبوه وأمه سمية، وكان ياسر (والدُ عمَّار) حليفًا لبني مخزوم، فكانوا يُخْرجون عمارًا وأباه وأمه إلىٰ رمضاء مكة الملتهبة ويطرحونهم بها ويتفننون في تعذيبهم، فمات ياسر في العذاب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها بحربة فماتت، فهي أول شهيدة في الإسلام، أما عمار فقد شددوا عليه العذاب بالحر تارة، وبوضع الصخر علىٰ صدره أخرىٰ، وقالوا له: «لا نتركك حتىٰ تسبَّ محمدًا وتقول في اللات والعزىٰ خيرًا» ففعل فتركوه، «فأتىٰ النبيَّ ﷺ يبكي، فقال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله! كان الأمر كذا وكذا. قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئنًا بالإيمان. فقال: يا عمار، إن عادوا فَعُدْ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦][(٥)]. وممن اشتد عليهم إيذاء قريش من المستضعفين أيضًا صُهيب بن سنان[(٦)]،

---

(١) هو أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجمحي القرشي، كان هو وأخوه أُبيّ بن خلف من أكثر الناس عنادًا لدعوة الإسلام. وقد قُتل أمية بن خلف في غزوة بدر، أما أخوه أبيّ فقد قتله رسول الله ﷺ يوم أحد. انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٥٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٦٦.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٨٥.

(٤) المصدر نفسه، والجزء نفسه ص ١٨٥-١٨٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٧٦، وتمام الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

(٦) صُهيب بن سنان بن مالك، ينتهي نسبه إلىٰ أسد بن ربيعة بن نزار، فهو من العرب العدنانيين. كان أبوه سنان عاملًا لكسرىٰ علىٰ الأُبُلّة من قبل النعمان بن المنذر، ثم أغارت الروم علىٰ هذه الناحية فسبت صهيبًا وهو صغير فنشأ بالروم، ثم اشتراه رجل من قبيلة كلب فقدم به مكة فاشتراه منه عبد الله بن جدعان التيمي ثم أعتقه، ولم يزل صهيب مع آل جدعان إلىٰ أن بعث رسول الله ﷺ فأسلم، انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ١٨٠، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٣٠٠.

وعامر بن فُهيرة[1]، وخبَّاب بن الأرتّ[2]. ويروىٰ عن خبَّاب أنه قال: «أتيت النبي ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُبُردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو مُحْمَرٌّ وجهه فقال: لقد كان مَنْ قبلكم ليُمْشطُ بأمْشَاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار علىٰ مفرق رأسه فيُشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت ما يخاف إلا الله»[3].

هكذا لجأت قريش إلىٰ هذا الأسلوب الفظ القاسي في مقاومة الدعوة، وقد شقَّ علىٰ رسول الله ﷺ ما يلقاه أصحابه من العنت والأذىٰ من جراء تمسكهم بدعوة الحق، فأخذ يفكر في وسيلة تخلصهم من العذاب وتتيح لهم أن يعبدوا الله دون خوف علىٰ عقيدتهم أو دمائهم أو أموالهم.

(١) جاء في أُسْد الغابة لابن الأثير، ج ٣، ص ١٣٦-١٣٧ أن عامر بن فهيرة «كان مولدًا من مولدي الأزد، أسود اللون، مملوكًا للطفيل بن عبد الله ... وكان من السابقين إلىٰ الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، أسلم وهو مملوك، وكان حسن الإسلام، وعُذِّب في الله، فاشتراه أبو بكر فأعتقه ... وشهد عامر بدرًا وأحدًا. وقتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة».

(٢) خبَّاب بن الأرتّ: اختلف في نسبه، فقيل: خزاعي، وقيل: تميمي، وهو الأكثر. فهو إذن عربي صميم، ولكنه سُبي في الجاهلية فبيع بمكة. وقيل: حليف بني زهرة، وقيل: هو مولىٰ عتبة بن غزوان .. وهو من السابقين الأولين إلىٰ الإسلام. أسد الغابة ج ٢ ص ١١٤.

(٣) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٥٦-٥٧ (باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة).

الفصل الرابع
الهجرة إلى الحبشة وتطور الدعوة في مكة
حتى وفاة أبي طالب وخديجة

أولًا: الهجرة إلىٰ الحبشة: ملابساتها ودوافعها وموقف القرشيين منها:

اشتد الأذىٰ بأصحاب رسول الله ﷺ، وخاصة المستضعفين منهم -علىٰ ما وضحناه في الفصل السابق- وأصبح هذا الأذىٰ تهديدًا حقيقيًّا لهؤلاء في حياتهم وعقيدتهم. ولكن قريشًا لم تقنع بذلك بل وسَّعت دائرة هذا الأذىٰ لتبسطه علىٰ من اتبع محمدًا ﷺ من بطون قريش نفسها، محاولين بذلك فتنتهم عن دينهم، وهذا ما تجمع عليه مصادر السيرة. يقول الطبري بعد أن تحدث عن توسيع قريش لدائرة أذاها ضد المسلمين: «فكانت فتنة شديدة الزلزال علىٰ من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن[(١)]، وعصم الله منهم من شاء. فلما فُعِل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلىٰ أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يُظْلم أحد بأرضه .. وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغًا[(٢)] من الرزق وأمنًا ومتجرًا حسنًا، فأمرهم بها رسول الله ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قُهِرُوا بمكة وخاف عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح»[(٣)].

---

(١) يذكر اليعقوبي أن المسلمين حين اشتد عليهم العذاب «ونالهم منه أمر عظيم» رجع منهم عن الإسلام خمسة نفر، وفيهم نزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨]. وانظر تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٨.

(٢) رفاغًا من الرزق: أي سعة فيه.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٨-٣٢٩. وانظر أيضًا تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص ٣٩٨.

يدور هذا النص المهم حول نقطتين أساسيتين: تتعلق النقطة الأولىٰ بدوافع الهجرة ذاتها، وتتعلق النقطة الثانية بأسباب اختيار الحبشة دون سواها لتكون مُهاجَرًا للمسلمين.

وفيما يتصل بالنقطة الأولىٰ يبدو من الواضح تمامًا أن دوافع الهجرة ارتكزت علىٰ محورين هما: حماية الدين، وحماية النفس. لقد استطاع المشركون أن يفتنوا بعض المسلمين عن دينهم، أو -علىٰ الأقل- أن يجعلوهم يتظاهرون بترك دينهم. ثم إن وحشية التعذيب الذي تعرض له المسلمون علىٰ أيدي هؤلاء جعلتهم لا يأمنون علىٰ حياتهم، وقد أراد الرسول ﷺ أن يرفع عنهم هذا التهديد المزدوج، وهو تهديد الدين وتهديد النفس، فأمرهم بالهجرة.

مناقشة رأي «مونتجومري وات» حول دوافع الهجرة إلىٰ الحبشة:

رغم أن ملابسات الهجرة إلىٰ الحبشة ودوافعها -كما عرضناها الآن- تبدو منسجمة تمامًا مع السياق التاريخي الذي حدثت فيه -فإن للمستشرق البريطاني «مونتجومري وات» رأيًا آخر تجدر مناقشته هنا. فهو يرفض الدوافع التي تقدمها مصادر السيرة، ويطرح بدلًا منها دوافع أربعة محتملة: أما أولها فهو رغبة محمد ﷺ في الحصول علىٰ مساعدة عسكرية من الحبشة تمكنه من السيطرة علىٰ مكة. وأما الثاني فهو رغبته ﷺ في تحويل الحبشة إلىٰ قاعدة لمهاجمة مكة، كما فعل بعد ذلك في المدينة. وأما الدافع الثالث فهو محاولته ﷺ أن يتوصل إلىٰ طريق تجاري بديل يتجه من الجنوب إلىٰ الإمبراطورية البيزنطية حتىٰ يكسر الاحتكار الذي كان يمارسه المكيون علىٰ طريق التجارة إلىٰ هذه البقاع. وأما الدافع الرابع والأخير فهو وجود خلافات حادة في الرأي داخل صفوف المجتمع الإسلامي بين مجموعة يتزعمها أبو بكر الصديق، ومجموعة أخرىٰ معارضة يتزعمها عثمان بن مظعون وخالد بن سعيد ابن العاص. وفي ضوء هذا الدافع الأخير يرىٰ «وات» أن الهجرة إلىٰ الحبشة لم تكن تنفيذًا لتوجيهات الرسول ﷺ بل تمت بمبادرة قام بها المهاجرون أنفسهم، ولكنه في الوقت نفسه يطرح احتمال أن يكون الرسول هو الذي أمر أصحابه بالهجرة عندما ترامت إليه أنباء الانشقاق الذي حدث في صفوفهم، وعندما يوازن «وات» بين هذه الدوافع الأربعة يرىٰ أن الأخير منها هو أكثرها قبولًا[1].

---

(1) M. Watt, Muhammad at Mecca, pp. 114-117. See also the same's Muhammad: Prophet and Statesman, P. 68.

والحق أن كل الدوافع التي طرحها «وات» وراء هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة لا تصمد أمام المناقشة. وهو فيما يعرضه لا يستند إلىٰ أي دليل تاريخي، بل يعتمد علىٰ الخيال، والخيال لا يصلح حجة للمؤرخ. فرغبة الرسول ﷺ في الحصول علىٰ مساعدة عسكرية من الحبشة -لو صحت- لم تكن تتطلب هجرة المسلمين للإقامة هناك، بل كان يكفي حيالها إرسال بعثة من شخص أو عدة أشخاص لتؤدي المهمة ثم تعود. ولم يكن الرسول ﷺ -بكل ما أوتي من فطنة، وبعد نظر- ليتوقع من إمبراطور الحبشة أن يقبل القيام بمغامرة غير محسوبة ويلبي طلبًا كهذا. أما رغبة الرسول ﷺ في تحويل الحبشة إلىٰ قاعدة لمهاجمة تجارة مكة فهي لم توجد إلا في خيال «وات»؛ ذلك أن إمبراطور الحبشة لم يكن ليقبل ببساطة أن تتحول بلاده إلىٰ مركز لمهاجمة تجارة المكيين، لأنَّ قبوله بذلك كان يعني تعريض بلاده لأزمات اقتصادية وسياسية هي في غنىٰ عنها، هذا فضلًا عن أن وضع المسلمين في ذلك الوقت لم يكن يسمح لهم بالدخول في مثل هذه المواجهة.

أما القول بأن الرسول ﷺ كان يتطلع إلىٰ التوصل إلىٰ طريق تجاري بديل يتجه من الجنوب إلىٰ الإمبراطورية البيزنطية فهو قول لا سند له من تاريخ أو منطق، فلم تكن إمكانات المسلمين المحدودة في ذلك الوقت تسمح للرسول ﷺ بالتفكير في مشروع كهذا، ثم إننا نقول هنا ما قلناه قبل ذلك، وهو أنه لو صح هذا الافتراض لما تطلب الأمر هجرة إلىٰ الحبشة واستقرارًا فيها، بل لأمكن تحقيق هذه الغاية من خلال بعثة محدودة العدد تبلغ رسالتها ثم ترجع، لا من خلال مهاجرين مع زوجاتهم وأبنائهم يذهبون بهدف الإقامة المفتوحة.

يبقىٰ الدافع الأخير الذي يعده «وات» أكثر الدوافع قبولًا، وهو وجود خلافات حادة في الرأي بين مجموعة أبي بكر ومجموعة عثمان بن مظعون. والحق أن هذا الدافع هو أكثر الدوافع التي طرحها «وات» تهافتًا وأشدها إمعانًا في الخيال. فليس في مصادرنا ما يشير إلىٰ انقسام السابقين إلىٰ الإسلام إلىٰ مجموعتين فضلًا عن وجود خلافات حادة بينهما. وكيف لنا أن نتصور أن السابقين الأولين سمحوا لأنفسهم أن يتمزقوا في وقت كان فيه مشركو قريش يقعدون لهم كل مرصد يوعِدونهم ويصدونهم عن سبيل الله؟، لقد كانت معركة المسلمين مع المشركين معركة حياة أو موت، ومن

المستحيل أن يتطوع بعض المسلمين في تلك الظروف ليعينوا المشركين علىٰ أنفسهم[1].

فلا يبقىٰ أمامنا من تفسير مقبول لهجرة المسلمين إلىٰ الحبشة إلا ما تقدمه مصادرنا الموثقة من أن الهدف من ورائها كان حماية الدين والنفس في ظروف جاوز فيها اضطهاد قريش للمسلمين حدود الاحتمال.

تبقىٰ النقطة الثانية المتعلقة بأسباب اختيار الحبشة دون سواها مُهَاجَرًا للمسلمين. ويتضح من نص الطبري الذي اقتبسناه آنفًا أن هذا الاختيار قام علىٰ سببين أساسيين:

أولهما: ما عُرف عن نجاشي الحبشة آنذاك[2] من عدل وصلاح. مما يتيح للمسلمين في دياره أن يتمتعوا بالأمن والطمأنينة، وينعموا بحرية العبادة، مع أن النجاشي كان يدين بالمسيحية.

أما السبب الثاني: فيتمثل في أن الحبشة كانت مكانًا تجاريًا معهودًا لقريش، بل كانت من الأماكن التي تروج فيها تجارتهم وتتسع فيها أرزاقهم، ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن يجد فيها المسلمون المهاجرون إليها مصدرًا للرزق وسعة فيه عن طريق اشتغالهم بالتجارة، وما كانوا سيعيشون عالة علىٰ أحد.

وقد آثر رسول الله ﷺ ألا يهاجر مع مهاجرة الحبشة وأن يظل حيث هو بمكة حتىٰ ينشر كلمة الله بين عَبَدة الأوثان رغم كل المصاعب والعقبات.

ويقسم معظم المؤرخين هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة إلىٰ هجرتين: الهجرة الأولىٰ وكانت في رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وكانت تضم عشرة رجال وأربع نسوة طبقًا لرواية ابن إسحاق، أما الرجال فهم: عثمان بن عفان، وأبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة ابن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة بن مالك، وأبو سَبْرة بن

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول عرض ومناقشة آراء «وات» فيما يتصل بهجرة المسلمين إلىٰ الحبشة ودوافعها ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: «قراءة نقدية في كتابات مونتجومري وات في السيرة النبوية» مجلة المسلم المعاصر، العدد: ٨٢، ص ٩٦-١٠٦.

(٢) واسمه «أصحمة» طبقًا لمصادرنا العربية التي يذكر بعضها أنه اعتنق الإسلام في وقت متأخر. انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٣٨، وابن القيم: زاد المعاد، ج ٢، ص ٤٥.

أبي رُهم، وسهيل بن بيضاء، وأما النسوة فهن: رقية بنت رسول الله ﷺ وهي امرأة عثمان، وسهلة بنت سهيل بن عمرو وهي امرأة أبي حذيفة، وأم سَلَمة بنت أبي أمية ابن المغيرة امرأة أبي سلمة، وليلىٰ بنت أبي حَثْمة امرأة عامر بن ربيعة(١)، ولكن البلاذري يضيف إلىٰ هؤلاء الرجال العشرة رجلين آخرين هما: عبد الله بن مسعود، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس؛ وإلىٰ النسوة: أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وهي امرأة أبي سَبْرَة بن أبي رُهْم(٢). فبناءً علىٰ هذه الرواية تكون الهجرة الأولىٰ قد ضمت اثني عشر رجلًا وخمس نسوة، وهي الرواية التي نطمئن إليها.

ونحن نلاحظ من خلال نظرة سريعة إلىٰ أسماء هؤلاء المهاجرين أن بعضهم كان ينتمي إلىٰ عشائر ذات قوة ومكانة كعثمان بن عفان، وأبي حذيفة، وأبي سلمة، والزبير ابن العوام، وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه من أن دائرة الأذىٰ الذي كان يتعرض له المسلمون الأولون اتسعت بحيث لم تعد مقصورة علىٰ المستضعفين.

لم يطل مُكْث المسلمين بالحبشة في هجرتهم الأولىٰ؛ فقد هاجروا إليها في رجب من السنة الخامسة للبعثة كما ذكرنا، وعادوا إلىٰ مكة في شوال من السنة نفسها(٣) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا عاد المسلمون من الحبشة بعد حوالي ثلاثة أشهر من هجرتهم إليها؟

تذكر بعض مصادر السيرة والتفسير سببًا لذلك يدور حول الحادثة المعروفة بقصة الغرانيق(٤)؛ وخلاصتها أن الرسول ﷺ لما رأىٰ إعراض قومه عنه تمنّىٰ في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبينهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾. فلما انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: «تلك الغرانيق العلا، وإن

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٠٤، ص ٢١٩. ويذكر اليعقوبي أن الذين هاجروا هجرة الحبشة الأولىٰ كانوا اثني عشر رجلًا، ولكنه لا يحدد أسماءهم. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٧٧.

(٤) الغرانيق: جمع غُرْنوق أو غِرْنيق. ومن بين ما ذكره علماء اللغة من معانيها أنها طائر أبيض من طير الماء، ويذكر ابن منظور أن المشركين «كانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله ﷻ وتشفع لهم إليه، فشُبِّهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء». لسان العرب: مادة غرنق. ج ٥، ص ٣٢٤٩.

شفاعتهن لترتجىٰ». فلما سمع المشركون ذلك فرحوا وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، وعندما انتهىٰ الرسول ﷺ إلىٰ آية السجدة من سورة النجم -وهي ختام السورة- سجد، «فسجد المسلمون بسجود نبيهم ﷺ، تصديقًا لما جاء به واتباعًا لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لِمَا سمعوا من ذكر آلهتهم»(١). ووصل نبأ هذه السجدة إلىٰ من بأرض الحبشة من المسلمين فلم يساورهم الشك في أن قريشًا قد أسلمت إذ سجدت بسجود رسول الله ﷺ، ومن هنا قرروا اللحاق بالرسول ﷺ والمسلمين بمكة. وتمضي الرواية قائلة إن جبريل أتىٰ الرسول ﷺ يعرِّفه أنه تلا علىٰ الناس ما لم يأته به عن الله -سبحانه-، فحزن ﷺ حزنًا شديدًا، «فأنزل الله ﷻ -وكان به رحيمًا- يعزِّيه ويخفِّض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله نبي ولا رسول تمنىٰ كما تمنىٰ، ولا أَحَبَّ كما أحبّ، إلا والشيطان قد ألقىٰ في أمنيته، كما ألقي علىٰ لسانه ﷺ، فنسخ الله ما ألقىٰ الشيطان وأحكم آياته . . فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]، فأذهب الله ﷻ عن نبيه الحزن وآمنه من الذي كان يخاف، ونسخ ما ألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه من ذكر آلهتهم . . . بقول الله ﷻ حين ذكر اللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، أي عوجاء ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦](٢). فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده؟!»(٣).

فلما رأت قريش أن محمدًا ندم علىٰ ما ذكر من منزلة آلهتهم عند الله ازدادوا شرًّا إلىٰ ما كانوا عليه وشدةً علىٰ المسلمين، «وأقبل أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من إسلام أهل مكة حين سجدوا مع

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٢) النص الكامل للآيات: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٦].

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٩.

رسول الله ﷺ. حتىٰ إذ دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلًا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مستخفيًا»[1].

فهذه خلاصة قصة الغرانيق وما ترتبط به من بيان السبب في عودة مهاجري الحبشة الأولين إلىٰ مكة. وقد احتفل المستشرقون كثيرًا بهذه القصة وأخذوها علىٰ أنها حقيقة مؤكدة، كما أطلقوا عليها اسمًا مثيرًا هو: «الآيات الشيطانية»: Stanic Verses بل إن الكاتب البريطاني الجنسية الهندي الأصل سلمان رشدي (الذي ينحدر من أسرة مسلمة) جعل من «الآيات الشيطانية» عنوانًا لروايته المشهورة التي أصدرها في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين وحشاها بكل ما لا يخطر علىٰ البال من صور البذاءة والافتراء ضد الإسلام ونبيه ﷺ.

والنظر الفاحص في قصة الغرانيق يؤكد أنها مختلقة في جوهرها؛ فهي تحمل في طياتها عوامل تهافتها وانهيارها، وهذا ما انتهىٰ إليه كثير من الباحثين المحققين في العصر الحديث مثل الإمام محمد عبده، والشيخ محمد الخضري، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ سيد قطب وغيرهم. ومجيئها في بعض كتب التفسير لا يعني وثاقتها؛ فما أكثر الدخيل في مصادر التفسير! ويمكننا أن نبلور الأسباب التي تدعونا إلىٰ رفض هذه القصة فيما يأتي:

أولًا: إن حجر الزاوية في رسالة الإسلام هو التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من شرك؛ فكيف ينطق الرسول ﷺ بكلمات فيها تمجيد للات والعزىٰ ومناة، وإشارة إلىٰ ما يرتجىٰ من شفاعتها؟

ثانيًا: إن مبدأ عصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله مبدأ ثابت لا جدال فيه. والآيتان والثالثة والرابعة من سورة «النجم» تؤكدان ذلك بما لا يدع مجالًا للشك: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. فكيف يزعم زاعم أن الرسول ﷺ فقد العصمة في هذا الموقف فنطق بما نطق به بوحي من الشيطان؟[2]

ثالثًا: لو صح أن الرسول ﷺ -في أثناء تلاوته سورة النجم- جرىٰ لسانه بهاتين الجملتين: «تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجي» لما فات سامعيه من

(١) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص ٣٤٠.

(٢) راجع: محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٧٦، وسيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٤٣٢.

المسلمين والمشركين علىٰ السواء -وهم أهل فصاحة وبيان- أن يدركوا مدىٰ التناقض الصارخ بين هذا الكلام وبين قوله -سبحانه- بعد ذلك بقليل: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. فكيف يجتمع ذم صريح لشيء ما مع مدح صريح له في سياق واحد دون أن يسترعي ذلك انتباه أحد؟[١]، والمعروف أن الرسول ﷺ -طبقًا لهذه الرواية- تلا السورة بتمامها في المجلس المذكور حتىٰ وصل إلىٰ آية السجدة في ختامها فسجد وسجد الجميع معه.

رابعًا: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يفيد أن صنيع الشيطان هذا أمر عام في الرسالات كلها مع الرسل كلهم، وليس أمرًا خاصًا بالرسول ﷺ؛ فهذه إذن قاعدة شاملة، ومن هنا -كما يستنتج الأستاذ سيد قطب- «لا بد أن يكون المقصود أمرًا عامًّا يستند إلىٰ صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعًا، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل»[٢]. يمكننا أن نقول -بعبارة أخرىٰ-: إن هذه الآية لا تصلح علىٰ الإطلاق مستندًا لحديث الغرانيق.

وفي ضوء هذا يكون التفسير المقبول للآية هو أن الرسل عندما يناط بهم إبلاغ الرسالة إلىٰ الناس يتمنون لو استطاعوا جذب الناس إلىٰ دعوتهم بأسرع السبل ويودون لو هادنوا الناس بصورة مؤقتة فيما رسخ في نفوسهم من عادات وتقاليد، وذلك حتىٰ يقبلوا الدعوة، ثم يمكن بعد ذلك صرفهم عن تلك العادات المتأصلة لديهم. ويجد الشيطان في ذلك فرصة للكيد للدعوة وإلقاء الشبهات حولها في النفوس، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ويبين الحكم الفاصل (أي يُحْكِم آياته) فيما يحاول الشيطان الكيد فيه[٣].

بهذا يتبين لنا أن حديث الغرانيق حديث متهافت لا يتسق مع رسالة التوحيد ولا مع العصمة النبوية ولا مع المنطق السليم. ومن هنا كان علينا أن نبحث عن سبب آخر وراء عودة مهاجري الحبشة الأولين إلىٰ مكة غير ما قيل من أن عودتهم كانت من أجل ما سمعوه من إسلام قريش في قصة الغرانيق.

---

(١) محمد الخضري: نور اليقين، ص ٤٤، ومحمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٨٠.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٤٣٣.

(٣) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

إن ما يمكننا أن نستنتجه هو أن الظروف التي أحاطت بهؤلاء المهاجرين الأولين لم تكن مشجعة تمام التشجيع، فقد كانوا عددًا قليلًا، ما عَمَّق إحساسهم بالغربة رغم حُسن استقبال النجاشي لهم. وتشير بعض مصادرنا إلىٰ ما تعرض له النجاشي خلال تلك الفترة من اضطرابات داخلية جعلت بعض المسلمين يأخذ صفه ويقاتل بجانبه، ومن هؤلاء الزبير بن العوام، الذي يقول عنه البلاذري إنه «قاتل مع النجاشي عدوًّا له»[(١)]. والواضح أن هذه مسألة لم تكن تثير بواعث الطمأنينة في نفوس المهاجرين. ويضاف إلىٰ ذلك ما لعله ترامىٰ إلىٰ أسماعهم من اتساع دائرة الإسلام بمكة، وهكذا اجتمعت هذه العوامل كلها لتشجع مهاجرة الحبشة الأولين علىٰ العودة إلىٰ مكة، فعادوا وهم يطمعون في أن يجدوا موقف أهل مكة من المسلمين قد تغير، ولكنهم «لما كانوا دون مكة بساعة من نهار» -كما يقول ابن القيم- «بلغهم أن قريشًا أشد ما كانوا عداوة لرسول الله ﷺ، فدخل من دخل منهم بجوار»[(٢)]، ودخل بعضهم مستخفيًا[(٣)]. وكان عثمان بن مظعون أحد هؤلاء الذين دخلوا مكة بجوار، حيث أجاره الوليد بن المغيرة، ثم ردّ عثمان جوار الوليد قائلًا: أكون في ذمة مشرك! جوار الله أعزّ! فقام بعض بني المغيرة فلطم عين عثمان بن مظعون، فضحك الوليد شماتة به حيث رد عليه جواره، وقال له: ما كان أغناك عن هذا! فقال عثمان: إن عيني الأخرىٰ لمحتاجة إلىٰ مثل ما نالت هذه! فقال له الوليد: هل لك أن تعود بجواري؟ قال: لا أعود إلىٰ جوار غير الله[(٤)].

هكذا تهيأت الظروف للهجرة الثانية إلىٰ الحبشة؛ فقد تعرض المهاجرون الأولون للأذىٰ بعد عودتهم إلىٰ مكة، كما تعرض للأذىٰ غيرهم من المسلمين، فهاجر إلىٰ الحبشة ثانية من رجع منها، وانضم إليهم كثير من المسلمين التماسًا لحماية عقيدتهم وأرواحهم. ولا نجد في مصادرنا إشارة إلىٰ التاريخ الدقيق الذي حدثت فيه هذه

(١) أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٠١-٢٠٢. ويشير ابن هشام إلىٰ هذه الاضطرابات ودور الزبير فيها. ولكن كلام ابن هشام يفيد أنها حدثت بعد الهجرة الثانية. انظر سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٦١. والراجح مع ذلك أن هذه الاضطرابات ترجع بجذورها إلىٰ وقت أبعد من ذلك.

(٢) زاد المعاد، ج ٢، ص ٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٧٧.

(٤) المصدر نفسه، والجزء نفسه. ص ٧٨. وانظر أيضًا للمؤلف نفسه: أسد الغابة. ج ٣، ص ٥٩٩.

الهجرة الثانية، ولكننا نرجح أنها كانت في مطالع العام السادس للبعثة؛ لأن أصحاب الهجرة الأولىٰ عادوا في شوال من العام الخامس للبعثة، والغالب أنهم مكثوا بضعة أشهر في مكة قبل أن يتمكنوا من إعداد أنفسهم للهجرة الثانية، وكان الذين انضموا إليهم يحتاجون إلىٰ مثل هذا الإعداد أيضًا.

ولا يتفق مؤرخو السيرة حول عدد الذين ذهبوا إلىٰ الحبشة في الهجرة الثانية، فيذكر ابن هشام أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلًا سوىٰ نسائهم وأبنائهم إن كان عمار بن ياسر فيهم، فإن لم يكن فيهم فقد كانوا اثنين وثمانين[١]. ويذكر اليعقوبي أنهم كانوا سبعين سوىٰ نسائهم وأبنائهم[٢]. ويبدو أنه لا يُدْخل فيهم أصحاب الهجرة الأولىٰ، وقد كانوا عنده اثني عشر رجلًا. ويقدم البلاذري عرضًا مفصلًا بأسماء كل مهاجرة الحبشة، وهم عنده ستة وتسعون رجلًا. ولكنه يشير في أثناء عرضه إلىٰ من اختُلف في هجرته وهم عشرون، كما يذكر أسماء النساء المهاجرات بصحبة أزواجهن، وهن ثماني عشرة[٣]، وقد كان من أبرز المهاجرين في المرة الثانية -بالإضافة إلىٰ من ذكرنا أسماءهم في الهجرة الأولىٰ- جعفر بن أبي طالب[٤]، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة (وهو المقداد بن الأسود)، وشرحبيل بن حسنة، وسلمة بن هشام بن المغيرة (أخو أبي جهل)، وهشام بن العاص بن وائل (أخو عمرو ابن العاص). ولا شك أن هجرة هذا العدد الضخم من المسلمين إلىٰ ذلك البلد النائي -وفيهم الكثير ممن ينتمي إلىٰ عشائر ذات قوة- يشي بمقدار ما كانوا يتعرضون له من إيذاء وملاحقة، بل إن أبا بكر نفسه -بكل ما كان يتمتع به من مكانة رفيعة بين أهل مكة- أجمع أمره علىٰ الهجرة في المرة الثانية فرارًا من الاضطهاد، فبينما هو في بعض الطريق لقيه أحد أشراف العرب، وهو الحارث بن يزيد المعروف بابن الدُّغُنَّة[٥]

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٥٣. وانظر أيضًا: زاد المعاد لابن القيم، ج ٢، ص ٤٤-٤٥، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ٦٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩.

(٣) ارجع إلىٰ التفاصيل في: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٩٨-٢٢٧.

(٤) ويروىٰ أن «جعفرًا» كان أمير المهاجرين إلىٰ الحبشة. انظر الطبقات الكبرىٰ لابن سعد، ج ٤، ص ٣٤.

(٥) هو سيد بني الهون بن خزيمة، وهم القارة. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ١٩٠ وأنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٢٠٥.

(أو ابن الدُّغينة) فسأله عن وجهته، فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنّة: مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُج ولا يُخْرَج، وأخذ يعدد فضائله، ثم عرض عليه أن يجيره بمكة، فقبل أبو بكر، وأنفذت قريش جوار ابن الدُّغُنَّة بشرط أن يستخفي أبو بكر بصلاته وقراءته في منزله، فمكث أبو بكر يعبد الله في داره، ثم إنه ابتنىٰ بفناء داره مسجدًا فكان يجتمع نساء المشركين وأبناؤهم حين يقرأ القرآن، فراع ذلك قريشًا، فأخبروا ابن الدغنة بما يصنع أبو بكر، فقال له: قد علمت ما عاقدك القوم عليه؛ فإما أن تقتصر عليه، وإما أن ترد عليَّ جواري وذمتي. فقال أبو بكر: فإني أرجع إليك جوارك وأرضىٰ بجوار الله![1] وواجه أبو بكر -بغير جوار ابن الدغنة- أذىٰ المشركين صابرًا لا تلين له قناة.

ومن المشروع هنا أن نتساءل: ماذا كان رد فعل قريش إزاء هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة؟

يحدثنا التاريخ أن عناد مشركي قريش في مقاومتهم لدعوة الإسلام بلغ بهم حدًّا جعلهم يتعقبون هؤلاء المهاجرين في مأواهم الجديد. ولعل قريشًا خشيت أن تؤثر حماية النجاشي للمسلمين تأثيرًا إيجابيًّا في الدعوة المحمدية في داخل شبه الجزيرة العربية؛ فيتزايد أتباع هذا الدين، أو لعلها خشيت أن تشتد شوكة هؤلاء المهاجرين فيعودوا إلىٰ مكة أكثر قدرة علىٰ تقديم كل صور العون لدعوة الإسلام[2].

وتجمع مصادرنا علىٰ أن قريشًا أرسلت بعض مبعوثيها إلىٰ النجاشي في محاولة منها لصرفه عن إيواء المسلمين وتقديم الحماية لهم؛ ولكنها تختلف حول عدد البعثات التي أرسلتها بهذا الصدد وحول بعض الشخصيات التي اشتركت فيها. فرواية ابن إسحاق -وهي التي وردت في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وغيرهما- تشير إلىٰ أن قريشًا أرسلت إلىٰ النجاشي بعثة واحدة مكونة من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة[3]. ورواية موسىٰ بن عقبة -وهي التي وردت في تاريخ اليعقوبي وغيره- تشير إلىٰ أن قريشًا أرسلت إلىٰ النجاشي بعثة واحدة مكونة من عمرو بن العاص،

(١) أنساب الأشراف، ج ١ ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٦٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٥٦، وتاريخ الطبري ج ٢، ص ٣٣٥، وأنساب الأشراف للبلاذري ج ١، ص ٢٣٢.

وعُمارة بن الوليد بن المغيرة[1]. وهناك من الروايات ما يشير إلىٰ أن قريشًا أرسلت بعثتين: الأولىٰ مع عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد، والثانية مع عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة[2].

علىٰ أن ما نرجحه هو أن قريشًا أرسلت إلىٰ النجاشي بعثة واحدة هي بعثة عمرو ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وذلك في ضوء اتفاق معظم مصادرنا علىٰ ذلك.

وينفي البلاذري نفيًا قاطعًا أن يكون عمارة بن الوليد هو الذي صحب عمرًا في بعثة قريش إلىٰ النجاشي، ويذكر أن عمارة صحب عمرًا في رحلة تجارية إلىٰ الشام لا صلة لها بأي سفارة سياسة وكانت مع عمرو امرأته، فراودها عمارة عن نفسها فامتنعت، ففطن عمرو لذلك وبيَّت الشر لعمارة، فعندما انتهيا إلىٰ أرض الحبشة حاول عمارة أن يتصل بامرأة النجاشي وأن يُغْويها، وعلم عمرو بما حاوله عمارة فحدث به النجاشي، فيقال إن النجاشي قتل عمارة، ويقال إنه سحره[3]. وهناك رواية يرويها ابن كثير عن الزهري خلاصتها أن بعثة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلىٰ النجاشي أرسلتها قريش بعد غزوة بدر «لينالوا ممن هناك ثأرًا»[4]، أما بعثة عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد فقد حدثت في المرحلة التي نناقشها الآن. وهذه رواية لا تجد لها صدىٰ في مصادرنا التاريخية؛ ولهذا نعيد ما سبق أن رجحناه منذ قليل وهو أن قريشًا أرسلت إلىٰ النجاشي بعثة واحدة هي بعثة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بعد الهجرة إلىٰ الحبشة بقليل.

ومهما يكن من خلاف حول عدد البعثات التي أرسلتها قريش إلىٰ النجاشي وحول بعض الشخصيات التي شاركت فيها فإن ما يتفق عليه مؤرخو السيرة هو أن محاولة قريش للوقيعة بين النجاشي وبين المهاجرين المسلمين باءت بالفشل. لقد حمل عمرو ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة معهما هدايا قيِّمة إلىٰ النجاشي وحاشيته، وحاولا إغراء الحاشية بأن تشجع النجاشي علىٰ طرد هؤلاء المهاجرين. وعندما أذن لهما

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩.

(٢) هذه إحدىٰ الروايات التي يعرضها ابن كثير وينقلها عن أبي نعيم في الدلائل. انظر البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١ ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧٤.

الإمبراطور بالمثول بين يديه قالا له: «أيها الملك، إنه قد ضوىٰ إلىٰ بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم . . ». ومع أن الحاشية أعلنت تصديقها لكلام السفيرين فإن النجاشي أبىٰ إلا أن يسمع ما يقوله المهاجرون أنفسهم، فأرسل إليهم يستدعيهم فدخلوا عليه، وعندئذ سألهم النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟» فتصدىٰ جعفر بن أبي طالب للإجابة عن سؤاله قائلًا: «أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه علىٰ ما جاء به من الله . . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله تعالىٰ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلىٰ بلادك واخترناك علىٰ من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك . . »[1]. ثم طلب النجاشي من جعفر أن يقرأ عليه بعض ما أنزل علىٰ محمد ﷺ، فقرأ عليه جعفر صدرًا من سورة مريم، فلما وقف النجاشي علىٰ معانيها قال: «إن هذا والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة» وأبىٰ أن يرد المهاجرين إلىٰ قريش، فقال عمرو بن العاص لرفيقه عبد الله بن أبي ربيعة بعد أن خرجا من عند النجاشي خائبين: «والله لآتينه غدًا بما أستأصل به خضراءهم»[2] . . والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ بن مريم عبد،

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٥٩.

(٢) يقال: أباد الله خضراءهم: أصلهم الذي منه تفرعوا، أو خصبهم وسعتهم ونعيمهم، والخضراء سواد القوم ومعظمهم. وفي حديث الفتح: «أبيدت خضراء قريش». انظر المعجم الوسيط: مادة «خضراء» ج١، ص ٢٤٩.

ثم جاءه في الغد فقال له: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ بن مريم قولًا عظيمًا» فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن هذا القول، فأجابه جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول» فأخذ النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: «والله ما عدا عيسىٰ بن مريم ما قلت هذا العود»[1].

هذا هو موقف النجاشي إزاء من هاجر إلىٰ أرضه من المسلمين كما تجمع عليه مصادرنا. وفي هذا الجو الآمن طالت إقامة بعض المسلمين إلىٰ أربعة عشر عامًا تقريبًا، ومن هؤلاء جعفر بن أبي طالب، وخالد بن سعيد بن العاص، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس وغيرهم، في حين آثر بعضهم العودة إلىٰ مكة قبل هجرة الرسول ﷺ منها إلىٰ المدينة عندما رأوا الظروف مواتية لذلك، ومن هؤلاء عثمان بن عفان، وأبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعثمان ابن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وعتبة بن غزوان، وكثير غيرهم. وقد مات بعض المسلمين بأرض الحبشة ودفنوا هناك، ومن هؤلاء عمرو بن أمية بن الحارث ابن أسد ابن عبد العزىٰ، وعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي، والمطلب وطليب ابنا أزهر ابن عبد عوف[2]. وتجدر الإشارة إلىٰ أن بعض الأحباش اعتنقوا الإسلام علىٰ أيدي هؤلاء المهاجرين، وهذا واضح من قول البلاذري عند حديثه عن عودة جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة: «قدم منها هو وجماعة أقاموا معه من المسلمين وجماعة أسلموا من الحبش، وقد فتح رسول الله ﷺ خيبر»[3]، أي في العام السابع من الهجرة.

إن هجرة الحبشة -بكل ما أحاط بها من ملابسات وما ترتب عليها من ردود فعل- لتوضح المدىٰ الذي وصل إليه مشركو قريش في محاولاتهم اليائسة من أجل القضاء علىٰ الدعوة الإسلامية وملاحقة أنصارها حيث وُجدوا. ولكن دعوة الحق كانت تمضي في ثبات، وكان يمضي في خط موازٍ لها كيد المشركين وعنادهم. وقد كان

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) انظر التفاصيل في: أنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ١٩٨-٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص ١٩٨.

أمام القرشيين في تلك المرحلة كثير من أساليب المكر التي لم يجربوها، وكلما فشل أسلوب لجؤوا إلىٰ سواه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب وتأثير ذلك في مسار الدعوة:

يتفق مؤرخونا علىٰ أن حمزة بن عبد المطلب (وهو عم الرسول ﷺ) كان أسبق إسلامًا من عمر بن الخطاب، ويتفقون كذلك علىٰ أن المسلمين عزُّوا وامتنعوا بإسلام حمزة وعمر، ومع ذلك لا نجد اتفاقًا في مصادرنا علىٰ التاريخ الذي أسلم فيه حمزة علىٰ وجه التحديد. ونحن نتردد كثيرًا في قبول ما يرويه ابن الأثير من أنه أسلم في العام الثاني للبعثة[(١)]. فالواضح من السياق الذي يتناول فيه المؤرخون -ومن بينهم ابن الأثير- إسلام حمزة أنه أسلم بعد دخول الدعوة الإسلامية في مرحلة الجهر، والمعروف أن الدعوة ظلت ثلاث سنين في طي الكتمان، والواضح أيضًا من السياق نفسه أنه أسلم بعد أن بدأ المشركون يوجهون أذاهم المباشر إلىٰ الرسول ﷺ، وهذا لم يحدث إلا بعد أن حاولوا حَمْل عمه أبي طالب علىٰ منعه من الاستمرار في دعوته. ثم إنهم عندما فشلوا في ذلك لم يوجهوا أذاهم إلىٰ الرسول ﷺ مباشرة بل إلىٰ المستضعفين من أصحابه، ثم إلىٰ الذين أسلموا من عشائر قريش. وربما جاز لنا أن نستنتج في ضوء ذلك أن إسلام حمزة تأخر إلىٰ العام الخامس للبعثة، ويقال إنه أسلم قبل عمر بثلاثة أيام، أي في العام السادس للبعثة[(٢)]، كما سيأتي.

يروي المؤرخون في سياق حديثهم عن إسلام حمزة أن أبا جهل (وهو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي)[(٣)] مر برسول الله ﷺ وهو جالس عند الصفا «فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره» فلم يرد عليه رسول الله ﷺ. وقد شهدت هذا الموقف مولاة لعبد الله بن جُدعان فأخبرت حمزة بذلك وهو علىٰ شركه، فاحتمله الغضب وكان راجعًا من رحلة صيد له، فلم يطف بالكعبة كعادته، بل انطلق يبحث عن أبي جهل، فوجده جالسًا في الكعبة بين جمع من

---

(١) أسْد الغابة، ج ٢، ص ١٥.

(٢) انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٢٣، ١٢٥، وأبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء، ج ١، ص ٤٠.

(٣) أبو جهل هي الكنية التي أطلقها الرسول ﷺ علىٰ عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان يكنىٰ قبل ذلك: «أبا الحكم». انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٢٥.

قريش، فأقبل نحوه ورفع قوسه فضربه ضربة شجت رأسه شجة منكرة، وقال: أتشتمه؟ فأنا علىٰ دينه أقول ما يقول، فردّ ذلك عليّ إن استطعت! وكان حمزة أعز قريش وأشدها شكيمة، ولما قام رجال من بني مخزوم إلىٰ حمزة لينصروا أبا جهل قال أبو جهل: «دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا»[1]. هكذا دخل حمزة في الإسلام منذ ذلك الوقت، «وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه»[2].

ثم جاء إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة ليزيد الإسلام عزًّا ومَنَعَة. والمعروف أن عمر كان قبل إسلامه غليظًا قاسيًا يلقىٰ المسلمون منه أذىٰ وشدة، وكان المسلمون يستبعدون إسلامه لما يرون من قسوته حتىٰ إن بعضهم قال: «لا يسلم عمر حتىٰ يسلم حمار الخطاب!»[3] والرواية التي تقدمها معظم مصادرنا حول الملابسات التي أحاطت بإسلام عمر تتلخص في أن هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة كانت مصدر إيلام لبعض ذويهم من غير المسلمين، وكان عمر يرىٰ أن الدين الجديد هو سبب تفريق أمر قريش، ومن هنا صمم علىٰ أن يقتل محمدًا بصفته -في نظره- مسؤولًا عن ذلك، وهكذا خرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ، فلقيه نُعَيم بن عبد الله النَّحام[4] -وهو رجل من بني عدي كان مسلمًا يكتم إسلامه- فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله! فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أترىٰ بني عبد مناف تاركيك تمشي علىٰ الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلىٰ أهل بيتك فتقيم أمرهم؟! وكانت أخت عمر فاطمة بنت الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد أسلما وأخفيا إسلامهما عن عمر خوفًا من بطشه، فأخبره نعيم

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١٢-٣١٣. وأبو عُمارة كنية حمزة.

(٢) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص ٣١٣، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٦٥، والكامل لابن الأثير، ج٢، ص٨٤، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، ج١، ص٧٥، وقائل هذه العبارة هو عامر بن ربيعة بن مالك، أحد أصحاب الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة.

(٤) نُعيم بن عبد الله بن أسيد بن عبد عوف، عُرف بالنَّحام؛ لأن الرسول ﷺ قال: «دخلت الجنة فسمعت نَحْمةً من نُعيم فيها»، والنَّحمة: السعلة. محمد بن سعد: الطبقات الكبرىٰ، ج ٤، ص ١٣٨. وابن الأثير: أسد الغابة، ج ٥، ص ٣٤٦.

بذلك، فذهب إليهما، وكان عندهما خَبّاب بن الأرتّ يقرئهما القرآن من صحيفة كانت معه، فلما أحسوا بقدوم عمر استتر خباب وأخفت فاطمة الصحيفة، وكان عمر قد سمع قراءة القرآن عندما اقترب من بيت أخته، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمة[1] التي سمعتُ؟ فلم يجيباه إجابة شافية. فأخبرهما بما علم من إسلامهما، ثم بطش بِخَتَنِه سعيد بن زيد، فحاولت أخته أن تدافع عن زوجها فضربها فأسال دمها، فلما رأىٰ عمر ما بأخته من الدم رقَّ لها وندم علىٰ ما صنع وطلب منها أن تعطيه الصحيفة، وكان بها سورة «طه»، فقالت له: إنا نخشاك عليها، فحلف لها بآلهته ليردَّنَّها إليها إذا قرأها، فطلبت منه أخته أن يغتسل قبل أن تعطيه الصحيفة، فاغتسل فأعطتها له.

فلما قرأ قدرًا مما فيها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! وكان خباب في مكمنه يسمع هذا الحوار، وعندما لمس تأثر عمر بالقرآن طمع في إسلامه، فخرج عليه وقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب». فالله الله يا عمر! فقال عمر: فدلني يا خباب علىٰ محمد حتىٰ آتيه فأسلم، فقال له: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه. فذهب عمر إلىٰ هناك متوشّحًا سيفه، فلما طرق الباب وهمَّ أحد المسلمين أن يفتح له رآه من خَلَل الباب، فرجع إلىٰ الرسول ﷺ فزعًا وهو يقول: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا سيفه! وكان حمزة بين الحاضرين، فاقترح علىٰ الرسول ﷺ أن يأذن له، وقال في ذلك: إن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه، فأذن له الرسول. فلما دخل عمر أخذ الرسول ﷺ بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال له: **«ما جاء بك يا ابن الخطاب؟! فوالله ما أرىٰ أن تنتهي حتىٰ ينزل الله بك قارعة»!** فقال عمر: يا رسول الله، جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله. فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أصحابه في البيت أن عمر قد أسلم[2].

وهناك رواية أخرىٰ في إسلام عمر مؤداها أنه بينما كان عند الكعبة يريد الطواف إذا

---

(١) الهَيْنَمَة: كلام لا يُفهم أو صوت لا يُسمع، وفعله هَيْنم، واسم الفاعل منه مُهَيْنِم.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٦٥-٣٦٨، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ٧٧-٧٨. والكامل لابن الأثير، ج ٢. ص ٨٤-٨٦، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، ج ١ ص ٧٥-٧٧.

برسول الله ﷺ قائم يصلي ويقرأ القرآن، فرقَّ قلب عمر تأثرًا بما سمع من القرآن، وبكىٰ، وأصبحت نفسه مهيأة للدخول في الإسلام، فلما قضىٰ الرسول ﷺ صلاته وفرغ من تلاوته انصرف إلىٰ بيته، فانصرف وراءه عمر حتىٰ أدركه، ثم أقرَّ أمامه بالإسلام، فانطلق لسان الرسول ﷺ بحمد الله، ثم قال له: «**قد هداك الله يا عمر**»! ومسح صدره ودعا له بالثبات[1].

ومهما تكن الرواية الصحيحة حول الملابسات التي أحاطت بإسلام عمر، فإن ما نطمئن إليه أن إسلامه لم يكن قرارًا عفويًا جاء وليد اللحظة، بل كان مسبوقًا بتدبر عميق وصراع داخلي حاد. ومثل عمر لا يتخذ القرارات الارتجالية، وقد كان إسلامه راسخًا رسوخ الجبل، ولا يتأتىٰ ذلك عن طريق قرار سريع خاطف. لقد أعطىٰ عمر للإسلام نفسه، فعزَّ بالإسلام وعزَّ به الإسلام. ومما يروىٰ عن عبد الله بن مسعود في هذا الصدد قوله: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتىٰ أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشًا حتىٰ صلىٰ عند الكعبة وصلينا معه».

ونختم حديثنا عن إسلام عمر بمحاولة تحديد التاريخ الذي أسلم فيه، والملاحظ أن العديد من مصادرنا تذكر أن المسلمين اكتملوا أربعين بانضمام عمر إليهم[2]، وبعضها يرفع هذا العديد قليلًا[3]. ولكننا نشكك كثيرًا في ذلك، فقد اكتمل المسلمون أربعين والدعوة في مرحلة الكتمان. وقد بلغ عدد مهاجري الحبشة في المرة الثانية أكثر من سبعين، وربما جاز لنا أن نقبل ذلك لو كان المقصود به المسلمين المتبقين في مكة بعد هجرة من هاجر منهم إلىٰ الحبشة[4]، وفي ضوء ذلك نطمئن إلىٰ التاريخ الذي تقدمه بعض مصادرنا لإسلام عمر وهو العام السادس للبعثة[5].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧٠.

(٢) انظر علىٰ سبيل المثال: ابن قتيبة: المعارف، ص ١٨٠، وابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٨٤، وأسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٦، وأبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء، ج ١، ص ٤١.

(٣) السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ١٢٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧٧.

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٤، ص ١٥١، ويزيد السيوطي الأمر تحديدًا حين يذكر أنه أسلم «في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة». تاريخ الخلفاء، ص ١٢٥.

اتجاه قريش في مقاومة الدعوة بعد هجرة الحبشة:

ارتبط بهجرة المسلمين إلىٰ الحبشة إسلام عمر بن الخطاب كما رأينا، وكان إسلام حمزة قبله بوقت غير طويل كما سبقت الإشارة، وقد ذكرنا أن المسلمين عزُّوا وامتنعوا بإسلام حمزة وعمر، وأن المشركين كفوا عن بعض ما كانوا ينالون من محمد ﷺ، وهذا ما تردده معظم مصادرنا. ولكننا نجد في هذه المصادر نفسها ما يشير إلىٰ أن قريشًا لم تكفَ أذاها عن الرسول ﷺ وأصحابه بعد هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر. بل إن عمر نفسه ناله نصيب من هذا الأذىٰ، ذلك أنه ذهب يتحدىٰ قريشًا بعد إسلامه ويعلن علىٰ الملأ أنه قد أسلم. وعندما سمعوا ذلك «ثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتىٰ قامت الشمس علىٰ رؤوسهم»[(١)]. وقد أجاره خاله أبو جهل بن هشام[(٢)] فردّ عمر عليه جواره. يقول عمر: «فما زلت أُضرَب وأضرِب حتىٰ أعز الله الإسلام»[(٣)].

إن ما يبدو أكثر قبولًا هو أن قريشًا لم تتوقف عن إيذاء الرسول ﷺ وإيذاء المسلمين بعد هجرة الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر، بل عدَّلت أساليبها في الإيذاء ومقاومة الدعوة وطورتها حتىٰ تتناسب مع المتغيِّرات الجديدة. والحق أن هجرة الحبشة وما ارتبط بها من إسلام عمر وحمزة قبله تعد نقطة تحول أساسية في تاريخ الدعوة الإسلامية في مكة وموقف المشركين منها. فقد كانت قريش حتىٰ ذلك الوقت تنظر إلىٰ الإسلام نظرة فيها قدر كبير من الاستخفاف والاستهانة؛ فهذا الدين الجديد لم يكن في رأيها إلا بدعة روَّج لها مدَّعٍ يحب الظهور، ومن السهل القضاء عليها بأساليب المقاومة العادية البسيطة؛ ولهذا رأينا مقاومة قريش للدعوة تنحصر في البداية في عدم الإصغاء للرسول ﷺ وعدم أخذ دعوته مأخذ الجد، ثم اتخذت المقاومة شكلًا آخر وهو محاولة إغراء أبي طالب بالتخلي عن نصرة ابن أخيه حتىٰ لا تجد دعوته من

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧٠.

(٢) تذكر بعض مصادرنا أن أم عمر هي حنتَمة بنت هشام بن المغيرة أخت أبي جهل. انظر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧١، ومروج الذهب للمسعودي، ج ٢، ص ٣١٣. وتذكر مصادر أخرىٰ أن حنتمة هي بنت هاشم بن المغيرة المخزومي فهي بنت عم أبي جهل. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٤٤، وابن الأثير: أسد الغابة ج ٤، ص ١٥١. وأهل الأم كلهم أخوال، كما يقول ابن الأثير.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٩.

يساندها فتنتهي إلىٰ زوال، وأخيرًا اتجهت قريش في مقاومتها للدعوة إلىٰ أتباع رسول الله ﷺ تصب عليهم سوط عذاب، وتذيقهم صنوف الأذىٰ والهوان حتىٰ تصرفهم عن دعوته فيطويها النسيان.

ولكن الدعوة مضت في طريقها واثقة تكتسب مزيدًا من الأنصار، ووجد هؤلاء الأنصار ملاذًا آمنًا في كنف نجاشي الحبشة واكتسب الإسلام أتباعًا في قامة حمزة وعمر. وهنا سُقِط في أيدي قريش وأدركت أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن هذه الدعوة التي استخفُّوا بها أخطر كثيرًا مما يظنون، ومن هنا لم يجدوا بُدًّا من أن يعيدوا تقييم الموقف كله وأن يعدِّلوا أساليب مقاومتهم للدعوة في ضوء هذا التقييم. ولهذا نعيد ما سبق أن ذكرناه منذ قليل من أن هجرة الحبشة تعد خطًّا فاصلًا في تاريخ مقاومة مشركي قريش للدعوة الإسلامية.

وقد ارتكزت مقاومة قريش للدعوة بعد هجرة الحبشة علىٰ محورين: أما أولهما فهو إنزال الأذىٰ المباشر بالرسول ﷺ، وأما الثاني فهو ملاحقة كل من يسانده من بني هاشم وبني المطلب.

أ- إنزال الأذىٰ المباشر بالرسول ﷺ:

كانت قريش قبل هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة ترعىٰ مكانة أبي طالب وحقوقه عليها فلا تبسط يدها بالسوء إلىٰ محمد ﷺ لما تعلمه من حماية عمه له. أما بعد هجرة الحبشة فقد أسقطت قريش هذا الاعتبار من حسبانها، فوجهت أذاها المباشر إلىٰ الرسول ﷺ. بل إن أبا طالب نفسه امتدت إليه بعض آثار هذا الأذىٰ كما سوف نرىٰ.

وقد رأت قريش أن تتدرج في إيذائها للرسول ﷺ، فسلطت عليه في البداية ألوانًا من الأذىٰ النفسي، فرمته بالسحر والكهانة والجنون وأنه شاعر، وقد أرادت من وراء ذلك أن تقضي علىٰ مصداقية دعوته وأن تصرف الناس عما يقول، ولكن الرسول ﷺ لم يعرف عنه شيء من هذه الصفات التي رموه بها، فلم يتسبب ذلك بالتالي في صرف الناس عن دعوته. وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلىٰ هذه الافتراءات التي حاول المشركون إلصاقها بالرسول ﷺ، وكان يحثه دائمًا علىٰ أن يمضي قدمًا في طريق دعوته وأن يصبر علىٰ ما يقولون. فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي

مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٢٩-٣١]. وأيضًا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥].

وعندما لم تُجْدِ هذه الأساليب في الحد من انتشار دعوة الإسلام بدأت قريش تبسط لسانها في الرسول ﷺ بالسب المباشر القبيح، كما بدأت تناله بالأذىٰ البدني. ومما يروىٰ في هذا السياق أن الرسول ﷺ مر يومًا علىٰ مشركي قريش عند الكعبة فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟! لما يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول: نعم، أنا الذي أقول ذلك. فتقدم إليه عقبة بن أبي مُعَيْط[1] فلوىٰ ثوبه في عنقه وخنقه خنقًا شديدًا، فقام أبو بكر من خلفه، فوضع يده علىٰ منكبه، فدفعه عن الرسول ﷺ وهو يقول: «يا قوم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله»[2]. وقد كان عقبة من أشهر من عُرفوا بين القرشيين بإيذاء النبي ﷺ، وقد قال فيه ﷺ: «**إنه وطئ علىٰ عنقي وأنا ساجد، فما رفع حتىٰ ظننت أن عينيَّ قد سقطتا**»[3].

ومن بين من اشتهروا كذلك بإيذاء الرسول ﷺ في هذه المرحلة: أبو جهل وأبو لهب، وأمية بن خلف، وأخوه أبيّ بن خلف[4].

أما أبو جهل فقد كان يكنى أبا الحكم فكناه الرسول ﷺ أبا جهل لفرط فجوره، وقال: «من قال لأبي جهل أبا الحكم فقد أخطأ خطيئة يستغفر الله منها»[5]. وكان أبو لهب (ومعه عقبة بن أبي معيط) من بين جيران رسول الله ﷺ فقال ﷺ في ذلك: «كنت بين شر جارين: بين أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط»[6]. وأما أمية وأبيّ ابنا خلف «فكانا علىٰ شر ما يكون عليه أحد من أذىٰ النبي ﷺ وتكذيبه» كما يصفهما البلاذري[7].

---

(١) هو عقبة بن أبي مُعَيْط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص١١٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٤٨.

(٤) أمية وأبيّ هما ابنا خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

والحق أن الأذىٰ الذي لقيه رسول الله ﷺ من هؤلاء ومن غيرهم من وجوه قريش في المرحلة التي نتناولها الآن لم يزده إلا تمسكًا بدعوته وإصرارًا علىٰ حمل أمانة تبليغها.

ب- حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب:

ربما كانت هذه الخطوة من أكثر الخطوات التي اتخذتها قريش ضد دعوة الإسلام تطرفًا وغرابة وقسوة. ووجه التطرف والغرابة فيها أنها لم تكن موجهة ضد رسول الله ﷺ فقط بل ضد غير المسلمين أيضًا من عشيرة الرسول ﷺ من بني هاشم وأشياعهم من بني المطلب، وعلىٰ رأس هؤلاء جميعًا أبو طالب الذي وقف مع ابن أخيه منذ البداية يناصره بكل ما أوتي من حول وقوة.

أما وجه القسوة في هذه الخطوة فهو أنها فَرَضَتْ علىٰ مَنْ وُجِّهَتْ ضدهم نوعًا من الحصار الاقتصادي والاجتماعي كان يهدف إلىٰ القضاء عليهم ماديًّا ومعنويًّا بتجويعهم وعزلهم فيسهل علىٰ قريش حينذاك أن تملي عليهم شروطها أو تتركهم لمصيرهم. وقد حدث هذا الحصار في السنة السادسة من البعثة بعد هجرة الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر؛ وتَمَّ بناءً علىٰ صحيفة كتبتها قريش ووثَّقتها بثمانين خاتمًا، كما يقول اليعقوبي[(١)]، وعلقتها في جوف الكعبة. أما ما تعاقدت عليه قريش في هذه الصحيفة فهو ألا يزوجوا أحدًا من بني هاشم وبني المطلب ولا يتزوجوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم. وقد وقفت بنو هاشم وبنو المطلب -مسلمهم وكافرهم- في هذه المحنة صفًّا واحدًا مع رسول الله ﷺ.

أما المسلم فقد انبعث موقفه من إسلامه ودينه، وأما الكافر فقد فعل ذلك «حمية أن يضام وقومه»[(٢)]. لكن أبا لهب بن عبد المطلب خرج من بني هاشم وانضم إلىٰ قريش في حصارهم لقومه[(٣)]. يقول اليعقوبي في حديثه عن حصار الشِّعب: «ثم حصرت قريش رسول الله ﷺ وأهل بيته في الشِّعب الذي يقال له شعب بني هاشم[(٤)]، بعد

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٠.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧٢.

(٤) ويعرف أيضًا بـ «شِعب أبي طالب». انظر أنساب الأشراف، ج ١ ص ٢٣٠، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٦.

ست سنين من مبعثه، فأقام ومعه جميع بني هاشم وبني عبد المطلب في الشعب ثلاث سنين حتىٰ أنفق رسول الله ﷺ ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها، وصاروا إلىٰ حد الضر والفاقة»[1].

وقد استغلت قريش هذا الموقف الدقيق الذي كان يمر به رسول الله ﷺ والذين معه، فبدأت تلجأ إلىٰ أسلوب المساومة معهم لعلَّها تظفر منهم بما عجزت عنه قبل ذلك. فيروىٰ أن سادتها عرضوا علىٰ رسول الله ﷺ أن يعطوه مالًا فيكون أغنىٰ رجل بمكة، وأن يزوجوه من أراد من النساء مقابل أن يكفَّ عن شتم آلهتهم. فلما لم يجبهم الرسول ﷺ إلىٰ هذا عرضوا عليه أن يعبد اللات والعُزَّىٰ سنة ويعبدوا إلهه سنة![2] فنزل في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢]. وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٤]. وحاول القرشيون أيضًا أن يؤثروا في أبي طالب مستغلين هذه الظروف، فقد جاءوه وقالوا له: «قد آن يا أبا طالب أن تذكر العهد وأن تشتاق إلىٰ قومك وتدع اللجاج في ابن أخيك!»[3]. ولكن أبا طالب كان علىٰ موقفه السابق الذي لا يلين.

وقد استمر بنو هاشم وبنو المطلب يعانون من وطأة هذا الحصار ثلاث سنين[4]، وصل الأمر بمشركي قريش خلالها إلىٰ حد أنهم قطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا طعامًا يقدم مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه[5]، ثم أحس بعض رجال من قريش بمدىٰ الجُرْم الذي يرتكبونه ضد بني عمومتهم فسعوا إلىٰ نقض هذه الصحيفة الظالمة دون أن يبالوا باعتراض المعترضين وعلىٰ رأسهم أبو جهل. وكان أول من سعىٰ إلىٰ تكوين جبهة مقاومة قرشية لهذه الصحيفة هو هشام بن عمرو بن ربيعة (من بني عامر بن لؤي). وقد نجح هشام في إقناع أربعة من وجهاء قريش بوجهة نظره؛ وهؤلاء هم: زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، والمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البَخْتَرَىٰ العاص بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزىٰ، وزمعة بن الأسود

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١-٣٢.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٨٢.

ابن المطلب بن أسد بن عبد العُزَّىٰ[1]. وهكذا اتفق هؤلاء الخمسة علىٰ رفع الصحيفة من جوف الكعبة وتمزيقها، وعندما توجهوا لتنفيذ قرارهم وقف دونهم أبو جهل معترضًا ففاجأه إجماعهم علىٰ هذا الأمر وإصرارهم عليه، فقال: «هذا أمر قُضي بليل، وتُشوورِ فيه بغير هذا المكان»! ثم تقدم المطعم بن عدي إلىٰ الصحيفة ليمزقها فوجد الأرضةَ قد أكلتها إلا عبارة: «باسمك اللهم»، وهي التي كانت قريش تفتتح بها ما تكتب[2]، وبذلك انتهىٰ هذا الحصار الأثيم الذي كان قمة ما انتهت إليه قريش في مقاومة الإسلام وأنصاره، وخرج منه المسلمون كما دخلوا فيه، مستمسكين بدعوة الدين الجديد، ملتفين حول الداعي إليه.

وهناك عدد من الملاحظات الأساسية التي نختم بها حديثنا عن حصار شعب بني هاشم.

الملاحظة الأولىٰ: أن الذي دفع قريشًا إلىٰ فرض هذه المقاطعة الظالمة هو ما أظهره الرسول ﷺ من عزيمة وإصرار علىٰ مواصلة دعوته رغم كل صور التحدي، وما كانت تحققه تلك الدعوة من نجاح وانتشار مطرد. ولا شك أن هجرة الحبشة أزعجت قريشًا وجعلتها تحس أن الأمور في طريقها إلىٰ الخروج عن نطاق السيطرة وأنه لا بد من اتخاذ قرار سريع وحاسم لمواجهة هذا الموقف المتردي. ومما يقوله ابن هشام في ذلك: «فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع مَنْ لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة ابن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا . .»[3].

الملاحظة الثانية: أن أبا طالب كان هو الذي أخذ قرار اللجوء إلىٰ الشعب عندما أدرك أن قريشًا بيَّتت النية لقتل رسول الله ﷺ[4]، وقد كان يهدف من هذا القرار إلىٰ توفير الحماية الكافية للرسول ﷺ عن طريق إحاطة أهله وعشيرته به، وعندما رأىٰ

---

(١) أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٢.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٨٢.

مشركو قريش ذلك اتخذوا قرار المقاطعة الذي كان يرمي إلىٰ القضاء علىٰ محمد ﷺ وعلىٰ كل من يقف بجانبه.

والملاحظة الثالثة: أن الرسول ﷺ خلال هذا الحصار الطويل ما وهن عزمه ولا نكص عن حَمْل أمانة الدعوة بكل ما أوتي من قوة وما أتيح أمامه من وسيلة، وهذا ما يجمع عليه علماء السيرة في سياق حديثهم عن حصار الشعب. فمما يقولونه في هذا الصدد: «ورسول الله ﷺ علىٰ ذلك يدعو قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، مباديًا بأمر الله، لا يتقي فيه أحدًا من الناس»[1].

وعندما انتهىٰ حصار الشعب بدأت الدعوة الإسلامية تدخل مرحلتها الأخيرة في مكة.

وفاة أبي طالب وخديجة:

توفي كل من أبي طالب عم الرسول ﷺ، وخديجة زوجته، في عام واحد، وكان ذلك قبل الهجرة إلىٰ المدينة بثلاث سنين، أي في العام العاشر من البعثة[2]، وتختلف الروايات في ترتيب وفاتهما وفي التاريخ الدقيق لذلك، ولكن المشهور أن أبا طالب توفي قبل خديجة[3]، ولا حاجة بنا إلىٰ أن نتحدث كثيرًا عن مدىٰ التصاق هذين بالرسول ﷺ وقربهما من نفسه ووقوفهما بجانبه، فلا عجب أن تترك وفاتهما في نفسه ألمًا عميقًا، ومما يروىٰ في ذلك أن الرسول ﷺ عندما علم بوفاة عمه أبي طالب «عَظُم ذلك في قلبه واشتد جزعه، ثم دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرات، وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثم قال: يا عم! ربيتَ صغيرًا، وكفلتَ يَتيمًا، ونصرتَ كبيرًا، فجزاك الله عني خيرًا! ومشىٰ بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول: وصلتك رحم، وجزيتَ خيرًا»![4] وكان أبو طالب حين توفي قد نيَّف علىٰ الثمانين.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص٣٧٦، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٦، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص٨٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٦، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٥-٢٦.

(٣) راجع: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم، ج ١، ص ٢١٥، حيث يذكر أن أبا طالب توفي قبل خديجة بثلاثة أيام. وانظر أيضًا: ابن الأثير: أسْد الغابة، ج ٧، ص ٨٥، وابن كثير: البداية والنهاية ج٣، ص ١٢٠. وتذكر بعض المصادر أن خديجة توفيت قبل أبي طالب. انظر علىٰ سبيل المثال: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٧، وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص٣٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

أما خديجة ﷺ فقد كانت عونًا صادقًا للرسول ﷺ في كل مراحل حياته منذ زواجه منها حتىٰ وفاتها، وقد دخل عليها وهي تجود بنفسها فقال: «بالكُرْه مني ما أرىٰ، ولعل الله أن يجعل في الكره خيرًا كثيرًا». ثم عبر عن مدىٰ تأثره بوفاة أبي طالب وخديجة في زمان متقارب فقال: «اجتمعت علىٰ هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعًا»، يعني وفاة أبي طالب وخديجة[1]. ويروىٰ أنه ذكر خديجة يومًا أمام عائشة فقالت: «ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، قد أبْدَلَكَ الله خيرًا منها»![2]، فغضب الرسول ﷺ من كلام عائشة «حتىٰ اهتزّ مقدَّم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادًا إذ حرمني أولاد النساء»[3]. وقد توفيت خديجة عن خمس وستين سنة.

ليس عجيبًا إذن -وهذه هي مكانة أبي طالب وخديجة من نفس الرسول ﷺ- أن يطلق علىٰ العام الذي ماتا فيه «عام الحزن»[4]. وليس عجبًا كذلك أن تزداد جرأة المشركين عليه بعد أن فقد هذين النصيرين، وخاصة عمه أبا طالب الذي كان يدفع عنه كثيرًا من طيشهم. ومما يروىٰ في هذا السياق أن سفيهًا من سفهاء قريش نثر التراب علىٰ رأسه ﷺ فدخل بيته والتراب علىٰ رأسه، فقامت إليه إحدىٰ بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي والرسول ﷺ يقول لها: «**لا تبكي يا بنية، فإن الله مانعٌ أباك**»[5].

ما هي التطورات التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتىٰ الهجرة إلىٰ المدينة؟

هذا هو موضوع الفصل التالي . .

---

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٤٨ ، ٤٩.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٧، ص٨٥.

(٤) محمد الخضري: نور اليقين، ص٤٩.

(٥) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦.

الفصل الخامس
تطور الدعوة في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة

تُعد السنوات الثلاث التي تلت وفاة أبي طالب وخديجة من أكثر الفترات حسمًا في تاريخ الدعوة الإسلامية بمكة، وقد تُوِّجت هذه السنوات الثلاث بهجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلىٰ المدينة.

وأهم الأحداث التي سندير حولها حديثنا في هذا الفصل هي علىٰ الترتيب التالي:

١- رحلة الرسول ﷺ إلىٰ الطائف.

٢- الإسراء والمعراج.

٣- بيعتا العقبة.

١- رحلة الرسول ﷺ إلىٰ الطائف:

بوفاة أبي طالب فقد الرسول ﷺ أكبر نصير له بين بني هاشم. وازدادت قريش عليه جرأة وبه مكرًا. وقد حل أبو لهب محل أخيه أبي طالب في زعامة بني هاشم[1] فلم يجد فيه الرسول ﷺ إلا مزيدًا من المكر به والكيد له والتحريض عليه. ولكن الدعوة لا بد أن تمضي في طريقها رغم كل العقبات، تنفيذًا لأمر الله بتبليغ رسالته. ومن هنا فكر الرسول ﷺ في ارتياد ميدان جديد من ميادين الدعوة لعله يجد فيه آذانًا صاغية، فذهب إلىٰ مدينة الطائف يعرض علىٰ أهلها من ثقيف دعوة الإسلام. والواضح أن

(1) M.Watt, Muhammed, Prophet and Stateman, P. 79.

الرسول ﷺ كان يراوده الأمل في أن تجد الدعوة الإسلامية ملاذًا آمنًا في الطائف، تلك المدينة الحصينة التي يُعْرَفُ أهلها بالبأس وقوة الشكيمة، فخرج إليها لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشر من البعثة[1]، وكان بصحبته مولاه زيد بن حارثة. فلما انتهىٰ إلىٰ الطائف التقىٰ بثلاثة من أشراف ثقيف وهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير وأخواه مسعود وحبيب، فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه، فأعرضوا عنه وسخروا منه، بل إن واحدًا منهم قال له: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟! ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرجمونه ويصيحون به[2]. وكان من بين ما قاله سادة ثقيف في ردهم عليه: «كرهك أهل بلدك وقومك ولم يقبلوا منك، فجئتنا، فنحن والله أشد لك إباءً، وعليك ردًّا، ومنك وحشة»![3]. وقد اضطر الرسول ﷺ إزاء مطاردة سفهاء ثقيف له أن يلجأ إلىٰ بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة محتميًا به، فجلس هناك تحت ظل كَرْمة وانصرف عنه الناس فقال يناجي ربه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهَوَاني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلىٰ مَنْ تكلني؟! إلىٰ بعيد يتجهمني، أو إلىٰ عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي! ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك. لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، لا حول ولا قوة إلا بك»[4].

وبعد هذه التجربة القاسية التي تعرض لها رسول الله ﷺ بالطائف رجع بصحبة مولاه زيد بن حارثة إلىٰ مكة «وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه». ومن هنا لم يستطع أن يدخل مكة بغير جوار. وقد التمس جوار غير واحد بها فلم يجره إلا المطعم بن عدي[5]. وقد دخل ﷺ مكة عائدًا من الطائف في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة عشر من البعثة[6].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٤٤-٣٤٥، وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٦.

(٣) أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٧.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٥) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص ٣٤٧.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٧.

هكذا توالت المحن علىٰ الرسول ﷺ؛ فقد توفي اثنان من أحب الناس إليه وأكثرهم رحمة به، وخذلته ثقيف وسخرت منه وردته ردًّا قبيحًا، كما اشتد عليه أذىٰ قومه من قريش. ولكن الرسول ﷺ -رغم هذا كله- لم ييأس من نصر الله.

٢- الإسراء والمعراج:

في تلك الظروف حدث حادث الإسراء والمعراج، ولعل الله -سبحانه- أراد به نوعًا من الدعم النفسي للرسول ﷺ في محنته، حتىٰ يستطيع أن يواصل طريق الدعوة واثقًا أن الله حافظه ومؤيده. ويختلف علماء السيرة حول التاريخ الدقيق لهذا الحادث. فبينما يرىٰ البعض أنه كان قبل وفاة أبي طالب وخديجة يرجح آخرون حدوثه بعد ذلك، وهو ما نطمئن إليه، بل إن البعض يذكر أنه كان قبل الهجرة إلىٰ المدينة بسنة أو بستة عشر شهرًا[١]. وقصة الإسراء والمعراج ذائعة مشهورة، وما يعنينا منها هنا هو ما ترتب عليها من ردود أفعال لدىٰ المشركين والمسلمين علىٰ السواء. وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ الإسراء في قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] كما أشار إلىٰ المعراج في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨][٢]. وقد فُرضت الصلوات الخمس عندئذ بهيئتها المعروفة[٣] كما سبقت الإشارة.

وعندما أذاع الرسول ﷺ حديث الإسراء والمعراج في مكة كان لذلك صدىٰ عميق في نفوس من سمعوه، سواء أكانوا مشركين أم مسلمين. أما المشركون فنحن لا نتوقع منهم سوىٰ الإنكار التام، وأنَّىٰ لهم أن يفعلوا غير ذلك وقد أنكروا رسالة الرسول ﷺ من أساسها؟! فيروي المؤرخون أنَّ أبا جهل حين سمع بحديث الإسراء والمعراج من الرسول ﷺ قال له: «أرأيت إن دعوتُ قومك لك لتخبرهم، أتخبرهم بما أخبرتني به؟

---

(١) انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢) وقد ربط البعض -كما أشرنا- بين سورة النجم وقصة الغرانيق التي ارتبطت بهجرة الحبشة، وهذا يمكن أن يُعدَّ دليلًا آخر علىٰ تهافت هذه القصة. راجع ص ٦٩-٧٢ فيما سبق.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٥.

قال: نعم. فجمع له أبو جهل قريشًا وقال للرسول ﷺ: أخبر قومك بما أخبرتني به! فقصّ عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة، وصلىٰ فيه! «فمن بين مُصفِّق ومُصَفِّر تكذيبًا له واستبعادًا لخبره»(١). وأما المسلمون فيتضح موقفهم من خلال الرواية التالية التي تحدثنا عن موقف أبي بكر، فقد ذهب إليه الناس يخبرونه أن محمدًا ﷺ يقول إنه أُسْرِيَ به إلىٰ المسجد الأقصىٰ وعُرِجَ به من هناك، فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه! فقالوا: والله إنه ليقوله! فقال: «والله إن كان قاله لقد صدق، فما يُعْجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني إن الخبر ليأتيه من السماء إلىٰ الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه»(٢). وقد لقّب الرسول ﷺ أبا بكر بالصديق منذ ذلك الوقت(٣).

ولا شك أنّ رَدَّ أبي بكر علىٰ المشركين في البداية بقوله: «إنكم تكذبون عليه» يدل علىٰ أن حديث الإسراء والمعراج كان مفاجأة للمسلمين جميعًا فضلًا عن الخاصة منهم كأبي بكر؛ ولهذا يُرْوىٰ أن بعض المسلمين ارتد عند سماعه بذلك الحديث(٤). وكان ما يستند إليه الكفار والمتشككون هو أن الإبل تسير شهرًا من مكة إلىٰ الشام ذاهبة، وشهرًا آيبة؛ فكيف يذهب محمد ويعود في ليلة واحدة؟! ومن هنا كان حديث الإسراء والمعراج اختبارًا ليقين المسلمين وتمحيصًا لإيمانهم. وإلىٰ هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٥) [الإسراء: ٦٠]. وكان راسخو الإيمان من المسلمين يعتمدون علىٰ أن الرسول ﷺ صادق مصدَّق في كل ما يقول ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ كما وصفه القرآن الكريم(٦).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١١١. وانظر أيضًا: ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٥.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه. ص٤. وانظر أيضًا: ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٥٦.

(٥) انظر حول ذلك: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٥، ولكلمة «الرؤيا» تفسيرات أخرىٰ راجعها في الكشاف للزمخشري، ج ٢، ص ٦٧٥-٦٧٦.

(٦) قد يكون من المناسب هنا أن نشير إلىٰ ما ثار من خلاف حول كيفية الإسراء والمعراج، فيرىٰ جمهور المسلمين أن الإسراء والمعراج كليهما كانا بالروح والجسد معًا. ويذهب البعض إلىٰ أن الإسراء من مكة إلىٰ بيت المقدس كان بالروح والجسد، وكان المعراج بالروح فقط. ويرىٰ آخرون أن الإسراء والمعراج كليهما =

٣- بيعتا العقبة:

الظروف التي مهدت لبيعة العقبة الأولىٰ: أشرنا منذ قليل إلىٰ أن الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة ذهب إلىٰ الطائف يلتمس نصرة ثقيف، وإلىٰ أن ثقيفًا أساءت استقباله وردته ردًّا قبيحًا، ولم يُضْعِف هذا من عزم رسول الله ﷺ علىٰ مواصلة تبليغ الدعوة لكل من استطاع أن يتصل به من العرب بل ومن البشر جميعًا، والأمر متروك بعد ذلك لإرادة هؤلاء: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فكان المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ بعد ذلك هو أن يعرض نفسه في المواسم -إذا كانت- علىٰ قبائل العرب، يدعوهم إلىٰ دين الله «ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتىٰ يبين عن الله ما بعثه به»(١). ويتضح هذا مما يرويه ربيعة بن عباد(٢) إذْ يقول: «إني لغلام شاب مع أبي بِمنَىٰ، ورسول الله ﷺ يقف علىٰ منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتىٰ أبين عن الله ما بعثني به»(٣).

ولم تكن مهمة الرسول ﷺ سهلة؛ فطالما لقي إعراضًا من هؤلاء الذين كان يدعوهم، وتكذيبًا له وسخرية منه. وكان من بين القبائل التي عرض عليها نفسه ودعوته قبيلة كندة، وكلب، وبني عامر بن صعصعة، وبني فزارة، وبني مرة، وبني

= كانا بالروح فقط، وهم يعتمدون علىٰ مفهوم كلمة «الرؤيا» التي جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠]؛ فالرؤيا منامية أو روحية، والرؤية عينية. ويروىٰ في هذا السياق عن عائشة ﵂ أنها قالت: «ما فُقِدَ جسدُ رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرىٰ بروحه»، وكان معاوية إذا سئل عن مسرىٰ رسول الله ﷺ يقول: «**كانت رؤيا من الله صادقة**». لمزيد من التفصيل انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١١٢ وما بعدها؛ وابن القيم: زاد المعاد، ج ٢، ص ٤٨-٤٩؛ والدكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٢٠٢-٢٠٩.

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٢) ربيعة بن عِبَاد (بكسر العين وتخفيف الباء)، ويروىٰ: عُباد (بضم العين وتخفيف الباء)، وقيل: عبَّاد، (بالتشديد)، هو من بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وهو مدني، أحد رواة الحديث، وقد عُمِّر طويلًا، ومات بالمدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك. انظر ترجمته في: أسد الغابة لابن الأثير، ج ٢ ص ٢١٣-٢١٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٤٨.

عبس، وبني سليم، وبني بكر بن وائل، وبني محارب، وبني حنيفة وغيرهم[1]. وقد أعرض هؤلاء جميعًا عن دعوته، وقال له رجل من بني محارب يومًا: «والله لا يؤوب بك قوم إلىٰ دارهم إلا آبوا بشرٍّ ما آب به أهل موسم»![2] ولكن لم يكن في هذه القبائل جميعًا أقبح ردًّا عليه من بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة[3].

ومما زاد المهمة تعقيدًا أمام الرسول ﷺ أن مشركي قريش كانوا يحاولون الوقوف في وجهه وصد الناس عنه وهو يُبلِّغ دعوته في المواسم. يروي ربيعة بن عباد بهذا الصدد أنه رأىٰ أبا لهب بعكاظ «وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا أيها الناس، إن هذا قد غوىٰ، فلا يُغْوِينّكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو علىٰ أثره»[4].

علىٰ أن هذا كله لم يزد الرسول ﷺ إلا إصرارًا علىٰ المضي في طريق تبليغ رسالته. وكانت آيات الوحي يتوالىٰ نزولها عليه لتشد من أزره، ضاربة له المثل بمن أرسلوا قبله فصبروا علىٰ التكذيب والأذىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ **[الأنعام: ٣٤]**.

ثم أراد الله للأنصار أن ينالوا شرف تصديقه ﷺ والإيمان به بين القبائل التي وجَّه إليها دعوته. يروي ابن كثير أن الرسول ﷺ لم يأت أحدًا من تلك القبائل إلا قال: «قوم الرجل أعلم به! أترون رجلًا يُصْلحنا وقد أفسد قومَه ولفظوه؟! وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به»[5].

فقد خرج الرسول ﷺ في أحد المواسم -وكان ذلك في العام الحادي عشر للبعثة، أي قبل الهجرة بعامين- فعرض نفسه علىٰ قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة (علىٰ مشارف مكة)[6] إذْ لقي ستة رجال من الخزرج، فدعاهم

---

(١) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص٣٤٩-٣٥٠. وانظر أيضًا: البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٢، ص ٢١٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٣٨.

(٦) العقبة المقصودة هنا هي المكان الذي كان يقع بين منىٰ ومكة، وبينها وبين مكة نحو ميلين، ومنها ترمىٰ جمرة العقبة. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥١.

إلىٰ الله ﷺ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فأجابوه وصدَّقوه وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسىٰ الله أن يجمعهم بك. وسنقدم عليهم فندعوهم إلىٰ أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزُّ منك»[(١)]. ثم انصرفوا راجعين إلىٰ بلادهم. أما هؤلاء الرجال الستة فهم: أسعد بن زُرارة (أبو أمامة)، وعوف بن الحارث بن رفاعة (وهو ابن عفراء)، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعتبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب[(٢)].

فلما قدم هؤلاء يثرب علىٰ قومهم «ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلىٰ الإسلام حتىٰ فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ»[(٣)].

فهذه هي الظروف التي مهدت لبيعة العقبة الأولىٰ.

أ- بيعة العقبة الأولىٰ وانتشار الإسلام في يثرب:

بعد مضيّ عامٍ علىٰ لقاء الرجال الستة من الخزرج بالرسول ﷺ واستجابتهم لدعوته يمَّمَ اثنا عشر رجًلًا من الأنصار شطر مكة، وذلك في العام الثاني عشر من البعثة، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة فبايعوه البيعة التي اشتهرت باسم «بيعة العقبة الأولىٰ» كما عرفت أيضًا ببيعة النساء[(٤)].

والملاحظ أن اللقاء السابق -وهو الذي تم في العام الحادي عشر من البعثة- لم تحدث فيه بيعة، وإنما ترتب عليه إسلام رجال الخزرج الستة.

كان بين الرجال الاثني عشر الذين شهدوا بيعة العقبة الأولىٰ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس. أما رجال الخزرج فهم: أسعد بن زرارة (أبو أمامة)، وعوف ومعاذ ابنا الحارث (وهما ابنا عفراء)، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٢) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص ٣٥٤-٣٥٥، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٨-٣٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٩.

(٤) سميت بيعة النساء؛ لأنها وافقت ما نزلت عليه بيعة النساء عام الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وهي التي يشير إليها قوله تعالىٰ في سورة الممتحنة آية [١٢]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٤٨.

ابن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وذَكْوان بن عبد قيس، وعُبَادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، والعباس بن عُبَادة بن نضْلة. وأما الرجلان من الأوس فهما: أبو الهيثم مالك بن التَّيهان، وعُوَيم بن ساعدة(١).

أما بنود هذه البيعة فيوضحها عبادة بن الصامت، أحد من شارك فيها، حيث يقول: «كنت فيمن حضر العقبة الأولىٰ، وكنا اثني عشر رجلًا، فبايعنا رسول الله ﷺ علىٰ بيعة النساء، وذلك قبل أن يُفترض علينا الحرب: علىٰ ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلىٰ الله ﷻ إن شاء غفر، وإن شاء عذب»(٢).

وعندما رجع أصحاب بيعة العقبة الأولىٰ إلىٰ يثرب أرسل معهم الرسول ﷺ مصعب بن عُمَير(٣) (وكان من بين من عادوا من الحبشة)، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين. وقد عُرف مصعب هناك بالمقرئ، وكانت إقامته عند أسعد بن زرارة(٤).

ازداد الإسلام انتشارًا في يثرب بعد بيعة العقبة الأولىٰ؛ وذلك بفضل حركة الدعوة التي قام بها السابقون إلىٰ الإسلام من الأنصار، ثم بفضل الجهد الذي بذله مصعب بن عمير في هذا المجال. وعلىٰ يد مصعب أسلم رجلان من الأوس كان لإسلامهما أثر كبير في نشر دين الله بين قومهما من بني عبد الأشهل، وهما سعد بن معاذ، وأسيد بن حُضَير. والجدير بالذكر أن أسيد بن حضير ذهب أولًا إلىٰ أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير ليصدهما عن الدعوة، وذلك بتوجيه من سعد بن معاذ، وعندما دخل عليهما قال لهما مؤنبًا: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة! ولكن مصعبًا كلمه بحكمة ولين وعرض عليه الإسلام عرضًا ترك في نفسه أعظم الأثر، فأعلن اعتناقه له؛ ثم أغرىٰ سعد بن معاذ أن يذهب إلىٰ أسعد ومصعب

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٥-٣٥٦، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٠-٤١.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤١. وانظر أيضًا: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٠ (مع اختلاف يسير في العبارة).

(٣) هو مصعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

(٤) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٢.

ليسمع منهما بنفسه، ففعل سعد، ولم يلبث أن أسلم علىٰ يد مصعب كما أسلم أسيد، وقد كان لإسلام سعد بن معاذ أعظم الأثر في إسلام قومه من بني عبد الأشهل، فيرویٰ أنه جمعهم بعد إسلامه وقال لهم: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتىٰ تؤمنوا بالله ورسوله! فما أمسىٰ في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة![1]

ب- بيعة العقبة الثانية:

لما وافىٰ ذو الحجة من العام الثالث عشر للبعثة -أي قبل الهجرة بثلاثة أشهر- قدم إلىٰ العقبة ثلاثة وسبعون رجلًا من مسلمي يثرب[2]، ومعهم امرأتان[3]، واجتمعوا بالشِّعب عند العقبة ينتظرون مقدم رسول الله ﷺ، حتىٰ جاء ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لم يُسْلم بعد، ولكنه أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له؛ لأنه عرف أن هناك حلفًا بينه وبين أهل يثرب بما قد يترتب علىٰ ذلك من حرب ضد قريش. ولما كان بنو هاشم قد تعاهدوا أن يمنعوا محمدًا وينصروه فلا بد أن يستوثق العباس لابن أخيه حتىٰ لا تكون كارثة يصلىٰ بنو هاشم نارها ويتخلىٰ عنهم اليثربيون[4]؛ ولهذا كان العباس أول من تكلم، فقال للمجتمعين: «إن محمدًا منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو علىٰ مثل رأينا، وهو في عز من قومه ومَنَعَةٍ في بلده، وإنه قد أبىٰ إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفوه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[5].

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٩. ويروي الطبري (ج ٢، ص ٣٦٢) أنهم كانوا سبعين رجلًا.

(٣) هما أم عُمارة، وهي نسيبة بنت كعب امرأة زيد بن عاصم؛ شهدت بيعة العقبة، وبيعة الرضوان، ويوم اليمامة، وباشرت القتال بنفسها وشاركت مع ابنها عبد الله في قتل مسيلمة؛ والأخرىٰ أم منيع، وهي أسماء بنت عمرو بن عدي، وكلتاهما من الخزرج. السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٤) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٢١٧.

(٥) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٢.

فقال أهل يثرب للعباس: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك وربك ما أحببت. فتلا رسول الله ﷺ القرآن ودعا إلىٰ الله ثم قال: أبايعكم علىٰ أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فقال البَرَاء بن معرور -وكان سيدًا في قومه من الخزرج-: «والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا (أي نساءنا)[1]؛ فبايعنا رسول الله ﷺ، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحَلْقة (أي السلاح)، ورثناها كابرًا عن كابر»[2].

ولكن أبا الهيثم مالك بن التيهان سأل رسول الله ﷺ سؤالًا لا شك أنه كان يدور بخاطر بعض الأنصار. حيث قال له: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا قاطعوها (يعني اليهود)؛ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلىٰ قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدمُ الدمُ، والهدْمُ الهدْمُ، أنا منكم وأنتم مني؛ أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»![3]

ثم طلب منهم رسول الله ﷺ أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبًا (أي أمينًا وممثلًا) فاختاروهم له. وهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهؤلاء هم نقباء الخزرج: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خُنَيس. أما نقباء الأوس فهم: أُسيْد ابن حُضَير، وسعد بن خَيثمة بن الحارث، وأبو الهيثم بن التيهان[4].

وقد قال العباس بن عبادة بن نضلة -أحد شهود هذه البيعة والبيعة السابقة- لقومه من الخزرج عند بيعة رسول الله: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه علىٰ حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن

---

(١) جاء في السهيلي: «نبايعك علىٰ أن نمنعك مما نمنع منه أُزُرنا: أراد: نساءنا؛ والعرب تكني عن المرأة بالإزار، وتكني أيضًا بالإزار عن النفس، وتجعل الثوب عبارة عن لابسه .. فقوله: مما نمنع منه أُزُرنا، يحتمل الوجهين ..» الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٠-٥١، وقوله ﷺ: «**بل الدم الدم والهدم الهدم**» أي: ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم. وكانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: «دمي دمك وهدمي هدمك، أي: ما هدمت من الدماء هدمته أنا». انظر: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٥١-٥٣، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٢٥٢.

كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلًا أسلمتموه فمن الآن فدعوه، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه: علىٰ نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه علىٰ مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه(١).

فهذه هي بيعة العقبة الثانية أو بيعة العقبة الكبرىٰ كما تسمىٰ بحق، ويطلق عليها أحيانًا «بيعة الحرب» وهي التي تمت في ذي الحجة من العام الثالث عشر للبعثة. والذي لا شك فيه أن هذه البيعة تُعَدُّ نقطة تحول كبرىٰ في تاريخ الإسلام، ولهذا يروىٰ عن كعب بن مالك -أحد شهود هذه البيعة- أنه قال: «لقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها»(٢).

بين بيعة العقبة الأولىٰ والثانية:

نلاحظ في بيعة العقبة الأولىٰ أن أصحابها بايعوا رسول الله ﷺ علىٰ ألا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوا رسول الله ﷺ في معروف. أما في بيعة العقبة الثانية فقد أضاف أصحابها إلىٰ ذلك كله بيعة رسول الله ﷺ علىٰ النصرة، أي علىٰ أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، أو مما يمنعون منه أُزُرهم كما قال البراء بن معرور، أو علىٰ حد تعبير العباس بن عبادة: «إنكم تبايعونه علىٰ حرب الأحمر والأسود من الناس»؛ فهي -إذن- بيعة علىٰ النصرة التامة لرسول الله ﷺ ولدينه؛ ومن هنا ذهب أهل يثرب بذلك اللقب الخالد في التاريخ، وهو «الأنصار»، ومن هنا أيضًا كانت هذه البيعة مقدمة حقيقية لهجرة رسول الله ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة.

ولكن قبل أن نتناول الهجرة إلىٰ المدينة لا بد أن نتوقف هنا ونتساءل:

ما الذي جعل عرب يثرب أسرع من سواهم من قبائل العرب إلىٰ الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ والوقوف بجانبه؟

يقدِّم الباحثون عدة أسباب لذلك لعل أهمها ما يأتي:

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٣-٣٦٤. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٥٥.

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٦٩-٧٠.

أولًا: ما ترتب علىٰ جوار العرب لليهود في يثرب من آثار روحية جعلت العرب هناك أكثر فهمًا وتقبلًا لحقيقة الدين السماوي الذي جاء به محمد ﷺ. وقد كان اليهود -وهم أهل كتاب- يعيبون علىٰ عرب يثرب عبادتهم للأصنام. ومع ذلك لم يعتنق عرب يثرب اليهودية لأن اليهود لم يقدموا -بسلوكهم العملي- مثالًا يحتذىٰ أمام جيرانهم كما أشرنا قبل ذلك؛ ولأن اليهودية تحولت -علىٰ يد أتباع موسىٰ- إلىٰ دين عنصري قائم علىٰ فكرة شعب الله المختار. فلما جاء الإسلام كان عرب يثرب أكثر فهمًا لأبعاده وأسرع استجابة له من غيرهم من قبائل العرب نتيجة احتكاكهم المتصل باليهود وحوارهم الدائم معهم(١).

ثانيًا: التوتر المتصل في العلاقات بين اليهود والعرب في يثرب. وقد أدىٰ هذا التوتر إلىٰ تهديد اليهود للعرب بقولهم: «إن نبيًّا الآن مبعوث قد أظل زمانه، نتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم». فعندما التقىٰ رسول الله ﷺ بمن التقىٰ بهم من عرب يثرب ودعاهم إلىٰ الإسلام قال بعضهم لبعض: «تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقُنَّكم إليه»(٢). وهكذا أسرع عرب يثرب إلىٰ اعتناق الإسلام ليكتسبوا بإسلامهم عزًّا وسلطانًا في وجه من يتحداهم من اليهود.

ثالثًا: العداء المحتدم بين عرب يثرب من الأوس والخزرج. وقد وصل هذا العداء ذروته في يوم بعاث(٣)، حيث كانت فيه ملحمة عظيمة بين هاتين القبيلتين قتل خلالها عدد من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم. وقد حدث ذلك قبل بيعة العقبة الأولىٰ بوقت قصير. ولم يمضِ زمن طويل علىٰ يوم بعاث حتىٰ التقىٰ رسول الله ﷺ بالرجال الستة من الخزرج ودعاهم إلىٰ الإسلام فأجابوه إليه، وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم. وعسىٰ الله أن يجمعهم بك. وسنقدم عليهم

---

(١) راجع: د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٣) بعاث مكان بالقرب من المدينة، علىٰ مسيرة ميلين شرقي المدينة أو إلىٰ جنوبها الشرقي علىٰ التحديد، وهو الذي شهد الحرب التي نشبت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إلىٰ المدينة ببضع سنين، وقد دارت الدائرة فيها أول الأمر علىٰ الأوس، ولكنها انتهت بهزيمة الخزرج هزيمة منكرة. وبعاث موطن قبيلة بني قريظة اليهودية. انظر بول Buhl: مادة بعاث في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية)، ج ٧، ص٣٤٣.

فندعوهم إلىٰ أمرك وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»[1]، كما سبق أن أشرنا إلىٰ ذلك في حديثنا عن الظروف التي مهدت لبيعة العقبة الأولىٰ.

فهذه هي أهم الأسباب التي أتاحت لعرب يثرب سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام. ولكن قد يضاف إلىٰ ذلك كله ما حباهم الله به من فطرة صحيحة جعلتهم يستوعبون حقيقة هذا الدين الذي لا يتصادم مع الفطرة بل يتسق معها كل الاتساق، وذلك مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) حول الظروف الخاصة التي خلقت في عرب يثرب الاستعداد للدخول في الإسلام راجع د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٢٩-١٣٠.

الفصل السادس
الهجرة إلى المدينة ونشأة الدولة الإسلامية

كان واضحًا من خلال بيعة العقبة الثانية أن «يثرب» ستكون المركز الجديد للدعوة الإسلامية، وهذا المركز الجديد للدعوة كان مختلفًا عن مركزها السابق وهو مكة من حيث إنه كان مرشحًا ليصبح معقلًا للدعوة وحصنًا لها، بخلاف مكة التي كانت حربًا علىٰ الدعوة ومصدر تهديد لمعتنقيها. ولا شك أن الرسول ﷺ منذ لقائه الأول برجال الخزرج الستة كان يراوده الأمل في أن تحتضن يثرب دعوة الإسلام. وعندما تمت بيعة العقبة الثانية تهيأت كل الظروف لتحويل هذا الأمل إلىٰ حقيقة. وقد كان كلام العباس ابن عبد المطلب في مفاوضات البيعة الثانية يتضمن إشارة واضحة إلىٰ ذلك حيث قال للأنصار: «إن محمدًا قد أبىٰ إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم». كما تضمن كلام أبي الهيثم بن التيهان هذه الإشارة نفسها عندما عبر عن مخاوفه من أن يلحق الرسول ﷺ بقومه في مكة بعد أن يظهره الله علىٰ أعدائه، فكان رد الرسول ﷺ حاسمًا: «أنا منكم وأنتم مني ..!».

ولماذا يتردد الرسول ﷺ والمسلمون في الهجرة إلىٰ يثرب فرارًا بدينهم من اضطهاد قريش وقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلىٰ الحبشة للسبب ذاته رغم بُعْد الشقة واختلاف اللسان والبيئة والدين؟ فها هي يثرب تقدم للرسول ﷺ والمسلمين ما لم تقدمه الحبشة: من لسان مشترك وبيئة واحدة، ثم فضلًا عن ذلك كله، بل وأهم من ذلك كله؛ لتقدم لهم أنصارًا وإخوة في دين الله هم مستعدون لأن يمنعوهم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأن يبذلوا دماءهم من دون ذلك.

الهجرة وموقف قريش منها:

هكذا فتح رسول الله ﷺ لأصحابه باب الهجرة إلىٰ يثرب بمجرد أن تكونت للإسلام قاعدة هناك، وقال لهم في ذلك: «**إن الله ﷻ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها**»[1]. فبدأ المسلمون ينفذون أمره دون إبطاء، «فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة»(١).

أدركت قريش خطورة الموقف بعد أن رأت مسلمي مكة يلحقون تباعًا بإخوانهم من أهل يثرب. إن هذا كان يعني لديهم أن تصبح يثرب حصنًا للإسلام بمن أسلم من أهلها وبمن انضم إليها من مسلمي مكة؛ وهذا يترتب عليه أولًا تهديد لأمن قريش بمكة، ويترتب عليه ثانيًا تهديد لتجارة قريش إلىٰ الشام؛ لأن يثرب تقع في الطريق بين مكة والشام[2]. وكان أكثر ما يُفْزِع قريشًا أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه بيثرب؛ لأنه إن فعل أصبحت للمسلمين هناك قيادة توشك أن تجتاحهم بحرب تقضي علىٰ نظامهم كله. يذكر الطبري أن قريشًا لما رأت «أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم مَنَعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع أن يلحق بهم لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قُصَيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه»[3].

وقد كان هذا أخطر اجتماع عقدته قريش في دار الندوة؛ ولهذا حضره ممثلون عن كل قبيلة من قبائل قريش. وكان علىٰ رأس الحاضرين أبو سفيان بن حرب، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة، وطعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث بن كَلَدَة، وأبو البختَرَي العاص بن هاشم، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، وأبو جهل بن هشام، ونَبِيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، «ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يُعَدّ من قريش»[4].

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٢٢١، ود. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة، ج ١، ص ١٣٢.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٠، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٢-٩٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٠-٣٧١، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٣.

وكانت القضية التي طرحها المؤتمرون للمناقشة هي:

ماذا يصنعون مع رسول الله ﷺ حتىٰ يحولوا بينه وبين الهجرة؟

وطال نقاش الحاضرين واختلفت آراؤهم. فمنهم من رأىٰ أن يُقَيَّدَ الرسول ﷺ ويُحْبسَ حتىٰ يأتيه أجله. ولكن هذا الرأي لم يلق استحسانًا؛ لأن الرسول لو قُيِّدَ وَحُبِسَ لخرج أمره من وراء الباب الذي أُغلق دونه إلىٰ أصحابه فوثبوا علىٰ قريش فانتزعوه من أيديهم وغلبوهم علىٰ أمرهم. ولهذا اقترح بعضهم حلًّا بديلًا وهو أن تقوم قريش بنفي رسول الله ﷺ من مكة، ولا يهمهم بعد ذلك أين ذهب ولا حيث وقع. ولكن هذا الرأي وجد من يعترض عليه قائلًا: «ألم تروا حُسْن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته علىٰ قلوب الرجال بما يأتي به؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتُم أن يحل علىٰ حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتىٰ يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتىٰ يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. أدِيرُوا فيه رأيًا غير هذا»[1].

وأخيرًا جاء اقتراح أبي جهل الذي لقي استحسان الجميع. قال أبو جهل: «أرىٰ أن تأخذوا من كل قبيلة شابًّا فتىٰ جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتىٰ منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمَدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل (أي الدية) فعقلناه لهم»[2] أي دفعنا لهم ديته. وهكذا تفرق القوم وهم مجمعون علىٰ رأي أبي جهل. وفي هذا نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ **[الأنفال: ٣٠]**.

كان الرسول ﷺ في تلك الفترة ينتظر إذن الله له بالهجرة إلىٰ يثرب بعد أن هاجر معظم أصحابه إلىٰ هناك. وقد أراد أبو بكر الهجرة واستأذن الرسول ﷺ في ذلك غير مرة، فكان ﷺ يقول له: «**لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبًا**»، فطمع أبو بكر أن

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧١، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٤-٩٥.

يكون صاحبه[1]. وكان علي بن أبي طالب أيضًا من بين القليلين الذين ظلوا مع الرسول ﷺ في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل إقامته بمكة.

فلما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة ذهب إلىٰ أبي بكر ليخبره بذلك؛ فقال له أبو بكر: الصحبة يا رسول الله! قال: الصحبة. تقول عائشة: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتىٰ رأيت أبا بكر يومئذ يبكي من الفرح»[2]!

ولقد اتخذ الرسول ﷺ قرار الهجرة -بعد أن أذن الله له بذلك- في الليلة نفسها التي بيتت فيها قريش قتله ﷺ، ولم تكن تعلم بقراره ذلك. وهكذا اجتمع ممثلوها وأحاطوا ببيته عندما جن الليل لينقضوا عليه ويقتلوه. وفي تلك الليلة أمر الرسول علي بن أبي طالب أن ينام في فراشه ويتشح ببردته تضليلًا للمشركين، ثم خرج في سكون الليل -وقد أخذت القومَ غشاوةٌ فلم ينتبهوا إليه- وهو يتلو قوله تعالىٰ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]. وتوجه الرسول ﷺ إلىٰ بيت أبي بكر حيث كان أبو بكر في انتظاره وقد أعد راحلتين: إحداهما له، والأخرىٰ للرسول ﷺ، وخرج الاثنان من باب صغير خلفي في بيت أبي بكر، واستأجرا رجلًا يقال له: عبد الله بن أريقط الدِّيلي (من كنانة بن خزيمة)[3] ليدلهما علىٰ الطريق. ولما كان من المتوقع أن يشتد طلب المشركين للرسول ﷺ بعد أن يكتشفوا عدم وجوده في بيته، فقد قرر الرسول ﷺ الاختفاء مع أبي بكر في غار ثور بمكة حتىٰ يخف عنه الطلب. وكانت مدة إقامته مع أبي بكر في هذا الغار ثلاثة أيام اشتد خلالها طلب المشركين له حتىٰ أحاطوا بالغار وكادوا يدخلونه لولا أن أبصروا عش حمامة علىٰ بابه فقالوا: ما في هذا الغار أحد! وانصرفوا[4]. ويقال إن قريشًا خلال هذه الأيام الثلاثة بلغ بها اجتهادها في طلب الرسول ﷺ أنها جاءت بقائِفَيْنِ يقصان الأثر، أحدهما كُرْز بن علقمة الخزاعي، فاتبعا آثار الرسول ﷺ حتىٰ انتهيا إلىٰ غار ثور، فرأىٰ كرز عليه نسج

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٧، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٦٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص٣٩.

العنكبوت، فقال: ها هنا انقطع الأثر. وعندما همَّ بعضهم بدخول الغار قال أمية بن خلف: «وما أرَبكم إذ الغار وعليه من نسْجِ العنكبوت ما عليه؟! والله إني لأرىٰ هذا النَّسْجَ من قبل أن يولد محمد»[1]! وقد قال أبو بكر للرسول ﷺ خلال هذا الموقف العصيب: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا»! فقال ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[2]! وفي ذلك نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وهناك ثلاثة قاموا بأدوار بالغة الروعة والأهمية خلال إقامة الرسول ﷺ وأبي بكر بالغار، وهم: عبد الله بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، وعامر بن فهيرة. فكانت مهمة عبد الله أن يسمع ما يقوله المشركون عنهما في أثناء النهار ثم يأتيهما بما سمع ليلًا حتىٰ يتصرفا في ضوء ذلك. وكانت مهمة أسماء أن تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يحتاجان إليه، ويروىٰ أنها جاءتهما في اليوم الثالث بسُفْرتهما -أي بطعامهما- في جراب، ولكنها لم تجد ما تعلق به هذا الجراب في رحالهما، فحلَّتْ نطاقها -وهو حزام الوسط- فشقته اثنين، فربطت الجراب وعلقته بواحد، وانتطقت بالآخر؛ فلذلك سميت «ذات النطاقين»[3]. أما عامر بن فهيرة مولىٰ أبي بكر فكانت مهمته أن يرعىٰ غنم مولاه بين أهل مكة نهارًا ثم يتبع بالغنم أثر عبد الله بن أبي بكر وأسماء في طريقهما من وإلىٰ الغار حتىٰ يعفِّي عليه فلا يجد المشركون دليلًا علىٰ مخبأ الرسول ﷺ وأبي بكر[4].

وكان الرسول ﷺ وأبو بكر قد اتفقا مع دليلهما عبد الله بن أريقط علىٰ أن يأتي غار ثور صبيحةَ اليوم الثالث من دخولهما في الغار ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبو بكر.

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢) صحيح البخاري، ج٥، ص ٤.

(٣) صحيح البخاري، ج٥، ص ٧٥، ٧٨. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٩، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٤) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٨، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٩.

وفي الساعة المتفق عليها انطلق الرسول ﷺ وأبو بكر ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولىٰ أبي بكر، وذلك بهدف خدمتهما وتقديم العون اللازم لهما في أثناء تلك الرحلة الشاقة. وقد آثر الدليل أن يسلك بهما طرقًا غير مألوفة بالقرب من ساحل البحر الأحمر(١).

وفي تلك الأثناء كانت الحيلة قد أعيت قريشًا في الاهتداء إلىٰ موضع رسول الله ﷺ. وعبثًا حاولوا قبل ذلك أن يظفرُوا من «علي» بكلمة ترشد إليه. فيروىٰ أنهم عندما سألوه: أين صاحبك؟ قال: «لا أدري؛ أوَرقيبًا كنت عليه؟! أمرتموه بالخروج فخرج!» فضربوه وحبسوه بعض الوقت ثم يئسوا منه فتركوه(٢).

وعندما استنفدت قريش وسائل البحث عن رسول الله ﷺ جعلت لمن يأتي به حيًّا أو ميتًّا مائة من الإبل، «ونادوا بذلك في أسفل مكة وأعلاها»(٣). فطمع في ذلك سُرَاقة بن مالك بن جُعْشم، فركب جواده منطلقًا نحو المدينة حتىٰ دنا من رسول الله ﷺ والذين معه، فكبا به جواده عدة مرات قبل أن يدركهم، فتطير سراقة، ونادىٰ رسول الله ﷺ معلنًا إسلامه وعارضًا عليه ما يستطيع من عون، فقال له ﷺ: «**أخْفِ عنا**» أي لا تكشف أمرنا لقريش، فامتثل سراقة لهذا الأمر وأخذ يضلل المشركين، «فكان أول النهار جاهدًا علىٰ نبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له»(٤).

كانت محاولة سراقة نهاية المحاولات التي بذلتها قريش في سبيل إحباط هجرة الرسول ﷺ. وبعد فشل هذه المحاولة أصبح الطريق أمام الرسول ﷺ آمنًا إلىٰ يثرب، فوصل أولًا إلىٰ قباء، علىٰ مشارف يثرب، وكان ذلك يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول في العام الثالث عشر للبعثة (سبتمبر ٦٢٢م)(٥)، وهناك أقام أربعة أيام حيث أسس مسجد قُباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام، ويرىٰ البعض أنه المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

(١) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٢٢٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٦١.

(٤) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٦، ٧٧، ٧٩.

(٥) السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٣٣٠.

أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨][١]. وفي أثناء إقامة الرسول ﷺ وأبي بكر بقباء بقي علي بن أبي طالب في مكة حتىٰ يؤدي الودائع التي كانت عنده إلىٰ الناس، وقد كان أهل مكة يؤثرون أن يودعوا ما يخشون عليه من نفائس ممتلكاتهم عند رسول الله ﷺ «وإنما كان يسمىٰ الأمين»[٢].

ثم توجه الجميع صوب يثرب، فدخلها رسول الله ﷺ ومن معه في اليوم نفسه الذي غادروا فيه قباء، وهو يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول. وقد أدركهم وقت صلاة الجمعة في وادٍ يقال له «وادي رانوناء» فصلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين هناك؛ فهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بيثرب[٣]. ثم ركب ﷺ ناقته -وحوله أصحابه- وكلما مر بدار من دور الأنصار أخذوا بزمام ناقته ودَعَوْه إلىٰ أن ينزل لديهم، فكان الرسول ﷺ يقول: «**دعوها فإنها مأمورة؛ فإنما أنزل حيث أنزلني الله**». فلما انتهت إلىٰ دار أبي أيوب الأنصاري (وهو خالد بن زيد بن كليب)[٤] بركت علىٰ الباب فقال: «هذا إن شاء الله المنزل»، فدخل بيت أبي أيوب حتىٰ ابتنىٰ مسجده ومساكنه[٥].

ولقد كان استقبال أهل يثرب لرسول الله ﷺ حافلًا بكل مشاعر الحفاوة والإيمان؛ فبعد أن سمعوا بمخرجه من مكة أصبحوا يغدون كل غداة إلىٰ الحَرَّة بظاهر المدينة فينتظرونه حتىٰ يردهم حر الظهيرة[٦]. وعندما قدم رسول الله ﷺ خرج الكل لاستقباله في مشهد رائع[٧].

---

(١) انظر أيضًا: الروض الأنف، ج ٢، ص ٣٣٢-٣٣٣، والكشاف للزمخشري ج ٢، ص ٣١١.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٦١-٢٦٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١١٢.

(٤) وهو من بني مالك بن النجار من الخزرج، وقد شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات مجاهدًا سنة ٥٢ هـ في جيش يزيد بن معاوية وهو يغزو الروم، ودفن بالقرب من القسطنطينية. انظر ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير، ج ٢، ص ٩٤-٩٦.

(٥) انظر حول ذلك: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٨، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٦) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٧.

(٧) يذكر بعض المؤرخين أن أهل المدينة خرجوا لاستقبال الرسول ﷺ وهم ينشدون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وقيل إنهم أنشدوا هذا الشعر في استقبال الرسول سنة ٩هـ عند عودته من تبوك؛ «لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلىٰ المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجَّه إلىٰ الشام»: زاد المعاد لابن القيم، ج٣، ص ١٠.

وأصبحت يثرب -بعد أن اتخذها الرسول ﷺ مقرًّا له ومركزًا للدعوة الإسلامية- تعرف باسم المدينة.

أهم دروس الهجرة:

هذه هي قصة الهجرة بكل ما تحفل به من مواقف رائعة ومن دروس بالغة الدلالة:

١- وأول ما يسترعي الانتباه في تلك القصة الخالدة هو أن دعوة الحق تؤتي ثمارها إذا لم يستسلم أصحابها لعوامل الخذلان. لقد ضرب محمد ﷺ مثلًا فذًّا في الثبات علىٰ المبدأ والسعي نحو بلوغ الهدف مهما كلفه ذلك من طاقة. والهدف هنا هو أداء أمانة التبليغ عن الله ﷻ وإتاحة الفرصة أمام الجميع أن يعتنقوا دعوة الحق دون اضطهاد من أحد حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وقد حدد الرسول ﷺ هذا الهدف تحديدًا حاسمًا في بداية الدعوة عندما قال لعمه أبي طالب: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر حتىٰ يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». وها هي تباشير تحقيق هذا الهدف تلوح من يثرب، وقد كانت الهجرة مفتاحًا عمليًّا لتحقيقه، وتحمَّل محمد ﷺ كل مخاطرها وأهوالها راضيًا من أجل غايته الكبرىٰ.

٢- ومما يلفت النظر أيضًا في قصة الهجرة ويفيض بالعبرة البالغة أن الرسول ﷺ وأبا بكر لم يتركا الأمور للصدفة ولا لضربات الحظ بل قدَّرا لكل خطوة موضعها، وكانت الخطة التي رسماها لتنفيذ مشروع الهجرة غاية في الإحكام والدقة. لقد رأينا كيف ذهبا إلىٰ غار ثور واختفيا به ثلاثة أيام حتىٰ يخف عنهما الطلب، وكيف أمر الرسول ﷺ عليًّا أن ينام في فراشه تضليلًا لقريش، وكيف كان عبد الله بن أبي بكر يسمع نهارًا ما يقوله كفار قريش عن الرسول ﷺ وأبي بكر ثم يأتيهما بخبر ذلك ليلًا حتىٰ يعدِّلا خطتهما في ضوء ذلك. ثم رأينا كيف كان عامر بن فهيرة يُعَفِّي أثر عبد الله وأسماء بالغنم الذي كان يرعاه لأبي بكر، ورأينا أيضًا كيف اختار الرسول ﷺ دليلًا حاذقًا للاهتداء به في الرحلة، وكيف سلك بهما ذلك الدليل طرقًا غير مطروقة. إن كل ذلك ليقدِّم أنصع دليل علىٰ أن التواكل ليس من منهاج الإسلام وأن علىٰ المسلم أن يبذل كل ما في وسعه من جهد بحثًا وتمحيصًا قبل أن يُقْدِم علىٰ اتخاذ خطوة ما، ثم

عليه بعد ذلك أن يرضىٰ بقدر الله. فإذا كان الرسول ﷺ -رغم منزلته من ربه- قد اتخذ الأسباب كافة فجدير بالمسلمين جميعًا ألا يرسموا بتواكلهم صورة تسيء إلىٰ الإسلام.

٣- ثم إننا نقرأ في الهجرة دروسًا عن الفدائية والإيثار وروعة الوفاء الذي يزداد عمقًا بالإيمان الخالص فتصبح الحياة هينة رخيصة أمام متطلبات ذلك الوفاء. يروىٰ بهذا الصدد أن أبا بكر عندما انتهىٰ مع الرسول ﷺ إلىٰ الغار قال: «مكانك يا رسول الله حتىٰ أستبرئ لك الغار» أي حتىٰ أتأكد من براءته من الأذىٰ؛ وذلك ضنًّا برسول الله ﷺ وحرصًا عليه. وقد كان أبو بكر يمشي ساعة أمام الرسول ﷺ وساعة خلفه، وهما متوجهان إلىٰ الغار، فسأله الرسول ﷺ عن سبب ذلك فقال: «أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرَّصَدَ فأمشي بين يديك»[1]. هكذا كان أبو بكر في وفائه وإيمانه مستعدًا أن يبذل نفسه دون رسول الله ﷺ. وقد قدم عليّ بن أبي طالب أيضًا مثالًا نادرًا للوفاء والتضحية في ملحمة الهجرة وذلك حين نام مكان الرسول ﷺ وهو يعلم حق العلم أنه قد يدفع حياته ثمنًا لذلك. كما قدم عبد الله بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر وعامر بن فهيرة أمثلة رائعة جديرة بالإعجاب لعميق الإحساس بالمسئولية والارتفاع إلىٰ مستوىٰ الموقف، ولا غرو؛ فهذه كلها نفوس صاغها الدين الجديد في قالبٍ فذٍّ فريد.

وهكذا استقر الرسول ﷺ وأصحابه من مسلمي مكة في المدينة لتبدأ مرحلة أخرىٰ من مراحل الكفاح في سبيل تبليغ كلمة الله وإقامة دولة الإسلام.

ولكن قبل أن نتحدث عن خطوات تكوين الدولة الإسلامية في المدينة المنورة نتوقف قليلًا لنقدم نبذة موجزة عن:

بداية التأريخ الهجري:

المعروف أن المسلمين اتخذوا العام الذي هاجر فيه الرسول ﷺ إلىٰ المدينة بداية التأريخ الهجري الذي نعرفه اليوم. وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ وصل إلىٰ قباء في الثاني عشر من ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة (سبتمبر ٦٢٢م). ولكن التأريخ

---

(١) انظر حول ذلك. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص ١٧٨. والرَّصَدَ بفتحتين: القوم يرصدون، كالحرس؛ يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث.

الهجري لم يبدأ في ذلك اليوم بل بدأ قبل ذلك بشهرين واثني عشر يومًا، أي في بداية المحرم؛ لأن أول السنة المحرم[1]. والجدير بالملاحظة أن المسلمين اتخذوا هجرة الرسول ﷺ مبدأ للتأريخ الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ في أصح الأقوال؛ وذلك علىٰ يد الخليفة عمر بن الخطاب. ومما يروىٰ في سبب ذلك أن عمر رُفع إليه صك لرجل علىٰ آخر موعده شعبان. فقال عمر: أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة أو السنة الماضية أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تأريخ للمسلمين. ومع ذلك فنحن نرىٰ أن سبب وضع التأريخ الإسلامي لا يمكن أن ينحصر في مثل هذه الحادثة المحددة، وإنما دعت إليه التطورات الهائلة في الدولة الإسلامية في عهد عمر ابن الخطاب، وهي التطورات التي كان من الضروري أن يرتبط بها وضع تأريخ خاص بهذه الدولة الآخذة في القوة والاتساع. وقد اختلفت آراء الصحابة حين استشارهم عمر في وضع تأريخ للمسلمين؛ فمنهم من اقترح أن يتبع المسلمون تأريخ الروم، ومنهم من اقترح تأريخ الفرس، ومنهم من رأىٰ أن يكون مولد الرسول ﷺ مبدأ للتاريخ الإسلامي، ومنهم من رأىٰ أن يكون مبعثه مبدأ لذلك، ومنهم من رأىٰ التأريخ بوفاته أو بهجرته. وبعد مناقشة كل هذه الآراء رأىٰ عمر أن يبدأ التأريخ الإسلامي بهجرة الرسول ﷺ؛ لأن الهجرة -علىٰ حد تعبير عمر- فرقت بين الحق والباطل؛ أو من الممكن أن نقول بتعبيرنا: إنها كانت بداية عملية لتكوُّن الدولة الإسلامية وسحق نظام الوثنية. وقد اتفق المسلمون علىٰ التأريخ بالهجرة في العام السابع عشر أو الثامن عشر من هجرة الرسول ﷺ[2].

المدينة والنشأة المبكرة للدولة الإسلامية:

تتكون الدولة -كما هو معروف- إذا تحققت عناصر ثلاثة هي الأرض والشعب والقيادة، أو الوطن والمواطن والحكومة. وإذا نظرنا إلىٰ المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إليها وجدنا هذه العناصر متحققة فيها. فهناك الأرض المتمثلة في حدود المدينة، وهناك المجتمع المسلم الذي يهيمن علىٰ هذه الأرض وله الغلبة فيها، وهناك الزعامة أو القيادة المتمثلة في الرسول ﷺ. وقيادة الرسول ﷺ لهذا

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩٣، والمعارف لابن قتيبة، ص ١٥١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٨٨-٣٩٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ٢٠٤-٢٠٥.

المجتمع قيادة دينية ودنيوية معًا، فمن المعلوم أن الإسلام نظام يشمل كل جوانب حياة المسلم. وليس من المتصوَّر -والأمر كذلك- أن تقتصر مهمة محمد ﷺ علىٰ تقرير الجوانب الروحية البحتة في حياة المسلم بل إن هذه المهمة لتتسع لتغطي كل جوانب حياته؛ فهي إذن بالضرورة تغطي جوانب حياة المجتمع الإسلامي بأسره. وإذا كانت الدولة الإسلامية الأولىٰ -أو نواة الدولة الإسلامية -قد تكونت في المدينة بهجرة الرسول ﷺ إليها -كما وضحنا الآن- فإن التشريعات الإسلامية في المدينة اتجهت لتقرير القواعد الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الجديد فيما يتصل بشؤون الحرب والسلم وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض والعلاقة المتبادلة بين الراعي والرعية وجباية الأموال من مصادرها وصرفها في مصارفها إلىٰ غير ذلك من الأمور التي لم يكن لمعظمها مجال في المجتمع الإسلامي المحدود في مكة قبل أن تنشأ الدولة الإسلامية. ومن هنا اتجه الكثير من آيات القرآن الكريم التي نزلت بالمدينة إلىٰ علاج هذه الجوانب، في حين أن ما نزل من القرآن بمكة كان منصبًّا في جملته علىٰ تقرير أصول العقيدة الإسلامية وما يتعلق بالبعث والثواب والعقاب، وآيات الله الكبرىٰ في الكون وغير ذلك مما يتلاءم مع مجتمع تأصلت فيه الوثنية، فكان علىٰ الرسول ﷺ أن يخرجه من ظلام الشرك إلىٰ نور الإيمان.

وهكذا أصبحت المهمة الأولىٰ أمام الرسول ﷺ بعد الهجرة إلىٰ المدينة أن ينظم علاقات المجتمع في الدولة الجديدة علىٰ أسس راسخة حتىٰ يضمن تماسكه واستقراره فتنطلق دعوة الإسلام خارج هذا المجتمع لتشمل ما شاء الله من بقاع الأرض.

الخطوات التي اتخذها الرسول ﷺ لتوطيد قواعد الدولة الجديدة:

رغم أن الدولة الإسلامية نشأت بعد الهجرة إلىٰ المدينة -كما أسْلَفْنا- نظرًا لتحقق العناصر الضرورية لنشأتها من أرض وشعب وقيادة- فإن الرسول ﷺ قام باتخاذ عدد من الخطوات التي رأىٰ فيها تعزيزًا لكيان هذه الدولة. ومن الممكن بلورة أهم هذه الخطوات فيما يأتي:

أولًا: إصدار دستور المدينة:

كان من بين أهم ما بدأ به الرسول ﷺ حياته في المدينة أن كتب كتابًا نظم فيه العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة، وأشار إلىٰ هؤلاء جميعًا بأنهم

«أهل هذه الصحيفة» أي هذا الكتاب الذي كتبه. وتُعدّ هذه الصحيفة بمثابة دستور الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة[1]. ومن هنا يطلق الكثير من الباحثين المحدثين علىٰ هذه الصحيفة -بحق- مصطلح «دستور المدينة» The Constitution of Madinah أو «ميثاق المدينة»[2] The Charter of Madinah.

وقد كفلت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة وأمنتهم علىٰ أنفسهم وأموالهم، وأعطتهم حق المواطنة الكاملة في هذه الدولة، فقد أعلنت أنهم «ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» «وأن بينهم النصر علىٰ من حارب أهل هذه الصحيفة» أي حارب أهل المدينة، وأن لهم «النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم». وقد حدد الرسول ﷺ أيضًا في هذه الصحيفة وضع غير المسلمين من عرب المدينة فجعل عليهم ألا يجيروا مشركي قريش ولا أموالهم ولا من ناصرهم. ثم أصدر ﷺ حكمًا عامًّا يشمل أهل الصحيفة، أي أهل المدينة، وذلك حين قال: «إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلىٰ الله وإلىٰ محمد رسول الله». فالواضح هنا أن الرسول ﷺ هو الرئيس الأعلىٰ للمدينة بجميع طوائفها، بجانب قيادته الروحية للمجتمع الإسلامي فيها.

ثانيًا: عقد حلف التضامن والإخاء بين مسلمي المدينة:

ثم إن الرسول ﷺ رأىٰ أن من أهم ما يلزم القيام به بعد الهجرة عَقْد حلف تعاون وتضامن بين مسلمي المدينة يهدف إلىٰ تأكيد المفهوم الذي يغرسه الإسلام دائمًا في أتباعه وهو «أنهم أمة واحدة دون الناس» كما عبّر الرسول ﷺ. وقد عُقد هذا الحلف في دار أنس بن مالك وأصبح مسلمو المدينة علىٰ أساسه ملزمين بأن يكونوا يدًا واحدة علىٰ عدوهم وأن يتكافلوا فيما بينهم وينصف بعضهم بعضًا. وتعميقًا لمفهوم هذا

---

(١) ارجع إلىٰ نص هذه الصحيفة في كتاب: الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، ص ١-٧.

(٢) انظر علي سبيل المثال:

M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 94; S. Ameer Ali, A Short History of the Saracens, P. 12.

وانظر أيضًا: فقه الشورىٰ والاستشارة للدكتور توفيق الشاوي ص ٣٢٠، وفي النظام السياسي للدولة الإسلامية، للدكتور محمد سليم العوا، ص ٥٠.

الحلف آخىٰ رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ فيروىٰ أنه قال لهم: «تآخوا في الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال: «هذا أخي»، وآخىٰ بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأُبيّ بن كعب، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وهكذا فعل مع بقية أصحابه من المهاجرين والأنصار[(١)]. وقد جعل الرسول ﷺ لهذا الإخاء حكم إخاء الدم والنسب، فازدادت وحدة المسلمين عمقًا ورسوخًا.

ثالثًا: بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة:

ذكرنا آنفًا أن الرسول ﷺ -بعد هجرته إلىٰ المدينة- نزل دار أبي أيوب وأقام بها حتىٰ ابتنىٰ مسجده ومساكنه. ولا شك أن بناء المسجد لم يكن يعني بالنسبة إلىٰ الرسول ﷺ والمسلمين مجرد تهيئة مكان للصلاة؛ بل كان يعني -فضلًا عن ذلك- إتاحة مقر لعقد الاجتماعات المهمة، وممارسة التعليم والتثقيف، والقضاء بين الناس، واستقبال السفراء والوفود، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي تتصل بإدارة شئون الدولة الجديدة. ومن أجل هذا كان بناء المسجد ضرورة ملحة بعد وصول الرسول ﷺ إلىٰ المدينة. وقد بنىٰ الرسول ﷺ مسجده في الموضع الذي بركت فيه ناقته بجوار بيت أبي أيوب. وكان ﷺ قدوة لأصحابه من المهاجرين والأنصار في أثناء العمل في البناء، «وطفق ينقل معَهم اللَّبِن في بنائه» كما يروي البخاري في صحيحه؛ وكان يقول وهو ينقل اللَّبِن: «اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة»[(٢)]. وقد اتسم مسجد الرسول ﷺ بالبساطة؛ فقد بني باللَّبِن كما أشرنا، وكان سقفه من الجريد، وعمُده من جذوع النخل، وظل علىٰ بساطته تلك في أيام أبي بكر وعمر[(٣)].

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٢٤-١٢٦. وقارن بما في أنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٨.

(٣) ولما جاء عثمان بنىٰ جدرانه بالحجارة المنقوشة. وفي عهد الدولة الأموية أعاد الخليفة الوليد بن عبد الملك بناءه واستعان في ذلك ببنّائين أجانب وأدخل عليه كل مظاهر الأبهة والفخامة.

بقيت نقطة ينبغي الحديث عنها هنا رغم أنها تبدو -من حيث الظاهر- بعيدة الصلة عما نحن فيه، وتلك هي دخول الرسول ﷺ بعائشة في شوال أو ذي القعدة من العام الأول للهجرة، وكان قد عقد عليها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة زوجته خديجة وعمرها عندئذ في حدود سبع سنين[1]. والحق أن ارتباط الرسول ﷺ بعائشة لم يكن إلا صدىٰ لارتباطه بأبيها أبي بكر الصديق وإلا توثيقًا وتعميقًا لتلك الصلة الرائعة التي ربطت بينه وبين ذلك الرجل الذي كان له نعم الرفيق والسند في كل المواقف. ومن المسلَّم به أن قضية السن لم يكن لها اعتبار كبير في مثل هذا الأمر، فما تزوج الرسول ﷺ عائشة في مثل تلك السن الصغيرة تطلعًا لأكثر مما أشرنا إليه. صحيح أن الرسول ﷺ كان يحب عائشة حبًّا عميقًا، ولكن ذلك -كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل- «حب نشأ بعد الزواج لا حينه . . فليس مما يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهي في هذه السن الصغيرة»[2]. هكذا أراد الرسول ﷺ في بداية تلك المرحلة «المدنيَّة» التي كانت الدولة الناشئة فيها في حاجة إلىٰ مزيد من الدعم أن يربط علاقته بأبي بكر برباط فوق رباط الصحبة -علىٰ متانتها- وهو رباط المصاهرة، ولهذا آثر أن يعجل بإتمام زواجه من عائشة. وقد كان أبو بكر من الرسول ﷺ بمنزلة وزيره الأول. وقد يجوز لنا هنا أن نستطرد قليلًا فنذكر أن الرسول صلىٰ الله لم يصنع هذا مع أبي بكر فقط بل صنع مثله أو شبيهه مع عمر وعثمان وعليّ في فترات وظروف مختلفة؛ فقد تزوج بحفصة بنت عمر في وقت لاحق. وغني عن البيان أن عمر كان بمثابة وزيره الثاني. كما زوَّج عليًّا بنته فاطمة، وزوَّج عثمانَ بنته رقيَّة، فلما ماتت زوَّجه بنته أم كلثوم، وبهذا ربط الرسول ﷺ بينه وبين هؤلاء الخاصة من أصحابه -الذين أصبحوا فيما بعد خلفاءه الراشدين- برباط المصاهرة تزويجًا أو تزوجًا.

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٢) حياة محمد، ص ٣٣٠.

الفصل السابع
تطور العلاقة بين المسلمين ومشركي قريش
منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (١-٦هـ)

رأينا قبل ذلك كيف استبد الهلع بقريش عندما هاجر معظم أصحاب رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، ورأينا كيف بذل زعماء قريش قصاراهم لكي يحولوا بين رسول الله ﷺ وبين أن يلحق بأصحابه في المدينة؛ لأنه إن لحق بهم هناك أصبح المسلمون في موئلهم الجديد مصدر خطر علىٰ نظامهم كله. أما وقد لحق الرسول بأصحابه في المدينة -رغم كيد أعدائه- فإنّ مشركي قريش ما كان ليقر لهم قرار وهم يرون قوة المسلمين تنبثق ودولتهم تبرز إلىٰ حيز الوجود. فلم يكن غريبًا أنّ يتوقع المسلمون من هؤلاء أنّ يكيدوا لهم وأن يطاردوهم محاولين تطويقهم ثم القضاء عليهم. وإذا كانت قريش قد طاردتهم وهم في مهاجرهم بالحبشة خارج شبه الجزيرة العربية كلها، فهل من المستغرب أن تطاردهم وهم يعيشون بالقرب منها بالمدينة في شمال الحجاز؟ ولا شك أنّ هذه الظروف كان لها تأثيرها الواضح في أن تجعل مشركي قريش يحقدون علىٰ مسلمي المدينة ويتربصون بهم؛ وأن تجعل مسلمي المدينة -علىٰ الجانب الآخر- يسيئون الظن بهؤلاء ويتوقعون الأذىٰ منهم. وهذا هو المناخ الذي اشتعلت فيه المواجهات الأولىٰ بين قريش والمسلمين بعد الهجرة، وقد تمثل أبرز هذه المواجهات في موقعة بدر وأحد والخندق.

علىٰ أنّ أول هذه المواجهات الأساسية -وهي موقعة بدر- سبقتها مناوشات بين الجانبين ينبغي أنّ نتحدث عنها الآن باختصار.

المناوشات الأولىٰ بين المسلمين ومشركي قريش:

بعد الهجرة إلىٰ المدينة نزل إذن الله للمسلمين بالقتال في قوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. يقول الزمخشري في تفسيره للآية الأولىٰ: «المعنىٰ: أذن لهم في القتال . . . (بأنهم ظلموا) أي بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ: كان مشركو مكة يؤذونهم أذىٰ شديدًا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتىٰ هاجر فأنزلت هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال»(١). فالواضح إذن -في ضوء ذلك- أنّ الله أذِنَ للمسلمين بالقتال بعد الهجرة ردًّا علىٰ ما لحق بهم من أذىٰ واضطهاد، وعلىٰ ما اضطروا إليه من تركهم لديارهم وأموالهم، فليس من العدوان أنْ ينتصفوا لأنفسهم وأن يستردوا بعض ما سلبه هؤلاء منهم. لقد وجد المسلمون أنفسهم في حالة حرب مع مشركي قريش، ومن المشروع في حالة الحرب أن يبذل كلّ طرف قصاراه لإضعاف الطرف الآخر. ولما كان اقتصاد مكة ورخاؤها قائمًا علىٰ التجارة -كما شرحنا قبل ذلك- فقد كانت أشد الضربات إيلامًا للمكيين هي تلك التي تعرقل طريق تجارتهم. ومن هنا رأىٰ الرسول ﷺ في تلك المرحلة أنْ يشن بعض الحملات علىٰ قوافل المكيين التجارية. ولم تكن تلك الحملات عنده وسيلة لإيجاد مورد رزق، بل كانت استردادًا لبعض حق، ثم إنها لم تكن بدءًا بعدوان، بل كانت ردًّا علىٰ عدوان سابق، كما كانت وسيلة مشروعة من وسائل إضعاف الخصم في قانون الحروب. ومن ثم لا يسوغ القول بأن هذه الأنشطة القتالية للرسول ﷺ كانت تمثل حربًا هجومية يمكن أنْ تخلع عليه صفة العدوان كما يدعي بعض المستشرقين(٢).

وقد كانت أولىٰ الحملات في هذا الصدد هي السرية التي تألفت من ثلاثين رجلا

---

(١) الكشاف، ج٣، ص ١٦٠.

(2) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 105.

ولمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: قراءة نقدية في كتابات مونتجومري وات في السيرة النبوية. المرجع السابق، ص ١١٦-١٢٤.

بقيادة حمزة بن عبد المطلب، وتوجهت لتعترض قافلة تجارية لقريش جاءت من الشام تريد مكة. وتروي مصادرنا «أنّ حمزة لقي أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فحجز بينهم مجديّ بن عمرو الجهني فافترقوا، ولم يكن بينهم قتال»[1]. ويذكر الواقدي أنّ هذه السرية كانت في رمضان من السنة الأولىٰ للهجرة (مارس ٦٢٣م)[2]، في حين يرىٰ ابن إسحاق أنها كانت في الشهور الأولىٰ من السنة الثانية[3].

وفي تلك الفترة نفسها، أو في شهر شوال من السنة الأولىٰ للهجرة، أرسل رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف في ستين أو ثمانين رجلًا من المهاجرين، فالتقوا مع مشركي قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب طبقًا لرواية الواقدي[4]، أو عكرمة بن أبي جهل طبقًا لرواية ابن إسحاق[5]، وذلك عند ماء يقال له «أحياء» بالحجاز. وكان المشركون مائتي رجل. ولم يكن بين الفريقين قتال، «إلّا أنّ سعد بن أبي وقاص قد رمىٰ يومئذ بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام»[6].

وفي صفر من السنة الثانية للهجرة (أغسطس ٦٢٣م) خرج رسول الله ﷺ بنفسه معترضًا لعير قريش فيما عُرف بغزوة «الأبواء» لأنه ﷺ سار إلىٰ مكان يقال له: «الأبواء» بين مكة والمدينة[7]، فلم يلقَ قريشًا. «وفي هذه الغزاة وادع بني ضمرة من كنانة علىٰ ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحدًا»[8].

وفي ربيع الأول من السنة نفسها أيضًا خرج الرسول ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير. وقد بلغ رسول الله ﷺ مكانًا يقال له «بواط» ومن ثم عرفت هذه الغزوة بغزوة بواط. ثم رجع الرسول ﷺ «ولم يلق كيدًا» أي لم تحدث مواجهة بين الطرفين[9].

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٠٢. وانظر أيضًا: المغازي للواقدي، ج١، ص ٩.

(٢) المغازي، ج ١، ص ٩.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٠٣.

(٤) المغازي، ج١، ص ١٠.

(٥) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٢٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٧) وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ.

(٨) المغازي للواقدي، ج١، ص ١٢.

(٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها، وبواط جبل من جبال جهينة بناحية رضوىٰ، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٥٩٦.

وفي ربيع الأول أيضًا من السنة نفسها خرج رسول الله ﷺ في بعض أصحابه من المهاجرين يطلب كُرز بن جابر الفِهْري الذي كان قد أغار علىٰ سرح المدينة، أي إبلها وأغنامها. وقد طلبه رسول الله ﷺ حتىٰ بلغ بدرًا فلم يدركه؛ ولهذا سميت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولىٰ(١).

وفي العام نفسه أيضًا خرج رسول الله ﷺ في مائة وخمسين أو مائتين من المهاجرين يعترض عيرًا لقريش متوجهة إلىٰ الشام، حتىٰ بلغ العُشَيرة بينبع. ومن هنا عرفت هذه الغزوة بغزوة ذات العشيرة (أو ذي العشيرة). وقد أقام فيها جمادىٰ الأولىٰ، وبعضًا من جمادىٰ الثانية. ولم تحدث مواجهة بين الطرفين في هذه الغزوة، وقد وادع فيها الرسول ﷺ بني مُدْلج وحلفاءهم من بني ضمرة(٢).

ونحن نلاحظ في كلّ هذه السرايا والغزوات أنها لم تسفر عن قتال ولا حصل المسلمون فيها علىٰ غنائم من مشركي قريش، ولكن قريشًا أصبحت علىٰ يقين من أنّ المسلمين أصبحوا قوة لا يستهان بها. ثم إننا نلاحظ أيضًا أنّ كلّ المشتركين فيها من صحابة رسول الله ﷺ كانوا من المهاجرين، و«لم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتىٰ غزا بهم بدرًا؛ وذلك لأنهم شرطوا له أنْ يمنعوه في دارهم» كما يقول الواقدي(٣).

سرية نخلة ومقدمات غزوة بدر:

في رجب من السنة الثانية للهجرة (يناير ٦٢٤م) بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رجال من المهاجرين، أو في اثني عشر رجلا طبقًا لبعض الروايات، وكتب له كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتىٰ يسير يومين، ثم ينظر فيمضي ما به دون أنْ يستكره أحدًا من أصحابه. فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتىٰ تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشًا وتعلَّمْ لنا من أخبارهم»(٤). فمضىٰ عبد الله مع أصحابه ولم يتخلف أحد منهم. فلما كان ببعض

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٠٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج٣، ص ٢٤٦.

(٢) المغازي للواقدي، ج١، ص ١٢-١٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج٣، ص ٢٤٦.

(٣) المغازي، ج١، ص ١١.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤١١.

الطريق تخلف عنه اثنان من أصحابه وهما سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، وذلك أنّ بعيرًا لهما كانا يتبادلان الركوب عليه ضل منهما فذهبا يبحثان عنه، واستمر عبد الله بن جحش في مسيره ومعه بقية أصحابه حتىٰ نزل «نخلة» التي أشار إليها كتاب الرسول ﷺ، فمرت به عير تحمل تجارة لقريش، وكان في العير من مشركي قريش عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان المخزومي. وكان ذلك في آخر يوم من رجب (أحد الأشهر الحرم)[١]. فأجمع أصحاب عبد الله علىٰ قتالهم بعد تردد، فرمىٰ واحد منهم -وهو واقد بن عبد الله التميمي- عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله. وأسر المسلمون عثمان ابن عبد الله والحكم بن كيسان. أمّا نوفل بن عبد الله فقد هرب وأعجز القوم. واستولىٰ المسلمون علىٰ عير قريش وقدموا بها مع الأسيرين علىٰ رسول الله ﷺ بالمدينة[٢].

ولكن الرسول ﷺ لم يطب نفسًا بما فعل عبد الله وأصحابه، بل عنفهم وقال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» ورفض أنْ يقبل شيئًا من الغنيمة[٣]. فـ «سُقط في أيدي القوم وظنوا أنْ قد هلكوا»[٤]. وكثر تعنيف المسلمين لعبد الله وأصحابه، وكان مما قالوه لهم: «صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال»[٥]! وأصبحت «المدينة تفور فَوْرَ المرجل»[٦]! واستغلت قريش هذا الموقف فحاولت التشنيع علىٰ المسلمين، وقالت في ذلك: «قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال». وحاول بعض المسلمين ممن كانوا بمكة أنْ يردوا علىٰ ذلك فقالوا: «إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان». وانتهزت اليهود الفرصة لمحاولة الإيقاع بين قريش والمسلمين[٧].

---

(١) والأشهر الحرم أربعة: ثلاثة سرد (أي متتابعة)، وواحد فرد؛ فالسرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، والفرد رجب.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤١٢.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٦.

(٥) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤١٢.

(٦) المغازي، ج١، ص ١٦.

(٧) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤١٢.

فلما كثر كلام الناس في ذلك أنزل الله ﷻ قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهنا اطمأن رسول الله ﷺ والمسلمون، وقبض الرسول ﷺ العير والأسيرين، ثم أرسلت قريش في فداء الأسيرين، فرفض رسول الله ﷺ ذلك حتىٰ يقدم سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، وقال لرسل قريش: «إنا نخشاكم عليهما، فإنْ تقتلوهما نقتل صاحبيكم». ثم قدم سعد وعتبة، فأطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وهما عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان. وقد أسلم الحكم بن كيسان فحسن إسلامه، وظل عند رسول الله ﷺ حتىٰ استشهد يوم بئر معونة(١).

وهكذا أصبح الموقف بين قريش والمسلمين قابلًا للانفجار في أية لحظة. وجدير بنا هنا أن نسجل ما يرويه الطبري من أنّ «الذي هاج وقعة بدر وسائر الحروب التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش ما كان من قَتْل واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي»(٢).

موقعة بدر: (١٧ رمضان ٢ هـ - مارس ٦٢٤م):

كانت سرية عبد الله بن جحش سرية استطلاع تهدف في الأساس إلىٰ معرفة أخبار قريش والوقوف علىٰ تحركاتهم. ويتضح ذلك من قول الرسول ﷺ لعبد الله حين أمره أنْ ينزل بنخلة: «ترصَّد بها قريشًا وتعلَّم لنا من أخبارهم». ويروي الواقدي بهذا الصدد أنّ الرسول ﷺ ما أمر عبد الله بن جحش وأصحابه بالقتال في الشهر الحرام، ولا غير الشهر الحرام، «إنما أمرهم أنْ يتحسسوا أخبار قريش»(٣). وقد تطور الأمر إلىٰ ما تطور إليه من قتل عمرو بن الحضرمي وما ترتب عليه من توتر الموقف علىٰ الجانبين.

وبعد هذه السرية بقليل خرج أبو سفيان بن حرب يقود قافلة تجارية ضخمة إلىٰ

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٣) المغازي، ج١، ص ١٦.

الشام مكونة من ألف بعير، وكان معه في هذه الرحلة ما يقرب من سبعين رجلًا من قبائل قريش كلها. فلما ترامت الأنباء إلىٰ رسول الله ﷺ بخروج أبي سفيان ورفاقه إلىٰ الشام أمر أصحابه أنْ يخرجوا معه ليتنظروهم في طريق العودة حتىٰ يستردوا جانبًا من حقوقهم التي اغتصبها كفار قريش. فخرج الرسول ﷺ وأصحابه «لا يريدون إلَّا أبا سفيان والركب معه لا يرونها إلَّا غنيمة لهم»[1]. أي إنهم لم يخرجوا لقتال قريش ولا توقعوا أن يكون هناك قتال. وقد عسكر المسلمون عند بدر، وهي بئر عرفت باسمها الجهة الواقعة فيها.

سمع أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ وأصحابه فسلك طريق الساحل وتحاشىٰ المرور ببدر. وفي الوقت نفسه أرسل إلىٰ قريش يخبرهم أنّ محمدًا وأصحابه معترضون لهم، ويطلب منهم أنْ يجيروا تجارتهم[2]. ولا شك أنّ أصداء «نخلة» كانت ما زالت تتردد في مكة وتحدث تأثيراتها، ومن هنا نفر عدد كبير من قريش يريدون قتال المسلمين ولم تكن بالمسلمين نية قتال كما أشرنا، بل ولم يعلموا بخروج قريش لقتالهم حتىٰ أخبرهم بذلك بعض عبيد قريش. فقد سألهم رسول الله ﷺ عن عدد من خرج من قريش لحماية تجارتهم ولقتال المسلمين، فقالوا: لا ندري كم هم. فسألهم عن عدد الجزائر (أي الإبل) التي ينحرونها في اليوم، فذكروا له أنها تتراوح بين التسعة والعشرة، فقال ﷺ: **«القوم ما بين التسعمائة إلىٰ الألف»**[3]. وقد كان عددهم فعلا خمسين وتسعمائة[4].

خرجت قريش بجيشها في أحسن هيئة، فقد تقدموا وهم يتقاذفون بالحراب، ومعهم القيان والدفوف، وكان فيهم مائة فارس، كلهم دارع، وكان في الرجالة دروع

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٢١.

(٢) كان رسول أبي سفيان إلىٰ قريش بمكة هو ضمضم بن عمرو الكناني، وقد أمره أبو سفيان أنْ يخبر قريشًا أنّ محمدًا قد عرض لعيرهم، وأمره أن يجدِّع بعيره (أي يقطع أنفه) إذا دخل، ويحول رحله ويشق قميصه من قُبُله ودبره ويصيح: الغوث! الغوث. انظر: الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٨، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٩٠.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٥٢-٥٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٢٣، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ٢٩٠.

سوىٰ ذلك، وكانت الإبل سبعمائة بعير. وطفق أبو جهل يقول: أيظن محمد أنْ يصيب منا ما أصاب بنخلة وأصحابُه؟ سيعلم أنمنع عيرنا أم لا؟![1].

كان الهدف الأساسي -إذن- من خروج قريش بهذا الجيش الضخم هو حماية عير أبي سفيان حتىٰ لا تتكرر تجربة نخلة. ولكن أبا سفيان سلك طريق الساحل واستطاع النجاة بقافلته التجارية من هجوم المسلمين، فلم تعد لهذا الجيش من مهمة، أو هذا ما كان ينبغي أنْ يكون. ومن هنا انقسم مشركو قريش علىٰ أنفسهم فريقين: فريق كان يرىٰ عودة الجيش إلىٰ مكة وعدم لقاء المسلمين، وعلىٰ رأس هذا الفريق أبو سفيان وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام، وأبو البختري. وقد عبر أبو سفيان عن رأي هذا الفريق حين أرسل إلىٰ قريش بعد أن نجا بقافلته يقول لهم: «قد نجت عيركم، فلا تُجْزِروا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم وقد نجاها الله»[2]. أمّا الفريق الثاني فقد كان يرىٰ ضرورة مواجهة المسلمين حتىٰ بعد نجاة العير حتىٰ يلقنوهم درسًا لا ينسونه. وعلىٰ رأس هذا الفريق أبو جهل وعقبة بن أبي مُعيط والنضر بن الحارث بن كلَدة[3]. وقد قال هؤلاء في الرد علىٰ أبي سفيان: «والله لا نطلب أثرًا بعد عين، ولندعنّ محمدًا وَصَبَأتَه لا يعودون إلىٰ التعرض لأموالنا وتجاراتنا بعدها»[4]. ويروىٰ عن أبي جهل أنه قال بهذه المناسبة: «لا والله، لا نرجع حتىٰ نرد بدرًا – وكان بدر موسمًا من مواسم الجاهلية يجتمع بها العرب، لها بها سوق- تسمع بنا العرب وبمسيرنا- فنقيم علىٰ بدر ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا؛ فلن تزال العرب تهابنا أبدًا»[5]. وقد أخذ هذا الفريق علىٰ عاتقه تحريض غير الراغبين في القتال حتىٰ يخرجوا. ومما يروىٰ بهذا الصدد أنّ أمية بن خلف رفض في البداية أنْ يخرج مع قريش إلىٰ بدر «فأتاه عقبة بن أبي مُعيط، وأبو جهل، ومع عقبة مجمرة بها بخور، ومع

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٩٠-٢٩١.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٣. ومعنىٰ قوله: «لا تجزروا أنفسكم أهل يثرب»، لا تعرضوا أنفسكم للنحر علىٰ يد أهل يثرب.

(٣) النضر بن الحارث بن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصيّ.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراب، ج١، ص ٢٩١.

(٥) المغازي، ج١، ص ٤٣-٤٤.

أبي جهل مكحلة ومرود، فأدخلها عقبة تحته وقال: تبخر فإنما أنت امرأة! وقال أبو جهل: اكتحل فإنما أنت امرأة! قال أمية: ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي . . .»[١]. وقد كانت الغلبة في النهاية للفريق المتشدد: فريق أبي جهل، وعلا نداء الحرب فوق كلّ نداء.

أما وقد خرجت قريش بهذه الصورة للقاء المسلمين فلم يكن أمام المسلمين بد من المواجهة. لقد خرج المسلمون في البداية لاعتراض عير قريش فإذا بقريش تخرج بشوكتها وجموعها للقضاء عليهم. وقد كان ذلك اختبارًا حقيقيًا ليقين المسلمين وثقتهم في نصر الله مهما اجتمعت عليهم حشود الباطل. وقد نزل من القرآن من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

ولعلنا ندرك دقة موقف المسلمين حين نعلم أنّ عددهم كان ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا في مقابل ما يقرب من ألف من المشركين، فانعدم توازن القوىٰ بين الجانبين. وكان أول ما فعله الرسول ﷺ والمسلمون أنهم سبقوا المشركين إلىٰ الماء فاحتلوه، وصفَّ عليه الرسول ﷺ أصحابه وأشرف بنفسه علىٰ ضبطهم وإنزالهم منازلهم للقتال، وبات يدعو ربه ويقول: «**اللهم إنك أنزلت عليّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدىٰ الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك. اللهم نصْرك الذي وعدتني! اللهم أحنهم الغداة**»[٢]! وقد كان اللواء الأعظم للرسول ﷺ يومئذ -وهو لواء المهاجرين- مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحُباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ[٣].

كانت هذه هي المواجهة الحقيقية الأولىٰ في الميدان بين جند الإيمان وجند الشرك، وعلىٰ نتيجتها يتوقف مستقبل الإسلام، ولم يكن ما سبقها إلَّا مناوشات محدودة النطاق والتأثير. وقد أراد ﷺ في هذا الموقف أن يبلو أصحابه ويعرف ما

(١) المصدر السابق، ص ٣٦. وانظر أيضًا: أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٩١.
(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٥٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٨.

عندهم من عزم وإصرار علىٰ قبول التحدي، فاستشارهم. فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله! امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلىٰ برك الغماد لسرنا معك»[1] فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير.

ولكن الرسول ﷺ قال بعد هذا الموقف: «أشيروا عليّ أيها الناس»، وإنما كان يريد الأنصار. فقد أعطىٰ الأنصار مواثيقهم للرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية علىٰ أنْ يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم، ومن الممكن أن يفسر ذلك أنه التزام بتقديم الحماية والنصرة داخل المدينة لا خارجها. وهذه المواجهة في بدر كانت خارج المدينة. فهل سيقدّم الأنصار العون الضروري فيها أو سيحجمون في ضوء التفسير الحرفي لبيعة العقبة الثانية؟ هذا ما أراد أن يستوثق منه الرسول ﷺ عندئذ. وقد فطن سعد بن معاذ سيد الأوس لمراد الرسول ﷺ فقال له: كأنك يا رسول الله تريدنا! قال: أجل. فقال: «... إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كلّ ما جئت به حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا علىٰ السمع والطاعة، فامضِ يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منا رجل؛ وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت. والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك»[2].

كان هذا الموقف أحد المواقف الخالدة للأنصار، وقد أضافوا به جوهرة غالية إلىٰ رصيدهم الذي لا ينفد من الإخلاص للإسلام ونصرة رسوله ﷺ. ولم يكن سعد بن معاذ في كلامه هذا معبرًا عن رأيه أو عن رأي قومه من الأوس فقط، بل كان معبرًا عن

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨. و«بَرك الغماد» موضع باليمن كما جاء في لسان العرب لابن منظور، مادة «برك» ص٢٦٨. وقيل: إن المقصود ببرك الغماد الحبشة. انظر تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٣٤.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٨-٤٩.

جمهور الأنصار، ولهذا قال للرسول ﷺ قبل بداية حديثه: «أنا أجيب عن الأنصار»[1].

اطمأنت نفس الرسول ﷺ لما سمع من كلام سعد، فأثنىٰ عليه وقال له خيرًا، ثم قال لأصحابه: «سيروا علىٰ بركة الله؛ فإنّ الله قد وعدني إحدىٰ الطائفتين. والله لكأني أنظر إلىٰ مصارع القوم»[2].

ذكرنا منذ قليل أنّ المسلمين سبقوا قريشًا إلىٰ الماء فسيطروا عليه وحالوا بينه وبين المشركين. وكان ذلك بناء علىٰ مشورة الحباب بن المنذر بن الجموح (من أعيان الخزرج)، فقد لاحظ الحباب أنّ المسلمين ينزلون بعيدًا عن الماء فقال للرسول ﷺ: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أنْ نتقدمه ولا نتأخره، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإنّ هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتىٰ نأتي أدنىٰ ماء من القوم فننزله، ثم نعوِّر ما سواه من القُلُب (أي نردم غيرها من الآبار) ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل الناس فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول ﷺ: لقد أشرت بالرأي[3]. فكان الحباب يُدعىٰ «ذا الرأي»[4].

وبينما كان المشركون في منازل القتال يستعدون لمواجهة المسلمين أرسلوا رجلًا منهم يقال له عُمير بن وهب الجُمحي إلىٰ معسكر المسلمين ليطوف حوله ويقدر عدد المقاتلين به، ففعل عمير ثم عاد إلىٰ قريش وأخبرهم أنّ المسلمين في حدود الثلاثمائة ومعهم سبعون بعيرًا وفَرسان، ثم ذكر لهم أنّ هؤلاء القوم «ليست لهم منعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم! ألا ترونهم خُرسًا لا يتكلمون، يتلمَّظون تلمُّظَ الأفاعي»! ثم أضاف: «والله ما أرىٰ أنْ يُقتل رجلٌ منهم حتىٰ يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خيرٌ في العيش بعد ذلك! فارتأوا رأيكم»[5].

وهنا حاول حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أنّ يثبطا قريشًا عن القتال: فمما قاله عتبة: «إني أرىٰ قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير! يا قوم، اعصبوها اليوم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٤٠.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراب، ج١، ص ٢٩٣.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٦٢. وانظر أيضًا: تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٤٢.

برأسي، وقولوا: جَبُن عتبة بن ربيعة! ولقد علمتم أني لست بأجبنكم». وهنا احتد أبو جهل علىٰ عتبة وقال له: لقد ملئت رئتك وجوفك رعبًا! فقال عتبة: ستعلم اليوم أينا أجبن![1] وهكذا فشلت محاولات عتبة وحكيم بن حزام بسبب عناد أبي جهل وأمثاله. بل إن أبا جهل ذهب خطوة أبعد حين أرسل إلىٰ عامر بن الحضرمي -وهو أخو عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون في سرية نخلة- وأغراه أن يصرخ مطالبًا بثأر أخيه؛ فقام عامر واكتشف للناس، ثم حثا علىٰ رأسه التراب، ثم صرخ: واعمراه! فلاحت نُذُر الحرب واجتمع أمر قريش علىٰ ما هم عليه من الشر وأضاعوا الرأي الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام[2].

وقد نشبت الحرب حين شدَّ عامر بن الحضرمي بفرسه علىٰ جيش المسلمين[3]. ولم يجد عتبة وحكيم بن حزام مناصًا من أن يشتركا مع قومهما في القتال. وبدأ عتبة بدعوة المسلمين إلىٰ المبارزة، وكان معه ابنه الوليد وأخوه شيبة، فبرز له فتية من الأنصار فلم يُرضه ذلك وطلب أن يبرز إليهم أكفاؤهم من مسلمي قريش، فأمر الرسول ﷺ عمه حمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وعليّ بن أبي طالب أنْ يبرزوا إليهم. فلما عرفهم القوم قالوا: أكفاء كرام! فبارز حمزة عتبة بن ربيعة فقتله، وبارز عليّ الوليد بن عتبة فقتله، وبارز عبيدة بن الحارث -وكان أسن الثلاثة- شيبة بن ربيعة فجرح كلّ واحد منهما صاحبه، فأسرع حمزة وعليّ إلىٰ شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة بن الحارث وهو ينزف دمًا، فكان من بين شهداء بدر[4].

أشعلت هذه البداية المظفرة حماسة المسلمين، فحمي الوطيس، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»[5]. وأخذ ﷺ يحرض أصحابه علىٰ القتال بقوله: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٦٤-٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٤) المغازي، ج١، ص ٦٩، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ١٥٢. ويذكر ابن هشام (ج٢، ص ٢٦٥) والطبري (جـ ٢ ص ٤٤٥) رواية عن ابن إسحاق أنّ قاتل شيبة هو حمزة، وأن عتبة بارز عبيدة بن الحارث فجرح كلّ منهما صاحبه، ثم كر حمزة وعليّ علىٰ عتبة فقتلاه.

(٥) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٢٦٧.

اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلَّا أدخله الله الجنة». فقال أحد الصحابة -وهو عمير بن الحُمام، وكانت في يده تمرات يأكلهن-: بخ بخ!! فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلَّا أنّ يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وهو ينشد:

ركضًا إلىٰ الله بغير زاد إلَّا التقىٰ وعمل المعاد
والصبر في الله علىٰ الجهاد وكُلُّ زاد عرضة النفاد
غير التقىٰ والبر والرشاد[1]

وظل يقاتل القوم حتىٰ استشهد. وهكذا صدقت كلمة عتبة بن ربيعة لقريش: «إني أرىٰ قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير»!

وانجلىٰ اليوم وقد قتل من صناديد قريش سبعون أو يزيد، وأسر منهم سبعون أو يزيد[2]. أمّا المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر[3]. وكان بين من قتل من رؤوس الكفر يومئذ أبو جهل، وأمية بن خلف، وأبو البختري بن هاشم، وزمعة بن الأسود، وعامر بن الحضرمي، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وحنظلة بن أبي سفيان بن حرب، وطعيمة بن عدي. والجدير بالاعتبار أنّ بلال بن رباح كان وراء مقتل أمية بن خلف.

وأمية هذا -كما ذكرنا- كان يسوم بلالًا سوء العذاب ليكفر بمحمد ﷺ قبل الهجرة. وقد وقع أمية وابنه عليّ أسيرين في يد عبد الرحمن بن عوف يوم بدر. ثم إن بلالًا لمح أمية يمشي مع عبد الرحمن فصرخ بأعلىٰ صوته: «يا معشر الأنصار، أمية ابن خلف رأس الكفر، لا نجوتُ إن نجا!» فأسرع إليه من سمع نداءه من المسلمين «كأنهم عُوذٌ حنت إلىٰ أولادها»[4]، وأحاطوا بأمية وابنه فقتلوهما[5]. أمّا أبو جهل

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٤٨، والبداية والنهاية لابن كثير، ج٣، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٧٧.

(٤) العائذ: كل أنثىٰ إذا وضعت مدة سبعة أيام؛ لأن ولدها يعوذ بها، والجمع عُوذ. انظر مادة «عوذ» في لسان العرب، ج٤، ص ٣١٦٣.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٨٣.

فقد استطاع أحد الأنصار -وهو معاذ بن عمرو بن الجموح- أن يصل إليه رغم الحراسة المشددة التي أحاطه بها المشركون، ثم ضربه بسيفه ضربة أطاحت بقدمه. ولكن معاذًا جُرح جرحًا بالغًا بسيف عكرمة بن أبي جهل. ثم استطاع أنصاري آخر وهو معوَّذ بن عفراء (معوذ ابن الحارث بن رفاعة) أنْ يضرب أبا جهل ضربة تركته وبه رمق. فلما انجلت المعركة وانكشف المشركون أمر الرسول ﷺ بأبي جهل أنْ يلتمس في القتلىٰ، فذهب عبد الله بن مسعود يبحث عنه فوجده لم يفارق الحياة بعد. فوضع ابن مسعود رجله علىٰ عنقه وقال: الحمد لله الذي أخزاك! فقال: لقد ارتقيت مرتقىٰ صعبًا يا رُويعيَ الغنم! لمن الدائرة؟ قال ابن مسعود: لله ولرسوله. ثم قال له: إني قاتلك يا أبا جهل! قال: لست بأول عبد قتل سيّده؛ أما إن أشد ما لقيته اليوم في نفسي لقتلك إياي وألا يكون وَلِيَ قتلي رجل من الأحلاف أو من المطيبين! فأجهز عليه ابن مسعود واحتز رأسه[1].

أمّا أسرىٰ بدر فقد كان فيهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث[2]، وسهيل بن عمرو، وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ[3]، وعقبة بن أبي معيط الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، والنضر بن الحارث. وقد أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث. وقد كان هذان الرجلان -كما يقول ابن كثير- «من شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله»[4]. وقد استشار الرسول ﷺ أبا بكر وعمر بشأن جمهور الأسرىٰ: هل يقبل منهم الفداء أو يأمر بضرب أعناقهم؟ فأشار أبو بكر بقبول

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٨٩-٩٠، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٩٩.

(٢) فَدَىٰ العباس بن عبد المطلب يوم بدر نفسه وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وكان العباس ممن خرج مع المشركين إلىٰ بدر مكرهًا، وكذلك عقيل بن أبي طالب، وقد قال الرسول ﷺ يوم بدر: «**من لقي العباس فلا يقتله فإنه أخرج مكرهًا**»، وقيل إن العباس أسلم قبل الهجرة وكان يكتم إسلامه. أمّا عقيل فقد أتىٰ المدينة مسلمًا قبل الحديبية. أمّا نوفل فقيل إنه أسلم بعد فداء العباس له في بدر، وقيل إنه أسلم وهاجر أيام الخندق. راجع تراجم العباس وعقيل ونوفل في: أسد الغابة لابن الأثير، ج٣، ص١٦٤، ج٤، ص ٦٣، ج٥، ص ٣٦٩.

(٣) فرّق الشرك بين أبي العاص بن الربيع وزوجته زينب، ولما اعتنق أبو العاص الإسلام سنة ست من الهجرة رد رسول الله ﷺ إليه زينب بنكاح جديد. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٩٩.

(٤) البداية والنهاية، ج٣، ص ٣٠٦.

الفداء، وقال في ذلك: «يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرىٰ أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسىٰ الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدًا». أمّا عمر فأشار بضرب أعناقهم وقال في تبريره لذلك: «حتىٰ يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار؛ هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم». فقبل رسول الله ﷺ رأي أبي بكر. ثم نزل القرآن مؤيدًا لرأي عمر ومعاتبًا لرسول الله ﷺ علىٰ قبول الفداء؛ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨][١]. ويروىٰ أنه عندما نزلت هاتان الآيتان جلس الرسول ﷺ وأبو بكر يبكيان تأثرًا من هذا العتاب، فدخل عليهما عمر وهما كذلك فقال: «يا رسول الله! أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيتُ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما»! فأخبره ﷺ بما نزل من القرآن من عتاب في فداء الأسرىٰ، وقال له: «لقد عرض عليَّ عذابكم أدنىٰ من هذه الشجرة»، مشيرًا إلىٰ شجرة قريبة[٢]. ومن المناسب أن نشير هنا إلىٰ موقف لسعد بن معاذ شبيه بموقف عمر، فعندما دارت الدائرة علىٰ المشركين في أثناء معركة بدر أقبل المسلمون علىٰ الكفار يأسرونهم. فرأىٰ رسول الله ﷺ الكراهية في وجه سعد لما يصنع الناس، فقال له: «لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس»! فقال سعد: «أجل -والله- يا رسول الله؛ كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين، فكان الإثخان في القتل أعجب إليَّ (أو أحبَّ إليَّ) من استبقاء الرجال»[٣]. وعندما اشتد عود الإسلام أباح الله للمسلمين أن يأسروا أعداءهم وأن يقبلوا الفداء منهم.

❊ ❊ ❊

هذا هو يوم بدر الذي يسمىٰ «يوم الفرقان»[٤] لأنه كان فارقًا بين الحق والباطل.

---

(١) (لَوْلَا كتابٌ منَ الله سَبَقَ): أي لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أنه لا يعاقب أحدًا بخطأ غير مقصود، وكان هذا خطأ في الاجتهاد. الكشاف للزمخشري، ج٢، ص ٢٣٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

(٤) في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، فالمقصود بيوم الفرقان هنا يوم بدر، والجمعان هما الفريقان من المسلمين والكافرين. الزمخشري: الكشاف، ج٢، ص ٢٢٣.

وهناك إجماع من المؤرخين علىٰ أنّ تاريخ هذا اليوم -أو تلك المعركة- هو رمضان من السنة الثانية للهجرة، ولكنهم يختلفون حول تحديد هذا اليوم. علىٰ أنّ الرواية التي يقبلها معظم المؤرخين هي أنّ تلك المعركة كانت يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان[1].

أهم نتائج غزوة بدر:

تمثل غزوة بدر نقطة تحول أساسية في تاريخ المسلمين، وقد كانت لهذه الغزوة نتائج بارزة لعل أهمها ما يأتي:

أولًا: كان لانتصار المسلمين في غزوة بدر صدىٰ هائل لا في المدينة أو مكة وحدهما بل في الجزيرة العربية كلها. فقبل سنوات ثلاث أو أربع كان الرسول ﷺ في مكة يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب في المواسم ملتمسًا أن ينصروه ويمنعوه حتىٰ يبلغ رسالة ربه، ولم تكن للمسلمين دار آمنة ولا كان لأتباعه بصفة عامة شوكة ومنعة. ثم هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة وكان الطرفان: المسلمون والمشركون، في حالة ترقب، ثم جاءت غزوة بدر لتؤكد للجميع أنّ المسلمين أصبحوا قوة مرهوبة الجانب لا مطمع فيها لطامع. وهكذا كان لغزوة بدر الفضل في ترسيخ أقدام الإسلام في شبه الجزيرة العربية وفي تعزيز الثقة لدىٰ المسلمين في نصر الله -سبحانه- وخاصة بعد أن رأوا رأي العين أنّ العدد القليل المتسلح بالإيمان قادر علىٰ أنْ يهزم أضعافه من عبيد الدنيا وعبدة الطاغوت.

ثانيًا: كان لانتصار بدر أيضًا أثر جاوز توطيد مكانة المسلمين في شبه الجزيرة العربية إلىٰ نشر كلمة الإسلام. فلا شك أنّ هذا الدين الذي نجح أتباعه في قهر قريش بجموعها وخيلائها رغم قلة عددهم لجدير بأن يثير فضول الكثير من العرب ممن سمعوا بهذا النصر، وجدير بأن يجعلهم يحاولون الوقوف علىٰ ما فيه من دعوة وتوجيه؛ وكان ذلك مقدمة طبيعية أمام الكثيرين للانضواء تحت لوائه.

ثالثًا: مما لا ينكر أنّ انتصار المسلمين في بدر كان لطمة قاسية لقريش زلزلت كيانها وأفقدتها الثقة في نفسها والقدرة علىٰ التوازن. لقد قتل الكثير من رؤوس الكفر

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٢٦٦، تاريخ الطبري ج٢، ص ٤٤٦، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٥، عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، ج١، ص ١١١.

في هذه الغزوة من صناديد قريش كأبي جهل، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم. بل إن أبا لهب الذي لم يشترك في المعركة مات كمدًا بعدها ببضعة أيام. فليس من المستغرب -إذن- أن نرىٰ قريشًا بعد بدر لا تقوىٰ علىٰ مواجهة المسلمين بمفردها بل تحاول أنْ تستنصر عليهم سواها من قبائل العرب أو حتىٰ اليهود، وما ذلك إلَّا اتقاء لتلك القوة الإسلامية المتنامية في المدينة.

رابعًا: بعد انتصار المسلمين في بدر -وبسبب هذا الانتصار -بدأ يهود المدينة يُظْهرون بعض ما كانوا يخفونه تجاه المسلمين من حسد وضغينة، بل يروىٰ أنّ يهود بني قينقاع قالوا للرسول ﷺ حين عرض عليهم الإسلام بعد بدر: «يا محمد، إنك ترىٰ أنا كقومك! لا يغرّنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة! إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنا نحن الناس»![1] وسوف يكون للرسول ﷺ موقف من يهود المدينة بصفة عامة سنتحدث عنه في موضعه.

في أعقاب بدر:

لم يكن من السهل علىٰ قريش أن تتقبل هزيمتها في بدر وأن تنسىٰ ما لحقها من مهانة علىٰ أيدي المسلمين؛ ولهذا يروىٰ أنّ أبا سفيان نهىٰ قريشًا أن تبكي علىٰ قتلاهم حتىٰ يدركوا ثأرهم من المسلمين، ونذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتىٰ يغزو محمدًا[2]، ولم تكن امرأته هند بنت عتبة بن ربيعة بأقل منه في التعبير عن إصرارها علىٰ الثأر؛ فيروىٰ عنها أنها قالت: «الدهن عليّ حرام إن دخل رأسي حتىٰ نغزو محمدًا، والله لو أعلم أنّ الحزن يذهب من قلبي بكيت! ولكن لا يُذهبه إلَّا أنْ أرىٰ ثأري بعيني من قتلة الأحبة»[3]!

في هذا الجو المفعم بروح الثأر من جانب قريش خرج أبو سفيان في مائتي راكب، وقيل في أربعين راكبًا، يريد المدينة، والتقىٰ بأحد رؤساء اليهود بها وهو سلّام بن مِشْكَم ليتعرف منه إلىٰ أخبار النبي ﷺ والمسلمين[4]. وقد تمكن أبو سفيان ورجاله

(١) تاريخ الطبري: ج٢، ص ٤٧٩.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١.

-في أثناء خروجهم هذا- من قتل رجل أنصاري وأجير له كان يعمل في حرث لهذا الأنصاري بالمدينة، كما أحرقوا بيتين بالمدينة وبعض النخيل هناك، ثم انصرفوا هاربين. وعندما انتهىٰ خبر ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ خرج في طلبهم حتىٰ بلغ مكانًا يقال له: «قَرْقَرَة الكُدْر» فلم يدركهم، وكان أبو سفيان ورجاله في أثناء هروبهم يتخففون فيلقون أكثر ما معهم من جُرُب السويق[1]. وقد استولىٰ المسلمون علىٰ ذلك فعرفت هذه الغزوة بـ (غزوة السويق) وكانت في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة[2].

وقد كان الرسول ﷺ يتحين الفرصة لتأديب قريش علىٰ ما صنعت، فعلم بخروج عير لقريش في تجارة إلىٰ الشام، وكان علىٰ العير صفوان بن أمية بن خلف، ومعه عبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب بن عبد العزىٰ وآخرون من أعيان قريش. وقد سلكت العير إلىٰ الشام طريقًا غير مألوف هو طريق العراق، خوفًا من تكرار ما حدث في بدر. وهنا ندب الرسول ﷺ زيد بن حارثة في مائة راكب لمهاجمة هذه العير، فاستطاع زيد أن يدركها عند ماء من مياه نجد يقال له: «القَرَدة»، ومن ثم عرفت هذه السرية بـ «سرية القردة». وقد استولىٰ زيد علىٰ العير وما فيها ولكنه لم يتمكن من أعيان القوم الذين أعجزوه هربًا، ومع ذلك فقد أسر رجلًا أو رجلين ممن كانوا مع العير. وقد حدثت هذه السرية في جمادىٰ الآخرة في السنة الثالثة للهجرة[3]. ولم تمر عليها غير بضعة أشهر حتىٰ كانت غزوة أحد بكل ما لها من أهمية في تاريخ العلاقات بين المسلمين ومشركي قريش.

غزوة أحد: (شوال ٣هـ - مارس ٦٢٥م):

لم يكن ما حدث من مناوشات بسيطة بين المكيين والمسلمين في أعقاب بدر ليشفي رغبة قريش في الثأر من الرسول ﷺ وأصحابه؛ ومن هنا مشىٰ بعض أعيان قريش من أمثال عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان ابن أمية، والحارث بن هشام وغيرهم ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم

---

(١) السويق طعام يتخذ من دقيق القمح والشعير.

(٢) خرج الرسول ﷺ من المدينة يوم الأحد في الخامس من ذي الحجة وغاب عن المدينة خمسة أيام. المغازي للواقدي، ج١، ص ١٨١.

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ: الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٧-١٩٨، وسيرة ابن هشام، ج٢ ص ٤٢٩-٤٣٠، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٩٢-٤٩٣.

بدر، فجاءوا أبا سفيان بن حرب فقالوا له: «يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدمت بها، فاحتبسها؛ فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش[1]، وهم طيبو الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشًا إلىٰ محمد، وقد ترىٰ من قُتِل من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا»! فقال أبو سفيان: «وقد طابت أنفس قريش بذلك»؟ قالوا: نعم. قال: «فأنا أول من أجاب إلىٰ ذلك وبنو عبد مناف معي، فأنا والله الموتور الثائر! قد قتل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي»[2]. وكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار[3].

بعد أن أجمعت قريش أمرها علىٰ قتال المسلمين رأت أن تستعين في ذلك بمن استطاعت أن تضمه إلىٰ صفوفها من الأحابيش[4] ومن عبد مناة بن كنانة وثقيف[5]، فاجتمع لقريش ثلاثة آلاف رجل، من بينهم مائتا فارس وسبعمائة دارع، وفي الجيش ثلاثة آلاف بعير[6].

تولىٰ القيادة العامّة لجيش المشركين أبو سفيان بن حرب الذي خرجت معه امرأتاه هند بنت عتبة بن ربيعة، وأميمة بنت سعد بن وهب، كما خرج آخرون من المشركين بنسائهم التماسًا للغضب والحمية وتجنبًا للفرار[7]. وكان علىٰ ميمنة الجيش خالد بن الوليد، وعلىٰ الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلىٰ الخيل صفوان بن أمية (ويقال عمرو بن العاص) وعلىٰ الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رامٍ. وكان يحمل لواءهم طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار[8].

---

(١) اللطيمة: يقصد بها هنا العير بما تحمله من السلع التجارية.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) الأحابيش هم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة، وقد اجتمعوا عند جبل بأسفل مكة يقال له حُبشي فحالفوا قريشًا وتحالفوا بالله إنَّا ليدٌ علىٰ غيرنا ما سجا ليلٌ ووضح نهار وما أرسىٰ حُبْشيٌّ مكانه فسموا أحابيش قريش باسم الجبل. انظر مادة (حَبَش) في لسان العرب لابن منظور، ج٢، ص ٧٥٤.

(٥) المغازي للواقدي، ج١، ص ٢٠٠-٢٠١، وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤.

(٦) المغازي، ج١، ص ٢٠٣.

(٧) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٢-٢٠٣، والأغاني للأصفهاني، ج١٥، ص ١٨١.

(٨) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٢٠.

أبلغ العباس بن عبد المطلب رسول الله ﷺ بتحرك جيش قريش وبعدده وعدته في كتاب أرسله إليه من مكة مع رجل من بني غفار[1]، فجمع الرسول ﷺ أصحابه واستشارهم في الإجراء الذي ينبغي أنْ يتخذه لمواجهة هذا الموقف: فهو إما أنْ يخرج بأصحابه من المدينة للقاء العدو، وإما أنْ يتحصن المسلمون داخلها فإن حاول العدو اقتحامها قاتلوه فيها. وكان الخيار الثاني هو الأمثل عنده؛ وقال وهو يعرض وجهة نظره: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوها علينا قاتلناهم فيها»[2].

ولكن جمهور المسلمين آثروا الخروج من المدينة للقاء العدو؛ وذلك لأنهم رأوا أنّ بقاءهم داخل المدينة ربما تفسره قريش علىٰ أنه جبن ونكوص عن القتال، وهم في الوقت نفسه قد أنفوا أن يسمحوا لقريش بانتهاك حرمة المدينة. وقد أفاض الصحابة في الدفاع عن وجهة نظرهم هذه أمام الرسول ﷺ. فمما قاله إياس بن أوس الأنصاري في ذلك: «... يا رسول الله، لا أحب أنْ ترجع قريش إلىٰ قومها فيقولون: حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وآطامها! فيكون هذا جرأة لقريش، وقد وطئوا سعفنا، فإذا لم نذب عن عرضنا لم نزرع، وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا ولا يطمعون بهذا منا حتىٰ نخرج إليهم بأسيافنا حتىٰ نذبهم عنا، فنحن اليوم أحق إذ أيدنا الله بك وعرفنا مصيرنا لا نحصر أنفسنا في بيوتنا». وقال حمزة بن عبد المطلب: «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتىٰ أجالدهم بسيفي خارجًا من المدينة»![3] وهكذا لم يجد رسول الله ﷺ بدًّا من النزول علىٰ رأي جمهور أصحابه، إعمالًا لمبدأ الشورىٰ الذي أمره الله باتباعه؛ فخرج في ألف من أصحابه. ثم تراجع عبد الله بن أبي بن سلول، وعاد بثلث الناس حين كان ببعض الطريق، وذلك لغضبه من استجابة رسول الله ﷺ لرأي الأغلبية، ولم تفلح محاولات بعض الصحابة في حث عبد الله بن أبي ورجاله علىٰ المضي مع الرسول ﷺ لحرب المشركين[4].

---

(١) المصدر نفسه ج١، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٧.

(٣) لمزيد من التفصيل ارجع إلىٰ الواقدي في المغازي، ج١، ص ٢١٠-٢١٣.

(٤) المغازي للواقدي، ج١، ص ٢١٩، وسيرة ابن هشام، ج٣ ص ٨. والأغاني للأصفهاني، ج١٥، ص ١٨٣.

ومضىٰ رسول الله ﷺ بمن بقي من أصحابه، وكانوا سبعمائة، حتىٰ نزل بجوار جبل أحد، فجعل ظهره وعسكره إلىٰ أحد، وأخذ ينظم جيشه، فجعل فرقة الرماة خمسين رجلًا، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، واختار «تل عينين» جنوبي أحد ليكون مركزًا له(١)، وقسم جيشه إلىٰ ميمنة وميسرة، ودفع لواءه الأعظم إلىٰ مصعب بن عمير، ودفع لواء الأوس إلىٰ أسيد بن خضير، ولواء الخزرج إلىٰ سعد بن عبادة (أو الحباب بن المنذر)(٢). وكان في جيش المسلمين فَرَسان ومائة دارع(٣).

ونظرًا لكثافة خيل المشركين في «أحد» وجَّه الرسول ﷺ اهتمامًا خاصًا لجماعة الرماة إدراكًا منه لخطورة دورهم في دفع الخيل عن معسكر المسلمين؛ ومن هنا أصدر ﷺ تعليماته الحاسمة للرماة بألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت تطورات المعركة. ومما قاله في ذلك: «احموا لنا ظهورنا، فإنا نخاف أنْ نؤتىٰ من ورائنا. والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتىٰ ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا! اللهم إني أشهدك عليهم! وارشقوا خيلهم بالنَّبْل فإنَّ الخيل لا تقدم علىٰ النبل»(٤).

وبدأت المعركة حين صاح طلحة بن أبي طلحة العبدري -حامل لواء المشركين- في وجه المسلمين قائلًا: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فضربه بسيفه فصرعه(٥). ثم احتدم القتال. وأخذت نساء قريش -بزعامة هند بنت عتبة- يضربن بالدفوف وينشدن إلهابًا لحماسة المشركين:

نحن بنات طارق ... نمشي علىٰ النمارق

إن تقبلوا نعانق ... أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق(٦)

---

(١) المغازي، ج١، ص ٢١٩. وانظر أيضًا: أطلس التاريخ الإسلامي للدكتور حسين مؤنس، ص ١٠٢.

(٢) المغازي، ج١، ص ٢٢٥. وانظر ايضًا: أنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ٣١٦-٣١٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣١٦. أما الفَرَسان فقد كان أحدهما لرسول الله ﷺ، والآخر لأبي بردة بن نيار الحارثي. الأغاني للأصفهاني، ج١٥، ص ١٨٣، والطبري ج٢، ص ٥٠٥.

(٤) المغازي، ج١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٥-٢٢٦. وطلحة العبدري هو طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزىٰ بن عثمان بن عبد الدار. انظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٢٧.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣١٧. و«نحن بنات طارق»: أي نحن بنات الكواكب، لرفعتها =

وكان الرسول ﷺ إذا سمع ذلك منهن قال: «**اللهم إني بك أجول وأصول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل**»[1].

وسارت المعركة في بدايتها في صالح المسلمين تمامًا، وأبدىٰ أصحاب رسول الله ﷺ من صور البطولة ما يسجله التاريخ بالإجلال والإعجاب. ومن ذلك ما يرویٰ من أنّ الرسول ﷺ قال لأصحابه في بداية المعركة وهو ممسك بسيفه: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فقام إليه أبو دُجانة سماك بن خَرَشَة فقال: «وما حقه يا رسول الله؟»، قال: «**أن تضرب به العدو حتىٰ ينحني**»! فقال أبو دجانة: «أنا آخذه بحقه يا رسول الله» فأعطاه الرسول ﷺ إياه، فاعتصب أبو دجانة بعصابة له حمراء كان من عادته أن يعتصب بها عند القتال، ثم مشىٰ بين الصفوف يتبختر بسيف رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**إنها لمشية يبغضها الله إلّا في مثل هذا الموطن**». وعندما احتدم القتال كان أبو دجانة لا يلقىٰ أحدًا إلّا قتله، ولكنه رفض أن يقتل امرأة كانت تقاتل في صفوف المشركين، فلما سئل في ذلك قال: أكرمت سيف رسول الله ﷺ أنْ أضرب به امرأة[2]!

وتوالت بطولات المسلمين، وشد الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو علىٰ المشركين فهزماهم، وعندما رأىٰ خالد بن الوليد هزيمة قريش أراد أنْ يضعضع صفوف المسلمين فحمل عليهم في بعض فرسان المشركين فرمته الرماة فانقمع[3] وأصبحت هزيمة المشركين النهائية أمام المسلمين أمرًا وشيكًا. وهنا حدث من التطورات ما قلب موازين المعركة، وأحال نصر المسلمين إلىٰ هزيمة.

= وأنها لا تنال. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢، ٣]، ويقال إن امرأتين من نساء المشركين هما رملة بنت طارق، وأم حكيم بنت طارق قالتا ذلك، وقال النساء معهما. وكانت امرأة من بني شيبان قالت في أحد الأيام التي دارت بين بكر وتغلب:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

فحاكت نساء قريش في «أحد» قولها. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٤. وقارن بما في تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥١٠-٥١١.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥١٠.

فقد ذكرنا منذ قليل أنّ الرسول ﷺ أوصىٰ الرماة ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت التطورات. بل إن الرسول ﷺ قال مؤكدًا توجيهاته لهم: «اللهم إني أشهدك عليهم»! ولكن معظم الرماة نسوا هذه التوجيهات عندما رأوا الهزيمة تحل بالمشركين ونظروا إلىٰ رسول الله ﷺ والمسلمين وهم في جوف معسكر قريش يجمعون الغنائم، فصاحوا: الغنيمة! الغنيمة! وتركوا مواقعهم[١]. وعبثًا حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يذكرهم بأمر رسول الله ﷺ «فلم يبق من الرماة مع أميرهم عبد الله بن جبير إلّا نُفَيرٌ ما يبلغون العشرة»[٢]. وانتهز خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما من فرسان المشركين هذه الفرصة السانحة، فحملوا علىٰ رماة المسلمين فقتلوهم، واستشهد في تلك الحملة عبد الله بن جبير[٣].

وهكذا انكشف ظهر المسلمين أمام عدوهم، فدخل فرسان المشركين عسكر المسلمين دون أنْ يجدوا من يتصدىٰ لهم؛ «قد ضُيِّعت الثغور التي كان بها الرماة»! ومن ثم دخل المشركون بخيولهم «علىٰ قوم غارِّين آمنين، فوضعوا فيهم السيف فقتلوا فيهم قتلا ذريعًا، وتفرق المسلمون في كلّ وجه»[٤].

وفي غمرة هذه الفوضىٰ والاضطراب حمل رجل من المشركين يقال له «ابن قميئة الليثي» علىٰ مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين فقتله وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلىٰ قريش يقول لهم: قتلت محمدًا[٥]. وسرت إشاعة قتل رسول الله ﷺ بين صفوف المسلمين فزلزلوا زلزالًا شديدًا، وولّىٰ كثير منهم الأدبار وهم يقولون: «يا قوم إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلىٰ قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم»! وهنا صاح أنس بن النضر في المسلمين: «يا قوم إن كان محمد قد قتل فإنّ رب محمد لم يقتل؛ فقاتلوا علىٰ ما قاتل عليه محمد ﷺ. اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء»! ثم قاتل حتىٰ استشهد[٦]، فوجد المسلمون به سبعين ضربة وطعنة،

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ج٢، ص ٩٣.
(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣١.
(٥) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥١٦.
(٦) المصدر نفسه، ص ٥٢٠.

فقال عمر بن الخطاب: «إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده يوم القيامة»[1].

ثم علم المسلمون أنّ الرسول ﷺ لم يقتل فاطمأنت نفوسهم وثاب إليه الكثيرون منهم وأحاطوا به وكونوا من أجسادهم ترسًا يصد عنه هجمة قريش. ومما يروىٰ في هذا الصدد أنّ أبا دجانة «ترّس دون رسول الله ﷺ بنفسه؛ يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه حتىٰ كثرت فيه النبل»[2]. وممن وقف أيضًا بجانب الرسول ﷺ خلال تلك الهجمة الشرسة عليّ بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، والحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهيل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ. ويروىٰ أنه «ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلًا كلهم يقول: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودَّع»![3].

وكان الرسول ﷺ ثابتًا كالطود طوال تلك المعركة الشرسة، وعليه درعان ومغفر وبيضة فوق المغفر[4]، وباشر القتال بنفسه غير هياب، ويصف المقداد بن عمرو بعض مشاهد هذه المعركة فيقول: «نادىٰ المشركون بشعارهم: يا للعزىٰ. يا آل هبل! فأوجعوا والله فينا قتلًا ذريعًا، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا، لا والذي بعثه بالحق إن رأيت رسول الله ﷺ زال شبرًا واحدًا! إنه لفي وجه العدو، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه مرة»[5]! ومما يروىٰ في هذا السياق أيضًا أنّ أبي بن خلف كان أحد الذين تعاهدوا وتعاقدوا علىٰ قتل رسول الله ﷺ، فلما رآه يوم «أحد» أقبل إليه يركض علىٰ فرسه وهو يصيح: يا محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ! فهمَّ بعض الصحابة بالتصدي له فرفض الرسول ﷺ، «ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير. ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إذا جدّ الجدّ. ثم أخذ الحربة فطعنه رسول الله ﷺ بالحربة في عنقه وهو علىٰ فرسه، فجعل يخور كما يخور الثور»[6]. ومات متأثرًا بطعنته.

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٨٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥١٥-٥١٦.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٩. والمِغْفَر: زَرَد يُنسج من الدروع علىٰ قدر الرأس يلبس تحت البَيضة وهي الخوذة.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

ورغم إحاطة الصحابة بالرسول ﷺ في اثناء المعركة فقد استطاع بعض المشركين أن يلحق به بعض الأذىٰ والجراحات؛ فشُج في وجهه وكسرت إحدىٰ أسنانه وجرحت شفته. وكان مِنْ بين مَنْ أصابه من المشركين عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص(١). ولهذا يروىٰ عن سعد أنه قال في هذا الموقف: «والله ما حرصت علىٰ قتل رجل قط ما حرصت علىٰ قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت لسيئ الخلق مُبغَّضًا في قومه. ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله علىٰ من دمَّىٰ وجه رسول الله**»»(٢).

وقد قامت النساء المسلمات بدور يستحق التنويه في معركة أحد؛ فقد كن يسقين العطشىٰ، ويداوين الجرحىٰ(٣)، بل إن بعضهن اشتركن اشتراكًا فعليًا في القتال؛ ومن هؤلاء نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية، وكنيتها أم عمارة، وهي ممن شهد بيعة العقبة الثانية(٤)، فقد خرجت نسيبة يوم أحد لتسقي الجرحىٰ، ثم قاتلت وأبلت بلاء حسنًا، «فجرحت اثني عشر جرحًا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف»(٥). ويروىٰ أنها قالت بهذه المناسبة: «لما انهزم المسلمون انحزت إلىٰ رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس حتىٰ خلصت إليَّ الجراحات»!(٦) ولهذا يؤثر عن الرسول ﷺ أنه قال في جهادها يوم أحد: «**ما التفت يمينًا ولا شمالا إلَّا وأنا أراها تقاتل دوني**»(٧)، وقال أيضًا: «**المقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان**»(٨)!

انجلت معركة أحد وقد استشهد من المسلمين سبعون، يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا(٩). وكان من بين شهداء أحد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، ولكنه لم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٤. وقد رمىٰ عتبة شفة رسول الله ﷺ وأصاب رباعيته.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥١٩.

(٣) المغازي، ج١، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٤) انظر ترجمة نسيبة بنت كعب في: أسد الغابة لابن الأثير، ج٧، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٢٨، وتاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٨.

يقتل إلَّا بعد أنْ أمعن في الكفار وأبلىٰ البلاء الحسن. وكان استشهاده علىٰ يد «وحشي» غلام جبير بن مطعم. ويذكر المؤرخون عن وحشي هذا أنه «كان حبشيًا يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطئ بها». فدعاه سيده جبير بن مطعم، وقال له: «اخرج مع الناس؛ فإن أنت قتلت عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق». فخرج «وحشي» مع قريش وأخذ يتحين الفرصة لحمزة حتىٰ رآه «وهو يهدُّ[1] الناس بسيفه، ما يليق[2] شيئًا يمر به». وهنا يشرح «وحشي» كيف قتل حمزة فيقول: «وهززت حربتي، حتىٰ إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في لبته حتىٰ خرجت من بين رجليه، وأقبل نحوي، فغُلِب فوقع، فأمهلته حتىٰ إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت إلىٰ العسكر، ولم يكن لي بشيء حاجة غيره»[3]. وقد مثلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بحمزة الذي قتل أباها عتبة بن ربيعة في بدر وشارك في قتل عمها شيبة، فأخذت كبده فلاكتها ثم لفظتها، وجدعت أنفه وقطعت أذنيه، وأنعمت علىٰ «وحشي» نظير ما أدركته علىٰ يده من ثأرها من حمزة[4].

وقد اشتد علىٰ رسول الله ﷺ قتل حمزة؛ فيروىٰ أنه عندما وقف عليه صريعًا قال: «لن أصاب بمثلك أبدًا! ما وقفتُ موقفًا قطُّ أغيظ إليّ من هذا»! ثم ذكر أنه مكتوب في أهل السماوات السبع أنّ حمزة أسد الله وأسد رسوله[5].

لقد كان يوم أحد «يوم بلاء وتمحيص» كما يقول ابن إسحاق[6]. ولا شك أنّ المسلمين استفادوا من دروسه العميقة أعظم الفائدة؛ فقد عرفوا أنّ الحرص علىٰ حطام الدنيا لا ينبغي أن يلابس جهادهم في سبيل الله، وإلا كانت النتائج وخيمة، كما أدركوا تمامًا أنّ عدم الالتزام بأوامر القائد يوردهم موارد الهلاك. ثم إنهم فهموا قيمة الاستبسال دفاعًا عن العقيدة؛ فقد استبسلوا في بدر -رغم قلتهم- فكلل الله جهادهم بالنصر، ولكنهم تخاذلوا في أحد فانتهوا إلىٰ الهزيمة. لقد استوعب

---

(١) يهدّ بالسيف: أي يقطع.

(٢) «ما يليق شيء يمر به»؛ أي: ما يبقي علىٰ شيء.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥١٧.

(٤) المغازي، ج١، ص ٢٨٦.

(٥) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٧. وانظر أيضًا: مغازي الواقدي، ج١، ص ٢٩٠.

(٦) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٦. والبداية والنهاية لابن كثير، ج٤، ص ٢٤.

المسلمون كلّ هذه الدروس من محنة الهزيمة في أحد، وعرف الرسول ﷺ ذلك من أصحابه؛ ولهذا قال: «لن ينالوا منّا مثلها حتىٰ تستلموا الركن»[1]! أي إنّ قريشًا لن تلحق بالمسلمين هزيمة بعدها حتىٰ يفتحوا مكة.

والحق أنّ انتصار قريش في معركة «أُحُد» لم يكن انتصارًا حاسمًا علىٰ الإطلاق؛ بل يمكن القول إنه كان انتصارًا شكليًا. ذلك أنّ الانتصار يقاس بمدىٰ تحقق أهداف المعركة. وقد كان الهدف الاستراتيجي لقريش من وراء معركة أحد -كما يذكر مونتجومري وات -هو تحطيم الجماعة الإسلامية الناشئة، أو- علىٰ الأقل- القضاء علىٰ محمد ﷺ علىٰ أساس أنّ ذلك وسيلة لتحطيم تلك الجماعة. ولكن قريشًا لم تحقق أيًا من هذين الهدفين. فلا هي حطمت الجماعة الإسلامية في المدينة، ولا استطاعت القضاء علىٰ محمد ﷺ[2]. والملاحظ أنّ قريشًا -بعد انتصارها في أحد- لم تجرؤ علىٰ مطاردة المسلمين وهم عائدون إلىٰ المدينة، فقد كانت تدرك أنّ المسلمين ما زالوا قوة يحسب حسابها. وقد عبر صفوان بن أمية عن ذلك خير تعبير عندما قال لقريش يثنيها عن التفكير في مطاردة المسلمين: «قد أصبتم القوم، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنت كالُّون ولكم الظفر؛ فإنك لا تدرون ما يغشاكم ...»![3] وكان الرسول ﷺ قد أرسل سعد بن أبي وقاص -بعد انتهاء معركة أحد- ليأتيه بخبر قريش وليعرف أين وجهتهم، وقال له في ذلك: «إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظَّعن، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهي الغارة علىٰ المدينة. والذي نفسي بيده لئن ساروا إليها لأسيرنَّ إليهم ثم لأناجزنهم»[4].

لم تجرؤ قريش -إذن- علىٰ السير إلىٰ المدينة، بل سارت إلىٰ مكة، وذلك بعد أنْ حاول أبو سفيان عبثًا أنْ يزعزع يقين المسلمين وأن يصور لهم أنّ انتصار قريش في تلك المعركة يمثل انتصارًا لدينها ولما تعبد من دون الله من أصنام، فيروىٰ أنه أشرف علىٰ جبل أحد ثم صرخ بأعلىٰ صوته وأصحاب رسول الله ﷺ يسمعون: «اعلُ هُبَل»!

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٠.

(2) M. Watt, Muhammad at Medina. PP. 26-28.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

أي انتصر يا هبل علىٰ دين محمد. فأمر الرسول ﷺ عمر أن يجيبه بقوله: «الله أعلىٰ وأجل»! فقال أبو سفيان: «يوم بيوم بدر! ألا إن الأيام دول، وإن الحرب سجال:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَرّ

فلان بفلان، وفلان بفلان، فأجابه عمر: «لا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار»! فقال أبو سفيان: «إنكم لتقولون ذلك! لقد خبنا إذن وخسرنا! لنا العُزىٰ ولا عزىٰ لكم»! فقال عمر: الله مولانا ولا مولىٰ لكم»! ثم انصرف أبو سفيان وهو يقول: «إن موعدكم بدر للعام المقبل». فأمر الرسول ﷺ عمر أن يجيبه: «نعم، هي بيننا وبينك موعد»[1].

حدثت موقعة أحد في شوال سنة ٣هـ (مارس ٦٢٥م). ويذكر الواقدي والبلاذري أنها كانت في السابع من شوال[2]، في حين يذكر ابن إسحاق أنها كانت في الخامس عشر من شوال[3]. وقد نزل في هذه المعركة من آي الذكر الحكيم من سورة آل عمران ما يُثَبِّت من عزم المسلمين ويقوي يقينهم ويحذرهم مما لا يليق بهم من الفرار أمام أعداء الله. وقد أورد ابن إسحاق والواقدي وغيرهما هذه الآيات مع التعليق عليها[4]. فمن ذلك قوله تعالىٰ تثبيتًا للمسلمين وتمكينًا لروح الثقة فيهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١].

وقوله سبحانه مشيرًا إلىٰ ما أشيع من قتل رسول الله ﷺ وما تلاه من فرار بعض المسلمين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد جاءت الإشارة إلىٰ الرماة وعصيانهم أمر رسول الله ﷺ باندفاعهم نحو الغنيمة

---

(١) راجع: سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٥، والمغازي للواقدي، ج١، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ وأنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ٣٢٧، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٢٦-٥٢٧.

(٢) المغازي، ج١، ص ١٩٩، وأنساب الأشراف، ج١، ص ٣١١-٣١٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٥٢، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٠٢.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٥٨-٧٥؛ والمغازي للواقدي، ج١، ص ٣١٩-٣٢٩.

بعد أنْ أراهم الله ما أحبوا من النصر، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

في أعقاب أحد:

رأينا أنّ الرسول ﷺ كان يخشىٰ أن يتوجه المشركون إلىٰ المدينة ليقتحموها بعد انكسار المسلمين في أحد. وبعد أن علم أنّ وجهتهم مكة أراد أن يؤكد لقريش أنّ ما أصاب المسلمين في أحد لم يُضعف من قوتهم وعزيمتهم(١)، فخرج يطلب العدو في اليوم التالي لمعركة أحد وهو السادس عشر من شوال (طبقًا لرواية ابن إسحاق)(٢) أو الثامن من شوال (طبقًا لرواية الواقدي)(٣). وقد طلب الرسول ﷺ ألا يخرج «إلَّا من شهد القتال بالأمس» أي حضر معركة أحد(٤). فأجابه المسلمون وخرجوا معه وقد فشت فيهم الجراحات. وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح في وجهه وشفته ومشجوج في جبهته، وكان بأسيد بن حضير سبع جراحات، وبالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا، وبخراش بن الصمة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحًا، وبطلحة بن عبيد الله تسع جراحات .. وهكذا عامة أصحاب النبي ﷺ وفيهم نزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢](٥). وقال الرسول ﷺ لطلحة وهو يتأهب للخروج: «أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منَّا مثل أمس حتىٰ يفتح الله مكة علينا»(٦). وقد تقدم الرسول ﷺ بأصحابه وهم علىٰ هذه الحال حتىٰ وصلوا إلىٰ مكان يقال له: «حمراء الأسد» وهو علىٰ بعد ثمانية أميال جنوبي المدينة. وكان لواء الرسول ﷺ في يد عليّ بن أبي طالب. وأمر الرسول أصحابه بأن يوقدوا النيران، فكانت ترىٰ من المكان

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٣٤.

(٢) انظر رواية ابن إسحاق في تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٣٤.

(٣) المغازي، ج١، ص ٣٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(٦) المغازي، ج١، ص ٣٣٧.

البعيد. يقول الصحابي الجليل جابر بن عبد الله، وكان ممن شهد حمراء الأسد: «ذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كلّ وجه حتىٰ كان مما كبت الله تعالىٰ به عدونا»[1].

ولم تجرؤ قريش علىٰ مواجهة المسلمين في حمراء الأسد رغم علمها بخروجهم، فأقام الرسول ﷺ والمسلمون بها ثلاثة أيام ثم رجعوا إلىٰ المدينة[2].

ولم ينس الرسول ﷺ ما قاله أبو سفيان للمسلمين في نهاية معركة أحد: «إن موعدكم بدر للعام المقبل»؛ ولم ينس أيضًا قبوله لهذا التحدي عندما أمر عمر أن يجيبه: «نعم هي بيننا وبينك موعد». فخرج الرسول ﷺ من المدينة ووصل بدرًا في مطلع ذي القعدة من العام الرابع للهجرة كما يروي الواقدي[3]، وكان علىٰ رأس ألف وخمسمائة من أصحابه، وكان يحمل لواءه عليّ بن أبي طالب. وخرج أبو سفيان علىٰ رأس ألفين من أهل مكة، فلما كان ببعض الطريق أجفل عن المواجهة وبدا له الرجوع، فقال لمن معه: «ارجعوا؛ لا يصلحنا إلَّا عام خصب غيداق[4]، نرعىٰ فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا»! فرجع ورجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق وقالوا: إنهم «خرجوا يشربون السويق»! ولهذا يطلق علىٰ هذه الغزوة أحيانًا غزوة السويق» (وهي غير الغزوة التي تحمل الاسم نفسه والتي كانت في السنة الثانية للهجرة). وتسمىٰ هذه الغزوة أيضًا «بدر الآخرة» أو «بدر الموعد». وقد أقام الرسول ﷺ ببدر ثمانية أيام ثم رجع بأصحابه إلىٰ المدينة بعد أن أكد هيبة المسلمين أمام قريش والعرب جميعًا[5].

غزوة الخندق: (ذو القعدة ٥هـ - مارس ٦٢٧).

كان عجز قريش عن مواجهة المسلمين في بدر الموعد مصدر شعور قوي لديها بالإحباط والرغبة في الانتقام من الرسول ﷺ وصحبه. وقد عبر عن ذلك صفوان بن أمية في قوله لأبي سفيان بعد نكوصه عن بدر الموعد: «قد والله نهيتك يومئذ أن تَعِد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣٨.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٣٥.

(٣) المغازي، ج١، ص ٣٨٧.

(٤) غيداق: أي واسع كثير الخير.

(٥) للمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ: المغازي للواقدي، ج١، ص ٣٨٤-٣٨٨.

القوم، وقد اجترؤوا علينا ورأوا أنْ قد أخلفناهم، وإنما خلفنا الضعف عنهم»[1]! ومن هنا أخذ مشركو قريش يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة، فاستنجدوا بمن حولهم من العرب «وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث علىٰ أهل مكة، فلم يُتْرَك أحد منهم إلَّا أنْ يأتي بما قل أو كثر، فلم يقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق»[2]!

وقد التقت رغبة قريش مع رغبة اليهود في الإطاحة بدولة المدينة. والحق أنّ اليهود بدأوا يكشفون عن حقدهم علىٰ المسلمين منذ انتصار بدر كما أشرنا قبل ذلك. وقد كانت هزيمة المسلمين في «أحد» مصدر سعادة بالغة لهم؛ وهذا ما عبر عنه أحد يهود المدينة بقوله: «اليوم بطل السحر»[3]! وقد اضطر الرسول ﷺ لإجلاء يهود بني قينقاع وبني النضير عن المدينة في العام الثاني والرابع للهجرة علىٰ التوالي. فكان ذلك مما أثار اليهود وألهب روح الانتقام في نفوسهم.

هكذا وجدت قريش في اليهود خير نصير، ووجد اليهود في قريش مثل ذلك. ومن ثم ذهب إلىٰ مكة بعض أعيان بني النضير، وعلىٰ رأسهم سلام بن أبي الحقيق، وحُيَي ابن أخطب وكنانة بن الربيع، وأكدوا لقريش أنهم سيكونون معهم حربًا علىٰ محمد حتىٰ يستأصلوه، وقد سمح اليهود لأنفسهم أن يناصروا الوثنية ضد دين يدعو إلىٰ عبادة الله الواحد؛ فيروىٰ أن قريشًا قالت لهم عندما قدموا عليها بمكة: «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولىٰ بالحق منه»[4]. وقد نزل فيهم قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٢][5].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٨.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٣٠.

(٥) سورة النساء: [٥١-٥٢]. والجبت: الأصنام، وكل ما عُبد من دون الله.

وقد نجحت قريش وزعماء بني النضير في إغراء غطفان بالانضمام إليهم، فخرجت غطفان ببطونها وفيها القائدان المشهوران: عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري. وقد جعل اليهود لغطفان تمر خيبر سنة على أن يعينوهم على حرب رسول الله ﷺ[١]. كما انضمت قبيلتا بني سليم وبني أسد إلى هذا التحالف[٢]. وهكذا تكون جيش هائل للأحزاب وصل عدده إلى عشرة آلاف، كان من بينه أربعة آلاف ينتمون إلى قريش وأحابيشها. وكان لقريش وحدها في هذا الجيش ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، ولغطفان ثلاثمائة فرس[٣]، وكانت القيادة العامّة لأبي سفيان[٤].

فالواضح من ضخامة هذا الجيش واستعداداته أنّ قريشًا وحلفاءها أرادوا أن يسددوا ضربة قاضية لدولة الإسلام في المدينة. وقد توجه بعض رجال خزاعة إلى النبي ﷺ بالمدينة ليخبروه بخروج قريش لحربه، فأعد جيشًا بلغ ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم ليتصدى لجيش الأحزاب، وقد استشار أصحابه، «وكان رسول الله ﷺ يكثر مشاورتهم في الحرب»[٥]، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة، وقال له في ذلك: «يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خَنْدَقْنا علينا؛ فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟»[٦] ونفذ ﷺ اقتراح سلمان الذي لقي استحسانًا من المسلمين، «وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحبوا الثبات في المدينة»[٧].

وقد تكاتف المسلمون في حفر الخندق، وعمل معهم رسول الله ﷺ كواحد منهم «فدأب فيه ودأبوا»[٨]، وكان الرسول ﷺ ينقل التراب حتى اغبر بطنه، وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٤٣، والواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٤٣.

(٢) المغازي، ج٢، ص ٤٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٤) أنساب الأشراف ج١، ص ٣٤٥.

(٥) المغازي، ص ٤٤٤-٤٤٥، ٤٥٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٤٥.

(٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٨) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٣١.

فأنزلنْ سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا[1]

وأكمل المسلمون حفر الخندق بعد ستة أيام من العمل الشاق[2]. وكان حفره شمالي المدينة، وهي الجهة المكشوفة التي كان يمكن أن يتقحم الأعداء المدينة من خلالها، أمّا بقية جهات المدينة فكانت ممنوعة ببيوتها ونخيلها ومن الصعب علىٰ العدو أن يهاجمها. وعندما وصل الأحزاب إلىٰ المدينة وفوجئوا بالخندق يحول بينهم وبينها قالوا: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها»[3].

وفي تلك الأثناء كان حييُّ بن أخطب، سيد قبيلة بني النضير اليهودية، قد زيَّن ليهود بني قريظة -وزعيمهم كعب بن أسد- أن ينقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ. وكان يهود بني النضير وبني قينقاع قد نقضوا هذا العهد قبل ذلك فأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة. وهكذا تواطأ يهود بني قريظة مع الأحزاب. وعندما علم الرسول ﷺ بنقضهم العهد أرسل إليهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة ليتثبتوا من حقيقة الأمر. فلما جاء هؤلاء إلىٰ بني قريظة وذكروهم بالعهد بينهم وبين رسول الله ﷺ قالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد! فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مُشَاتَمَتَهم فما بيننا وبينهم أربىٰ من المشاتمة! ورجع الجميع إلىٰ الرسول ﷺ ليؤكدوا له ما بلغه من نقض بني قريظة للميثاق[4]. وهكذا أحاط الأعداء بالمسلمين من كلّ جانب، فعظم عليهم البلاء واشتد الخوف وظهر النفاق من بعض ضعاف الإيمان، وقال أحدهم[5]: «يعدنا محمد كنوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلىٰ حاجته، وما وعدنا الله ورسوله إلَّا غرورًا»[6]. وقد أشار الله -سبحانه- إلىٰ تلك المحنة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ٩٧-٩٨.

(٢) المغازي، ج٢، ص ٤٥٤.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٤٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٧١-٥٧٢.

(٥) هو معتِّب بن قشير الأنصاري الأوسي.

(٦) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٥٩-٤٦٠.

ﭐلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: ٩-١٢].

وقف الأحزاب أمام الخندق عاجزين عن اقتحامه، ففرضوا حصارًا علىٰ المدينة دام خمسة عشر يومًا أو بضعًا وعشرين ليلة طبقًا لبعض الروايات[١]. ولم يكن بين الفريقين حرب إلَّا التراشق بالنبل والحجارة[٢]. ولكن بعض فرسان قريش حاولوا اقتحام الخندق من مكان ضيق ونجحوا في ذلك، وهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب بن مرداس، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وهبيرة بن أبي وهب. وقد تصدىٰ عليّ بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودٍّ فقتله، ووقع بنوفل بن عبد الله فرسه في الخندق، فرمي بالحجارة حتىٰ قتل، وانهزم الباقون إلىٰ أصحابهم[٣].

وعندما طال الحصار علىٰ المسلمين دون أن تلوح أمامهم بوادر النهاية أراد ﷺ أن يصالح غطفان علىٰ ثلث ثمار المدينة علىٰ أن يرفعوا الحصار وينصرفوا عن الأحزاب، فإذا انصرفت غطفان تشتت كلمة الأحزاب ورجع من تبقىٰ منهم أو استطاع المسلمون هزيمتهم عند المواجهة. وقد استشار الرسول ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة في هذا الصلح، فكان ردهما عليه حافلًا بالأدب والحكمة حيث قالا له: «يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله ﷻ به لا بد لنا من عملٍ به، أم شيء تصنعه لنا؟» فقال ﷺ: «**بل شيء أصنعه لكم؛ والله ما أصنع ذلك إلَّا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالَبُوكم من كلّ جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر ما ساعة**». فقال له سعد بن معاذ: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم علىٰ شرك بالله ﷻ وعبادة الأوثان، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلَّا قرىٰ أو بيعًا؛ أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة! والله لا نعطيهم إلَّا السيف حتىٰ يحكم الله بيننا وبينهم»[٤]! ولا شك أنّ ما قاله سعد بن معاذ كان يعبر عن موقف الأنصار بصفة عامة؛ ولهذا استجاب الرسول ﷺ لهذا الرأي وعدل عن اتجاهه للصلح مع غطفان.

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٩١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٤٥. وانظر أيضًا: تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٧٢.

(٢) المغازي، ج٢، ص ٤٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧٠-٤٧١.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٧٣. وانظر ايضًا: المغازي للواقدي، ج٢، ص ٤٧٧-٤٧٩.

وهكذا التف المسلمون حول رسول الله ﷺ ينتظرون ما يسفر عنه حصار الأحزاب. وقد تهيأت للمسلمين بعض الأسباب التي عجلت بانتهاء هذا الحصار وعودة الأحزاب خائبين إلىٰ ديارهم. فقد أسلم أحد رجال غطفان، واسمه نُعَيم بن مسعود، وجاء إلىٰ الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال له الرسول ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخَذِّلْ عنا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة**». فذهب نُعَيم إلىٰ بني قريظة -وهم لا يعلمون بإسلامه- فخوَفهم نتائج تحالفهم مع قريش وغطفان وأخبرهم باحتمال أن تنسحب قريش وغطفان من الميدان لو وجدوا أنّ ذلك أسلم لهم، وهنا يخلو الميدان أمام المسلمين لينتقموا من بني قريظة الذي لا دار لهم إلّا المدينة؛ ولهذا حثَّ نعيم بني قريظة أن يطلبوا من قريش وغطفان رهائن حتىٰ يضمنوا أنّ القوم لن يتخلوا عنهم في الحرب ضد محمد. ثم ذهب نعيم إلىٰ قريش فأخبرهم عن مبلغ وُدِّه لهم وكراهيته للمسلمين، وذكر لهم أنّ يهود بني قريظة ندموا علىٰ تحالفهم مع قريش وغطفان، وأنهم اتصلوا بمحمد يعرضون عليه أن يسلموه بعض أشراف هاتين القبيلتين ليضرب أعناقهم ثم يكونوا معه علىٰ من بقي من عدوه. وحذر نعيم قريشًا من استجابتها لبني قريظة إذا طلبت منهم رهائن. ثم ذهب نعيم إلىٰ غطفان وقال لها ما قاله لقريش. ثم بدأت خدعة نعيم تؤتي ثمارها. فقد أرسلت قريش وغطفان إلىٰ بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين للاتفاق علىٰ وضع خطة مشتركة للهجوم علىٰ المسلمين، فطلبت بنو قريظة رهائن ليثقوا في جدية القوم وأنهم لن يتركوهم وحدهم في الميدان. فلما علمت قريش وغطفان بذلك قالوا: «والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق». ثم أرسلوا إلىٰ بني قريظة: «إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا». فقالت بنو قريظة عندئذ: «إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق؛ ما يريد القوم إلّا أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك تشمروا إلىٰ بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم». فأصر بنو قريظة علىٰ موقفهم من عدم القتال إلّا بعد أنّ يتسلموا الرهائن، ورفض الآخرون ذلك. وهكذا تخاذل الفريقان بفضل خدعة نعيم بن مسعود[1].

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٧٨-٥٧٩.

ولا شك في أنّ الدور الذي قام به نعيم كان ذا أهمية بالغة بالنسبة إلىٰ المسلمين حيث أزاح عنهم خطرا محققًا وهو هجوم بني قريظة من داخل المدينة علىٰ صفوف المسلمين، فقد كان من شأن هذا الهجوم أن يضع المسلمين في موقف كانت مواجهته ستكلفهم ثمنًا باهظًا(١)؛ ولهذا كان نعيم يقول: «أنا خذَّلت بين الأحزاب حتىٰ تفرقوا في كلّ وجه، وأنا أمين رسول الله ﷺ علىٰ سره»(٢).

وهناك عامل آخر عجل برفع الحصار وإحباط مخطط الأحزاب بصفة نهائية. فقد تعرض هؤلاء لريح عاتية في ليلة شاتية قاسية البرودة، فكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم وأثارت الذعر والفوضىٰ في معسكرهم فلم يجدوا أمامهم إلَّا أن يشدوا رحالهم ويرتدوا علىٰ أعقابهم(٣) دون أن يجنوا من تحزبهم وغزوهم إلَّا الندم والحسرة. وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. وقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. ومن هنا يتبين أنّ المسلمين لم يضطروا لخوض حرب حقيقية خلال تلك الغزوة، ومع هذا صمدوا في مواجهة الحصار، واستشهد منهم ستة خلال بعض المناوشات المحدودة(٤). وفي هذه الغزوة أصيب الصحابي الجليل سعد بن معاذ -سيد الأوس- بسهم في ذراعه ثم مات بعد ذلك متأثرًا بإصابته(٥). وقد سميت هذه الغزوة بالأحزاب لتحالف قريش مع اليهود وغطفان ضد المسلمين، كما سميت بالخندق إشارة إلىٰ الخندق الذي حفره المسلمون بمشورة سلمان الفارسي.

مثلت غزوة الخندق آخر مدىٰ وصلت إليه محاولات المكيين للقضاء علىٰ دولة الإسلام في المدينة، وقد تصورت قريش أنها ستكون الضربة التي لن تقوم للإسلام بعدها قائمة، ولكنها انتهت إلىٰ خيبة أمل بالنسبة إلىٰ المكيين والأحزاب لم تكن تخطر

---

(1) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 171.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٨٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٨٠، سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٥١.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٩٥، ٤٩٦.

(٥) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٢٤٣-٢٤٤.

لهم علىٰ بال، ولهذا قال ﷺ في نهاية هذه الغزوة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، «فكان كذلك حتىٰ فتح الله مكة»[(١)]. ولا شك أنّ انكسار قريش في غزوة الخندق كان يعني انتهاء آمالهم في هزيمة محمد ﷺ، ومن هنا بدأ الكثيرون منهم يراجعون حساباتهم ويفكرون جديًّا في اعتناق الإسلام[(٢)].

وقد كانت غزوة الخندق في ذي القعدة سنة ٥هـ (مارس ٦٢٧م) حيث عسكر رسول الله ﷺ بجيشه في الثامن من ذي القعدة، وانصرف لسبع بقين منه في السنة المذكورة[(٣)].

لم تكد تنتهي غزوة الخندق حتىٰ أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في المسلمين أن يتوجهوا من فورهم إلىٰ بني قريظة الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ووجهوا إلىٰ المسلمين طعنة غادرة في الظهر. علىٰ أننا سوف نتناول غزوة بني قريظة في سياق حديثنا عن تطور العلاقة بين الرسول ﷺ ويهود المدينة.

من الخندق إلىٰ صلح الحديبية:

كان الرسول ﷺ بعد الخندق حريصًا علىٰ تأكيد هيبة المسلمين أمام القبائل العربية المحيطة حتىٰ لا تتاح الفرصة لتكرار ما حدث في غزوة الخندق بانضمام تلك القبائل إلىٰ قريش. وقد كانت قبيلة بني لحيان (من هذيل) إحدىٰ القبائل التي عزم الرسول ﷺ علىٰ تأديبها في تلك الفترة لغدرها بالمسلمين قبل ذلك. ففي صفر سنة ٤هـ أرسل الرسول ﷺ إليهم سبعة من المسلمين -بناء علىٰ طلبهم- ليفقهوهم في الدين؛ وكان أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغَنَوي، ويقال أميرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح[(٤)]. فلما وصل هؤلاء إلىٰ ماء لهذيل بالحجاز يسمىٰ «الرجيع» كشف بنو لحيان عما بيتوه من غدر، فأرادوا أن يأسروهم ليبيعوهم لقريش حتىٰ يقتلوهم ثأرًا لمن قُتِل منهم في

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٩٣، الكامل لابن الأثير، ج٢، ص: ١٨٤.

(2) M. Watt. Muhammad Prophet and Statesman, P. 171

وانظر أيضًا: المغازي للواقدي، ج٢، ص ٤٩١.

(٣) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٤٠. ويذكر ابن هشام رواية عن ابن إسحاق أن هذه الغزوة كانت في شوال سنة ٥هـ. انظر: سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٢٩.

(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص.٣٥٤-٣٥٥. وفي رواية أخرىٰ للواقدي أن هؤلاء النفر كانوا عشرة. المغازي، ج١ ص ٣٥٥.

بدر. فلما عرف المسلمون بخطة بني لحيان قاتل أربعة منهم قتال المستميت حتىٰ استشهدوا وعلىٰ رأسهم مرثد بن أبي مرثد، وعاصم بن ثابت، واستأسر ثلاثة هم خبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طارق[١]. وقد سار بنو لحيان بهؤلاء الأسرىٰ إلىٰ مكة، وفي الطريق قاتلهم عبد الله بن طارق حتىٰ سقط شهيدًا[٢]. أما خبيب وزيد فباعوهما لقريش فقتلتهما شر قتلة[٣]. وفي غدر بني لحيان يقول حسان بن ثابت:

إنْ سرَّك الغدر صرفًا لا مزاج له ... فأت الرجيع فسل عن دار لحيان[٤]

وفي ربيع الأول سنة ٦هـ طبقًا لرواية الواقدي، أو جمادىٰ الأولىٰ من العام نفسه طبقًا لرواية ابن إسحاق[٥]، خرج رسول الله ﷺ إلىٰ بني لحيان في مائتي رجل من أصحابه ليغزوهم ويثأر لأصحاب الرجيع. وهذه هي الغزوة التي تُعرف في مصادرنا بغزوة بني لحيان. وعندما سمع بنو لحيان بمقدم الرسول ﷺ والمسلمين تملكهم الرعب فهربوا وتمنعوا في رؤوس الجبال. فأقام ﷺ يومين بأرضهم ثم ارتحل مع أصحابه حتىٰ نزل عُسفان بالقرب من مكة، وقال في ذلك: «إن هذا يبلغ قريشًا فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم». ثم رجع الرسول ﷺ مع أصحابه إلىٰ المدينة بعد أن غاب عنها أسبوعين[٦].

وقد واجه الرسول ﷺ في تلك الفترة غارة همجية من غارات الأعراب قام بها عيينة ابن حصن الفزاري (من غطفان) علىٰ لقاح رسول الله ﷺ[٧] بمكان يقال له «الغابة»

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٥٧، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٣٩.

(٢) المغازي، ج١، ص ٣٥٧، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٣٩.

(٣) عندما قدّمت قريش خبيبًا للقتل طلب منهم أن يمهلوه ليصلي ركعتين، فلما صلاهما قال: لولا أن تقولوا جزع لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل. ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا، وأنشد:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... علىٰ أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك علىٰ أوصال شِلوٍ ممزع

انظر: الكامل لابن الأثير، ج٢، ص ١٦٨، والبداية والنهاية لابن كثير، ج٤، ص ٦٥.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٧٦.

(٥) المغازي، ج٢، ص ٥٣٥، وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٢١.

(٦) المغازي، ج٢، ص ٥٣٦-٥٣٧، وزاد المعاد لابن القيم، ج٢، ص ١١٩.

(٧) اللقاح: ذوات الدر من الإبل.

بالقرب من المدينة علىٰ طريق الشام. وقد استولىٰ عيينة ومعه أربعون فارسًا علىٰ اللقاح وهربوا بها، وذلك في ربيع الثاني سنة ٦هـ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك سار في أثرهم في خمسمائة من أصحابه، وانتهىٰ بهم المسير إلىٰ مكان يقال له «ذو قَرَد» بين المدينة وخيبر، واستطاع المسلمون خلال ذلك أن يستردوا بعض اللقاح التي استولىٰ عليها عيينة ورجاله وأن يقتلوا منهم أربعة، واستشهد من المسلمين واحد هو مُحْرِز بن نضلة. وقد تولىٰ سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه حراسة المدينة خلال المدة التي قضاها الرسول ﷺ بعيدًا عنها وهي خمس ليال[١]. وتُعرف هذه الغزوة في مصادرنا بغزوة «الغابة» أو غزوة «ذي قرد»[٢] ولا شك أنّ أنباءها ترامت إلىٰ قريش فازدادت لديهم هيبة المسلمين.

ومن بين القبائل التي اضطر الرسول ﷺ لمواجهتها بعد الخندق وقبل الحديبية قبيلة بني المُصْطَلق من خزاعة. فقد بلغ الرسول ﷺ أنّ بني المصطلق يجتمعون له ويتهيأون لحربه بزعامة قائدهم الحارث بن أبي ضرار. فخرج الرسول ﷺ إليهم في شعبان ٦هـ طبقًا لرواية ابن إسحاق[٣]، وأسرع الناس للخروج معه، وكان الجيش الإسلامي يضم ثلاثين فارسًا. وقد لقي الرسول ﷺ عدوه بالمريسيع، وهو ماء من مياه بني المصطلق، فاقتتل الناس اقتتالا شديدًا، وانتهت المعركة بهزيمة بني المصطلق، وأفاء الله علىٰ المسلمين أموالهم وأبناءهم ونساءهم. وكان بين السبي الكثير الذي أصابه المسلمون في تلك الغزوة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، وهي التي تزوجها رسول الله ﷺ وأصبحت إحدىٰ أمهات المؤمنين[٤]. وتعرف هذه الغزوة في مصادرنا بغزوة المريسيع أو غزوة بني المصطلق وقد ارتبط بها «حديث الإفك» الذي دار حول الافتراء علىٰ السيدة عائشة واتهامها بالفاحشة ثم برأها الله -

---

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ المغازي للواقدي، ج٢، ص ٥٣٧-٥٤٩، وقارن بما في تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٩٦-٦٠٤.

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٠٦ وص ٣٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٣٣، ويروي الواقدي أنّ هذه الغزوة حدثت في شعبان سنة ٥هـ. المغازي، ج١، ص ٤٠٤. وانظر أيضًا: أنساب الأشراف للبلاذري، ج١، ص ٣٤١.

(٤) للمزيد من التفصيل حول هذه الغزوة راجع: تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٠٤ وما بعدها، والمغازي للواقدي ج١، ص ٤٠٤ وما بعدها.

سبحانه- في آيات بينات من سورة «النور» الحافلة بروائع الأدب الاجتماعي في الإسلام(١).

إن الفترة التي تلت غزوة الخندق كانت بالنسبة إلىٰ المسلمين بداية حقيقية لتأكيد وجودهم وفرض هيبتهم علىٰ كلّ المحيطين بهم في أنحاء شبه الجزيرة العربية. فلا غرو إذن أن يفكر رسول الله ﷺ -وقد زاد الله الإسلام منعة- في أن يتوجه إلىٰ البيت الحرام زائرًا ومعظمًا. ولماذا تقف قريش حائلًا بين المسلمين وبين هذا الحق وقد أصبح المسلمون قوة يحسب حسابها؟ وقد كان تفكير الرسول ﷺ في زيارة البيت الحرام هو الخطوة الأولىٰ لعقد صلح الحديبية.

صلح الحديبية: (ذو القعدة ٦هـ مارس ٦٢٨م):

بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق أقام بالمدينة شهري رمضان وشوال،

---

(١) موجز حديث الإفك أنّ الرسول ﷺ اصطحب من بين أزواجه في غزوة بني المصطلق عائشة وأم سلمة. وعندما كان المسلمون عائدين إلىٰ المدينة بعد انقضاء الغزوة حطوا رحالهم في أحد المواضع ليستجموا. وفي أثناء ذلك ذهبت عائشة لبعض حاجتها، وعندما عادت اكتشفت ضَياع عقد لها فرجعت تلتمسه فوجدته ثم عادت مرة أخرىٰ لتكتشف أنّ المسلمين رحلوا من مكانهم دون أن يفطنوا أنّ عائشة ليست في هودجها، فظلت مكانها وهي تؤمل أن يرجع إليها المسلمون لأخذها عندما يفتقدها الرسول ﷺ. وكان الصحابي صفوان بن المعطّل علىٰ ساقة العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتىٰ يأتيهم به. فلما رآها أناخ لها بعيره فركبت ثم انطلق نحو المدينة يقود البعير حتىٰ أدرك الناس. وهنا كثر القيل والقال من جماعة علىٰ رأسهم شيخ المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي تولىٰ كبر هذا الحديث؛ فقد روي عنه أنّه قال عندما رأىٰ صفوان يقود البعير: من هذه؟ فقالوا: عائشة ﵂ فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها! ثم قال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتىٰ أصبحت ثم جاء يقودها! وإلىٰ عبد الله بن أُبيّ تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعندما كثر الحديث وبلغ سمع الرسول ﷺ خطب في الناس قائلًا: «ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهن غير الحقّ! والله ما علمت منهن إلّا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلّا خيرًا، وما دخل بيتًا من بيوتي إلّا وهو معي». ثم أنزل الله براءة عائشة في سورة النور [١١-٢٦]، فجلد الرسول ﷺ هؤلاء الذين بهتوا عائشة حد القذف. وقد كان موقف جمهور المسلمين عظيمًا، ومن هؤلاء أبو أيوب الأنصاري الذي قالت له امرأته: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلىٰ. وذلك الكذب! أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله! قال: فعائشة والله خير منك! وإلىٰ هذا يشير قوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾. راجع حديث الإفك في: صحيح البخاري، ج٥، ص ١٤٨-١٥٥، تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦١٠-٦١٩؛ المغازي للواقدي، ج٢ ص ٤٢٦-٤٤٠. والكشاف للزمخشري، ج٣، ص ٢١٧-٢٢٥.

ثم خرج في مستهل ذي القعدة سنة ٦هـ متوجهًا نحو مكة معتمرًا لا يريد حربًا. وكان قد رأىٰ في المنام أنه «دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت وعرَّف مع المعرّفين»[١]. وقد ساق رسول الله ﷺ معه الهدي وأحرم بالعمرة لتأمن قريش من حربه ولتعلم أنه إنما خرج زائرًا للبيت الحرام ومعظمًا له[٢]. وأحرم عامة المسلمين بإحرام النبي ﷺ، وركب النبي ﷺ ناقته «القصواء» وسار معه إلىٰ مكة ألف وخمسمائة من أصحابه تقريبًا[٣].

وعندما سمعت قريش بمسير الرسول ﷺ ومن معه إلىٰ مكة خرجت بالعُدَّة والعدد لتصد المسلمين عن البيت الحرام، واستنفرت من أطاعها من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم وقدموا خالد بن الوليد في الخيل[٤]. واستمر الرسول ﷺ في مسيره حتىٰ انتهىٰ إلىٰ مكان يقال له «الحُدَيبية» يبعد بضعة أميال من مكة، فنزل به هو والمسلمون.

وفي الحديبية جاء إلىٰ الرسول ﷺ بُدَيل بين ورقاء الخزاعي. وقد كانت خزاعة «عَيبَة نصح رسول الله ﷺ بتهامة» أي موضع الأمانة علىٰ سره. وقد ذكر بديل للرسول ﷺ أنه جاءه من عند قريش وأنهم قد خرجوا في الجيش الكثيف وهم «يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتىٰ تبيد خضراؤهم»[٥]. وهنا أكّد الرسول ﷺ لبديل أنّ المسلمين ما جاءوا لقتال وإنما جاءوا لزيارة البيت، فمن صدهم عن البيت قاتلوه، ثم أبدىٰ استعداده أن يعقد هدنة مع قريش يأمنون خلالها ويتركون الرسول ﷺ يتفرغ لدعوة الناس إلىٰ الإسلام دون أنْ يحولوا بينه وبين ذلك. فإن انتصرت دعوة الإسلام وأرادت قريش الدخول فيها كان لهم ذلك، وإلا فقد جمُّوا أي حصلوا علىٰ فترة من الراحة واستجماع القوة. أمّا إذا أبت قريش إلّا العناد فسيقاتلهم الرسول ﷺ علىٰ دين الله حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولا. وقد ذهب بديل إلىٰ قريش بهذه

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٥٧٢، و«عرَّف مع المعرفين»: أي وقف علىٰ عرفة مع الواقفين.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٥٦.

(٣) تختلف مصادرنا حول العدد الدقيق الذي صحب الرسول ﷺ إلىٰ مكة، فيقال إنهم كانوا ألفًا وثلاثمائة أو ألفًا وأربعمائة، أو ألفًا وخمسمائة، أو ألفًا وستمائة. وقيل غير ذلك. انظر حول ذلك: صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٣، ص ٤، والمغازي للواقدي، ج٢، ص ٥٧٤، وزاد المعاد لابن القيم، ج٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٥٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٩٣.

الرسالة فلم تجد استجابة منهم، ولكن رجلا من سادة ثقيف يقال له عروة بن مسعود سمع رسالة بديل فشجع قريشًا علىٰ قبولها، وقال: «إن بُدَيلًا قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحدٌ أبدًا إلَّا أخذ شرًّا منها، فاقبلوها منه، وابعثوني حتىٰ آتيكم بمصداقها من عنده وأنظر إلىٰ من معه وأكون لكم عينًا آتيكم بخبره»(١). فبعثته قريش إلىٰ الرسول ﷺ فلما جاءه حاول أن يوهن من عزم المسلمين وأن يصرف الرسول ﷺ عن الذهاب إلىٰ مكة مدعيًا أنّ أصحابه سوف يفرون عنه ويخذلونه إن تصدت له قريش، وكان مما قاله له: «فوالله إني لأرىٰ وجوهًا وأوشابًا من الناس خُلُقًا أن يفروا ويدعوك». ولكن أبا بكر شتم عروة وصاح في وجهه: «أنحن نفر وندعه؟!»(٢). وقد لاحظ عروة في أثناء هذه السفارة مدىٰ توقير المسلمين لرسول الله ﷺ وامتثالهم لأمره، فرجع إلىٰ قريش وقال لهم: «أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ الملوك، ووفدت علىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي، والله إنْ رأيتُ ملكًا قطُّ يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا .. إذا أمرهم ابتدروا أمره .. وإذا تكلموا خفضوا عنده أصواتهم، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها»(٣). ولكنَّ قريشًا رفضت الإذعان لرأي عروة.

ثم جرت محادثات أخرىٰ بين الرسول ﷺ وقريش(٤). وكان هدف قريش من كلّ ذلك ألا يظهروا أمام العرب بمظهر المغلوبين علىٰ أمرهم في حالة دخول المسلمين مكة دون رضاهم؛ ولهذا وقفت بكل قوتها لتحول بين المسلمين وبين دخولهم مكة عامَهم هذا.

وقد أراد الرسول ﷺ أن يقوم من جانبه بخطوة إيجابية في سير المفاوضات فأرسل إلىٰ قريش رجلًا مقبولًا لديهم لا يختلف الكثيرون حوله وهو عثمان بن عفان(٥).

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٩٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢٦.

(٤) بعد سفارة عروة بن مسعود أرسلت قريش إلىٰ الرسول ﷺ مِكْرَز بن حفص فلم تنته سفارته إلىٰ نتيجة مقبولة، ثم أرسلت الحُلَيس بن علقمة -وهو يومئذ سيد الأحابيش- فلما نظر إلىٰ الهدي يسيل في الوادي عليه القلائد واستقبله المسلمون في وجهه يُلَبُّون- رَجَع ولم يَصِل إلىٰ النبي ﷺ إعظامًا لما رأىٰ. المغازي، ج٢، ص ٥٩٩.

(٥) قبل سفارة عثمان أرسل الرسول ﷺ إلىٰ قريش خراش بن أمية الكعبي الخزاعي وحمله علىٰ جمل له يقال له =

وكانت سفارة عثمان تدور حول نقطة أساسية وهي إقناع قريش بأن الرسول ﷺ «لم يأتِ لحربٍ، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته»[1].

لم تستجب قريش لسفارة عثمان، وكان كلّ ما عرضته عليه أن يطوف هو بالبيت إن أراد، فقال عثمان: «ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به رسول الله ﷺ»! فاحتبسته قريش عندها وأشيع بين المسلمين أنها قد قتلته. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «لا نبرح حتىٰ نناجز القوم»! ودعا المسلمين إلىٰ بيعته علىٰ الثبات وعدم الفرار في وجه قريش، وقيل: بل كانت بيعة علىٰ الموت[2]. وقد بايعه المسلمون تحت شجرة هناك يقال لها «سَمُرة» فهي بيعة الرضوان التي أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. وبعد هذه البيعة رجع عثمان إلىٰ المسلمين. وهكذا اتضح أنّ ما أشيع من أمر قتله باطل[3].

ثم بعثت قريش إلىٰ رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو (سيد بني عامر بن لؤي) وقالوا له: «ائت محمدًا فصالحه؛ ولا يكن في صلحه إلّا أن يرجع عنّا عامه هذا؛ فوالله لا تَحَدَّثُ العرب أنه دخل علينا عنوة أبدًا»[4]. وتكلم سهيل مع الرسول ﷺ فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرىٰ بينهما الصلح الذي عرف باسم «صلح الحديبية» وتمثلت بنوده فيما يأتي:

١- أن تتوقف الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين.

٢- من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل.

= الثعلب «فآذته قريش وعقرت جمله وأرادت قتله فمنعته الأحابيش»، ثم أراد إرسال عمر فاعتذر بما تكنه له قريش من كراهية، واقترح عليه أن يرسل عثمان. ارجع إلىٰ المغازي، ج٢، ص ٦٠٠، وإلىٰ ترجمة خراش بن أمية في أسد الغابة لابن الأثير، ج٢ ص ١٢٥-١٢٦.

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٣١.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٦٠٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلىٰ سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٣٣.

٣- من جاء إلىٰ محمد من قريش بغير إذن وليه رده إليه، ومن جاء إلىٰ قريش من أصحاب محمد لم ترده.

٤- يرجع المسلمون عن مكة عامهم هذا ويدخلونها في العام القادم علىٰ أن يقيموا بها ثلاثة أيام بعد أن تخرج قريش منها وعلىٰ ألا يحمل المسلمون من السلاح إلَّا السيوف في القُرُب[1].

وكان الذي كتب كتاب الصلح هو عليّ بن أبي طالب، وعندما طلب منه الرسول ﷺ أن يبدأ الكتاب بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» اعترض سهيل علىٰ ذلك وقال: لا أعرف الرحمن. اكتب كما نكتب: باسمك اللهم. فأجابه الرسول ﷺ إلىٰ ذلك، ثم طلب من علي أن يكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». وهنا قال سهيل: «لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك!» فوافقه الرسول ﷺ أيضًا علىٰ ذلك[2].

لقد كان هذا الصلح بالشكل الذي تم به وبالبنود التي تضمنها مثار نقاش حادٍّ بين المسلمين واعتراض من بعضهم. فلقد تضمن هذا الصلح -كما رأينا- بندًا يقضي بأن يرد رسول الله ﷺ إلىٰ قريش من جاءه مسلمًا بغير إذن وليه، وألا تفعل قريش ذلك، كما تضمن أيضًا عدم دخول المسلمين مكة ذلك العام بعد أن كانوا علىٰ بعد أميال منها. ثم إنَّ سهيلًا غالىٰ في تشدده حينما طلب من الرسول ﷺ أن يمحو عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» فضاق المسلمون من ذلك وقالوا: «هو الرحمن!» وقالوا لعلي: «لا تكتب إلَّا الرحمن!» مما جعل سهيلا يهدد بالانسحاب من الصلح. وقد تشدد سهيل أيضًا حينما طلب من الرسول ﷺ أن يمحو عبارة «رسول الله». وقد ضجَّ المسلمون من موقفه ذلك «ضجة هي أشد من الأولىٰ حتىٰ ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «لا تكتب إلَّا محمد رسول الله»! بل يروىٰ أنّ أُسَيد بن حُضَير وسعد بن عبادة أمسكا بيد «علي» وقالا: لا تكتب إلَّا محمد رسول الله، وإلا فالسيف بيننا! علام نعطي هذه الدنية في ديننا؟! فجعل رسول الله يُخَفِّضُهم ويومئ بيده إليهم: اسكتوا![3] ويروىٰ في هذا السياق أنّ عمر بن الخطاب

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٦١١-٦١٢، وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٦١٠-٦١١. وانظر الخبر برمته في صحيح البخاري، ج٣، ص ٢٥٣-٢٥٨.

(٣) الواقدي: المصدر نفسه والموضع نفسه.

ذهب إلىٰ الرسول ﷺ معترضًا علىٰ بنود الصلح وقال له: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين؟! قال: بلىٰ! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال الرسول ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيِّعني». ثم ذهب إلىٰ أبي بكر فقال له مثل ذلك، فقال أبو بكر: «الزم غَرْزَه![1] فإني أشهد أنه رسول الله وأنَّ الحق ما أُمِر به، ولن نخالف أمر الله ولن يضيعه الله». وقد أكثر عمر مراجعة الرسول ﷺ في ذلك حتىٰ قال له أبو عبيدة بن الجراح: «ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول؟ تعوَّذْ بالله من الشيطان واتَّهِمْ رأيك!»[2].

ومع كلّ هذه الاعتراضات فقد كان الرسول ﷺ علىٰ يقين تامٍّ بما اشتمل عليه هذا الصلح من عناصر إيجابية هي بكل تأكيد في صالح المسلمين والدعوة الإسلامية. ولا شك أنّ أول وأهم هذه العناصر الإيجابية -أو الميزات- يتمثل في فترة الهدنة التي أمن فيها الناس وكفَّ بعضهم عن بعض، فنشطت دعوة الإسلام حين نعمت بذلك المناخ الآمن وضمت إلىٰ صفوفها أعدادًا ما كانت لتظفر بمثلها في محيط الحرب والصراع. وقد اعترف عمر نفسه بذلك في قوله: «لما وقعت القضية [أي صلح الحديبية] أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلىٰ يوم الحديبية، وما كان في الإسلام فتحٌ أعظم من الحديبية»[3]. كما عبر أبو بكر عن هذا الرأي في قوله: «ما كان فتحٌ في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون، والله -تبارك وتعالىٰ- لا يعجل كعجلة العباد حتىٰ تبلغ الأمور ما أراد الله»[4]. وقد شرح الواقدي هذه الميزة من صلح الحديبية بقوله: «كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام، وإنما كان القتال حيث التقوا فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا، فلم يكن أحد يُكَلَّم بالإسلام يعقل شيئًا إلَّا دخل في الإسلام، حتىٰ دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب -عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباه لهم، وإنما كانت الهدنة حتىٰ نقضوا العهد اثنين

(١) أي: الزم أمره، والغَرْز للرَّحْل بمنزلة الركاب للسرج.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٦٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦١٠.

وعشرين شهرًا دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام في كلّ ناحية من نواحي العرب»[1]. ودليل هذا القول أنّ الرسول ﷺ خرج إلىٰ الحديبية في حدود ألف وخمسمائة من أصحابه، ثم خرج عام فتح مكة، بعد ذلك بأقل من سنتين، في عشرة آلاف[2]؛ ولهذا وصف القرآن الكريم صلح الحديبية بأنه فتح مبين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وكان بين الميزات الأخرىٰ لصلح الحديبية أنّ قريشًا اعترفت لأول مرة بالرسول ﷺ علىٰ أنه ندها ونظيرها من خلال المفاوضات التي أجرتها معه. ولم تكن قبل ذلك تنظر إليه إلَّا علىٰ أنه ثائر خارج علىٰ الشرعية. ولا شك أنّ اعترافها هذا بالرسول ﷺ كان أساسًا لاعترافها بالدولة الإسلامية التي أقامها بالمدينة، ويضاف إلىٰ ذلك ما تضمنه صلح الحديبية من اعتراف قريش بأن الإسلام دين له كيانه وتأثيره في شبه الجزيرة العربية؛ وذلك من خلال إقرارها للمسلمين بحق زيارة الكعبة وإقامة الشعائر هناك، ثم اعترافها أيضًا «بأن مكة والمدينة أصبحتا متساويتين»[3].

أمّا ما رآه فريق من المسلمين في بعض شروط صلح الحديبية من إجحاف بهم فلم يكن قائمًا علىٰ أساس صحيح. وقد تبيَّن للجميع بعد ذلك -كما رأينا- شطط هذا الرأي، فلم يشكل عدم رد قريش إلىٰ رسول الله ﷺ مَنْ جاءها من المسلمين مرتدًّا أي خطورة علىٰ عقيدة المسلمين أو كيانهم . . . ومن هنا انطوىٰ هذا البند -كما يقول مونتجومري وات- علىٰ «تنازل لمشاعر المكيين لم يكلف المسلمين شيئًا كثيرًا . . . وإن حقيقة كون هذا البند من جانب واحد لخير شاهد علىٰ اعتقاد محمد بما يتمتع به الإسلام من جاذبية فائقة»[4].

ولا شك أنّ عدد من كان يمكن أنّ يرتدَّ عن الإسلام لم يكن يمثل إلَّا نسبة ضئيلة جدًّا يمكن إسقاطها من الحساب. ثم إن من يرتد من المسلمين عن دينه يفقد كلّ مبررات انتمائه للمجتمع الإسلامي ولن يخسر المسلمون كثيرًا إذا لم يستردوه؛ ولهذا

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢٤. وقد نقل ابن إسحاق قولًا شبيهًا بهذا عن الزهري. انظر سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٧٢، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٧٢.

(٣) كارين آرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص ٣٢٧.

(4) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 185.

قال ﷺ لأصحابه تعليقًا علىٰ ذلك: «من أتاهم منا فأبعده الله! ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل الله له فرجًا ومخرجًا»[1]. أمّا إصرار سهيل بن عمرو علىٰ عدم كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» في وثيقة الصلح أو علىٰ عدم وصف محمد ﷺ بأنه «رسول الله» فإنّ ذلك لا ينبغي أن يكون له أدنىٰ اعتبار عند المسلمين لأن الله هو الرحمن الرحيم، ولأن محمدًا هو رسول الله وإن رغمت أنوف المشركين.

من كلّ هذا يتبين أنّ صلح الحديبية كان نقطة تحول فاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وقد بدأت بعده دولة المدينة تأخذ طابعًا جديدًا.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم، ج٢، ص ١٢٧. وقد تحقق ما قاله الرسول ﷺ فقد جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلىٰ الرسول ﷺ مسلمًا والرسول ﷺ مازال مقيمًا في الحديبية، فسلمه إلىٰ أبيه سهيل، وقال لأبي جندل: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجًا ومخرجًا»! ثم لما قدم الرسول ﷺ المدينة من الحديبية أتاه أبو بصير مسلمًا (وأبو بصير هو عتبة بن أسيد حليف بني زهرة)، فكتب بنو زهرة إلىٰ الرسول ﷺ كتابًا يطلبون منه فيه ردّ أبي بصير إليهم كما يقضي صلح الحديبية، ففعل الرسول ﷺ وقال لأبي بصير: «**يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا**». ثم استطاع أبو بصير أن يفلت من قريش وأن يكوّن عصابة من المسلمين ممن هم في مثل ظروفه. واتخذ أبو بصير وعصابته مركزًا لهم علىٰ ساحل البحر في الطريق الذي تسلكه عير قريش إلىٰ الشام، وأقضّوا مضجع قريش وهددوا تجارتها، فاتصلت قريش بالرسول ﷺ وسألوه بأرحامهم أن يضم إليه أبا بصير وعصابته فلا حاجة لقريش بهم!! انظر المغازي للواقدي، ج٢، ص ٦٠٧-٦٠٨، ٦٢٤-٦٢٩.

الفصل الثامن
تطور العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (١-٦هـ)

سبق أن ذكرنا أنّ الرسول ﷺ عند قدومه إلىٰ المدينة كتب صحيفة نظم فيها العلاقات بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة. وقد كفلت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة وأمّنتهم علىٰ أنفسهم وأموالهم وأعطتهم حق المواطنة الكاملة في الدولة الإسلامية. وقد أراد الرسول ﷺ بذلك أن يرسي علاقات من الثقة والود والتفاهم بينه وبين جيرانه من أهل الكتاب، وهم يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. ولكن لم يقدر لهذه العلاقات أن تسير بالصورة التي أرادها رسول الله ﷺ، فبعد وقت قصير من إنشاء دولة الإسلام بالمدينة بدأ اليهود يكشفون عن حقدهم وتآمرهم علىٰ المسلمين، وظهر ذلك في غير موقف، فعاملهم الرسول ﷺ بما يستحقونه في كلّ موقف.

وقد ظهر من اليهود التنديد بالإسلام عندما حول الله القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة في رجب أو شعبان من السنة الثانية من الهجرة[1]. وإلىٰ هذا أشار الله -سبحانه- بقوله: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ١٤٢]. وعندما انتصر المسلمون في بدر بعد ذلك بقليل لم يكتم اليهود حقدهم، وخاصة يهود بني قينقاع الذين كانوا «أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد» كما يروي

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص ٢٥١، وما بعدها.

المؤرخون[1]. وقد أخذوا يهددون المسلمين بالحرب تهديدًا سافرًا بعد انتصار بدر ويروىٰ في هذا السياق أنّ الرسول ﷺ عندما عرض عليهم الإسلام بعد غزوة بدر قالوا له: «يا محمد، إنك ترىٰ أنَّا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة! إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس!»[2]. ومما كشفوا به عن سوء طويتهم ما ترويه بعض مصادرنا من أنّ امرأة مسلمة جاءت إلىٰ سوق بني قينقاع وجلست إلىٰ صائغ يهودي هناك في حُلِيٍّ لها، فجاء رجل من يهود بني قينقاع فجلس خلفها وهي لا تشعر، ثم عقد طرف ثوبها إلىٰ ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين علىٰ اليهودي فقتله، فشدت بنو قينقاع علىٰ المسلم فقتلوه، ونبذوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ وتحصنوا في حصونهم واستعدوا للقتال[3].

ومهما يكن من أمر فإنّ الذي لا مجال للشك فيه أنّ يهود بني قينقاع ظهرت منهم بوادر تكشف عن حقد ومكر وتربص بالمسلمين. ولهذا يروىٰ أنه عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] قال ﷺ: «**إني أخاف من بني قينقاع**» ثم سار إليهم بهذه الآية[4].

وقد حاصر الرسول ﷺ بني قينقاع خمس عشرة ليلة (من منتصف شوال إلىٰ هلال ذي القعدة من السنة الثانية للهجرة = مارس/ أبريل ٦٢٤م)[5]، ثم نزلوا علىٰ حكمه، فأمر بإجلائهم من المدينة فتوجهوا إلىٰ أذرعات بالشام، وغنم المسلمون ما كان لهم من مال وسلاح، ولم تكن لهم أرض يملكونها فقد كانوا صاغة. وكان الذي تولىٰ إخراجهم من المدينة بذراريهم عبادة بن الصامت[6].

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٤٢٧، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٧٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٧٩.

(٣) راجع علىٰ سبيل المثال: المغازي للواقدي، ج١، ص ١٧٦-١٧٧، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي، ج١، ص ١٤٠-١٤١.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٨٠، والمغازي للواقدي، ج١، ص ١٨٠.

(٥) المغازي، ج١، ص ١٧٦.

(٦) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٤٨١.

ثم حذا بنو النضير حذو إخوانهم من بني قينقاع في إظهار مكرهم بالمسلمين وتربصهم بهم فواجهوا المصير نفسه. ويجدر بنا هنا أن نشير باختصار إلىٰ المقدمات التي سبقت إجلاء رسول الله ﷺ لبني النضير من المدينة. ففي صفر من السنة الرابعة للهجرة أرسل النبي ﷺ سبعين رجلًا من المسلمين(١) إلىٰ أهل نجد لدعوتهم إلىٰ الإسلام، وكان ذلك بناء علىٰ اقتراح من سيد قبيلة بني عامر بن صعصعة، وهو أبو براء عامر بن مالك الذي يقال له «ملاعب الأسنة». وقد تعهد عامر هذا أن يجير المسلمين.. ولكن رجلًا من عُتاة المشركين في تلك المنطقة، وهو عامر بن الطفيل، لم يبالِ بهذا الجوار الذي تعهد به عامر بن مالك، فقتل الرسول الذي أرسله إليه هؤلاء المسلمون الدعاة واسمه حرام بن مِلْحان، وكان معه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلىٰ الإسلام. ولم يكتفِ عامر بن الطفيل بذلك بل حاول أن يحرض قبيلته بني عامر علىٰ الفتك بدعاة المسلمين فرفض بنو عامر وقالوا: «لن نخفر أبا براء؛ قد عقد لهم عقدًا وجوارًا!» فحرَّض عليهم بعض قبائل بني سُلَيم فاستجابوا له ووثبوا علىٰ هؤلاء الدعاة فقاتلوهم حتىٰ قتلوا عن آخرهم إلَّا واحدًا نجا وبه رمق، وقد قتل هؤلاء في مكان يقال له «بئر معونة». وقد اتفق أن وُجِد اثنان من المسلمين بالقرب من مكان هذه المجزرة وهما عمرو بن أمية الضمري (الكناني) والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري، ولم يعلما بما حدث إلَّا عن طريق الطير التي كانت تحوِّم علىٰ مكان المجزرة. أمّا المنذر بن محمد فقد قاتل القوم حتىٰ قتل، وأما عمرو بن أمية فقد أسره عامر بن الطفيل ثم أطلق سراحه عندما علم أنه من مضر. وفي طريق عمرو بن أمية إلىٰ المدينة ليخبر الرسول ﷺ بما حدث لقي رجلين من بني عامر كان معهما عقد وجوار من الرسول ﷺ لم يعلم به عمرو، فعدا عليهما عمرو فقتلهما وهو يظن أنه أدرك بقتلهما ثأرًا لأصحابه شهداء بئر معونة(٢). وعندما قدم عمرو علىٰ رسول الله ﷺ وأخبره الخبر قال له: «لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما»(٣)، أي لأدفعن ديتهما. ثم لم يلبث عامر بن الطفيل أنْ أرسل إلىٰ الرسول ﷺ يطلب منه دية هذين القتيلين.

---

(١) وقيل: كانوا أربعين. انظر الكامل لابن الأثير، ج٢، ص ١٧١، وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٥.

(٢) راجع التفاصيل في تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٤٥ وما بعدها، وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٤ وما بعدها.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٦.

ورغم ما فعله عامر بالمسلمين في بئر معونة فلم يكن من خلق رسول الله ﷺ ولا المسلمين الغدر ونقض العهود؛ ولهذا تكفل الرسول ﷺ بدفع دية القتيلين حتىٰ قبل أن يتصل به عامر بن الطفيل بهذا الشأن كما أشرنا الآن. وقد لجأ الرسول ﷺ إلىٰ يهود بني النضير يطلب منهم العون في هذه الدية؛ وذلك بحكم ما تم بين المسلمين ويهود المدينة من اتفاق قام علىٰ أساس التعاون والتضامن بينهما وعلىٰ أنّ اليهود «ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»[(١)]. ورغم أنّ يهود بني النضير وعدوا الرسول ﷺ بأن يعينوه فإنهم تآمروا عليه ليقتلوه وهو لم يبرح بعدُ ديارهم. فيروي المؤرخون أنّ الرسول ﷺ لما ذهب إليهم يستعينهم في دية القتيلين «قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك علىٰ ما أحببت مما استعنت بنا عليه! ثم خلا بعضهم إلىٰ بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل علىٰ مثل حاله هذه -ورسول الله ﷺ إلىٰ جنب جدار من بيوتهم قاعد- فقالوا: مَنْ رجلٌ يعلو علىٰ هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم فقال: أنا لذلك»[(٢)]. وقد أدرك الرسول ﷺ ما يجري حوله، وذلك من خلال ما لاحظه من تصرفات مريبة ليهود بني النضير في أثناء لقائه بهم. ومما أكد الريبة في نفسه ما كان يبلغه عنهم من ائتمار به وحقد عليه، وقد قوَّىٰ الله يقينه بما يبيت اليهود من غدر[(٣)]؛ ولذلك انسحب من ديارهم، ثم أرسل إلىٰ محمد بن مسلمة من الأوس فقال له: «اذهب إلىٰ يهود بني النضير فقل لهم: اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر»[(٤)]. ولكن بني النضير رفضوا الاستجابة لذلك وأبوا إلَّا الحرب بتشجيع من عبد الله بن أُبَيّ بن سلول. وقد قاد بني النضير في تحديهم للرسول ﷺ زعيمهم حُيَيّ بن أخطب[(٥)]. وهنا لم يجد الرسول ﷺ بدًّا من المسير إليهم، فحاصرهم خمسة عشر يومًا[(٦)]

---

(١) انظر ص١٢٠ فيما سبق.

(٢) سيرة ابن هشام ج٣، ص ١٩١، وتاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٥١، والكامل لابن الأثير، ج٢، ص ١٧٣.

(٣) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٥٢.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(٦) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٥٣، والمغازي، ج١، ص ٣٧٤، ويذكر ابن هشام (ج٣، ص ١٩٢) أن الرسول حاصرهم ستَّ ليالٍ.

حتىٰ صالحوه علىٰ أن يجليهم ويحقن لهم دماءهم علىٰ أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلَّا الحلْقة (أي السلاح)[1]، وولي إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة[2]؛ فمنهم من سار إلىٰ خيبر، ومنهم من سار إلىٰ أذرعات بالشام. وكان من بين من سار إلىٰ خيبر من أشرافهم سلام بن أبي الحُقَيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها[3]. وكان حصار الرسول ﷺ لبني النضير في شهر ربيع الأول سنة ٤هـ (أغسطس ٦٢٥م). وفي حصار بني النضير وجلائهم نزلت سورة الحشر بأكملها، وهي السورة التي يروىٰ أنّ ابن عباس كان يسميها سورة بني النضير[4].

أمّا بنو قريظة فقد أشرنا إشارة سريعة عند حديثنا عن غزوة الخندق (أو الأحزاب) إلىٰ سبب انهيار التحالف بينهم وبين المسلمين. وذلك أنهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بانضمامهم إلىٰ الأحزاب من قريش ويهود بني النضير وغطفان وغيرهم في حربهم للمسلمين بالمدينة. يروي ابن إسحاق أنّ حيي بن أخطب النضري أتىٰ كعب بن أسد زعيم بني قريظة الذي كان قد وادع رسول الله ﷺ علىٰ قومه وعاقده علىٰ ذلك، فمازال به يحرضه علىٰ نقض التحالف بينه وبين رسول الله ﷺ حتىٰ استجاب له كعب بعد أن أعطاه حيي بن أخطب عهدًا وميثاقًا أن يدخل معه في حصنه ليصيبه ما قد يصيب بني قريظة لو أنّ قريشًا وغطفان وغيرهم من الأحزاب رجعوا دون أن يصيبوا محمدًا، «فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ»[5].

وأصبح موقف المسلمين وهم محاصَرون في المدينة في غاية الحرج بنقض بني قريظة عهدهم مع الرسول ﷺ؛ فقد أصبح عدوهم يحيط بهم من كلّ جانب، في داخل المدينة وخارجها، وجاء هذا الغدر في لحظة فاصلة بالنسبة إلىٰ المسلمين. وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٥٥٤.

(٢) المغازي، ج١، ص ٣٧٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢ ص ٥٥٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ٧٦.

(٥) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٣٦-٢٣٧.

زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وسارت غزوة الأحزاب بالصورة التي عرضناها قبل ذلك، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفىٰ الله المؤمنين القتال. وبعد انسحاب الأحزاب كان علىٰ الرسول ﷺ والمسلمين أن يتعاملوا مع هذا العدو الداخلي بما يستحق؛ ذلك لأن ما قام به بنو قريظة كان يمثل ذروة الغدر والخيانة، ولعل هذا يتضح مما قاله سعد بن معاذ لسعد بن عبادة حين حاول الأخير أن يذكر بني قريظة بالعهد بينهم وبين رسول الله ﷺ فقالوا له: «من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وهنا قال سعد بن معاذ لسعد بن عبادة: «دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربىٰ من المشاتمة»[١].

من الواضح -إذن- أنّ ما ارتكبه بنو قريظة من غدر كان يستحق وقفة حاسمة؛ ولهذا لم يكد ينصرف الأحزاب عن المدينة حتىٰ أذّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلَّا ببني قريظة»[٢]! فسار المسلمون من فورهم إلىٰ حصون بني قريظة في المدينة، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة في السنة الخامسة من الهجرة (أبريل ٦٢٧م) وحاصروهم خمسة عشر يومًا[٣] حتىٰ «جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب»[٤]. وهنا بدؤوا يتشاورون فيما بينهم: ماذا يصنعون؟ وقد عرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد ثلاثة اختيارات: أن يعتنقوا الإسلام، أو أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم ثم يجاهدوا المسلمين دون مبالاة بالموت، أو أن يباغتوا المسلمين بالهجوم ليلة السبت حيث لا يتصور أحد أن يحدث ذلك؛ لأن السبت عند اليهود يوم راحة وعبادة لا يوم عمل وقتال. وقد رفض اليهود كلّ هذه الاختيارات. فقالوا عن تبرير رفضهم لاعتناق الإسلام: «لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره». وقالوا عن تبرير رفضهم لقتل نسائهم وأبنائهم

(١) تاريخ الطبري، ج٢ ص ٥٧٢. وأربىٰ: أي أعظم وأشد. وانظر ما سبق، ص١٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٥٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٩٦. ويذكر ابن إسحاق أن الحصار استمر خمسًا وعشرين ليلة. انظر سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٥٤.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٥٤.

ليستطيعوا مهاجمة المسلمين: «نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟!» أمّا تبريرهم لرفض القتال ليلة السبت فقد قام على أساس ألا يفسدوا سبتهم عليهم. وقد قال لهم كعب بن أسد بعد رفضهم لكل مقترحاته: «ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا!»[1].

وبعد محاولة الاتصال برسول الله ﷺ والتفاوض معه رضي بنو قريظة بأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ زعيم الأوس. وكان بنو قريظة حلفاء الأوس؛ ولهذا طمعوا في أن يرفق بهم سعد. وكلم بعض رجال الأوس سعدًا في ذلك فكان جوابه: «قد أنى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم!» وكان سعد قد أصيب في غزوة الخندق -كما تقدم- وجيء به محمولًا إلى رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة. وقد نظر سعد إلى بشاعة الجرم الذي ارتكبه بنو قريظة واستنتج أنّ العفو عن أمثال هؤلاء يجعل المسلمين لا يأمنون تجدُّد غدرهم بصورة أبشع وأقسى؛ ولهذا حكم بأن تقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم[2]. فقال له رسول الله ﷺ: أصبت حكم الله فيهم[3]!

وهكذا شهدت المرحلة الأولى من حياة الرسول ﷺ بالمدينة (١-٦هـ) نهاية التجمع اليهودي هناك، بكل ما ارتبط به من مؤامرات ودسائس[4]، ولم يكن ذلك إلّا لأن اليهود لم يحترموا عهودهم مع المسلمين ولم يقيموا اعتبارًا لما يتطلبه الجوار المشترك معهم من علاقات تعاون ومودة وتآلف. والجدير بالملاحظة هنا أنّ كثيرًا من الباحثين الغربيين اتخذوا من موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة وسيلة للهجوم على الإسلام واتهامه بالعنصرية والقسوة على المخالفين في الرأي والمذهب. وكان ما تعرض له يهود بني قريظة بصفة خاصة هو أكثر ما أثار هؤلاء على أساس أنه من وجهة نظرهم يشبه ما حل بهم على يد النازيين. وقد تصدت المستشرقة البريطانية «كارين

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ١٢٤.

(٤) ومع ذلك لم ينته الوجود اليهودي تمامًا من المدينة بالقضاء على بني قريظة فقد ظل هناك أفراد وأسر متعددة تتمتع بالأمن على الأنفس والأموال وبحرية العقيدة. انظر المغازي للواقدي، ج٢، ص ٦٣٧.

آرمسترونج» لهذه التهم وفنَّدَتْها. فهي ترىٰ «أنّ صراع محمد ﷺ مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث كان مختلفًا تمامًا عن الكراهية الدينية والعرقية التي أدت إلىٰ أن يُشعل مسيحيو أوروبا المذابح لمدة تقرب من ألف عام»(١). كما تؤكد الباحثة أنّ الصراع مع يهود المدينة كان ذا طابع سياسي محض، فلم يكن بوسع المؤمنين أن يؤوا عدوًّا لهم بينهم ببساطة. وفيما يتعلق بموقف الرسول ﷺ من يهود بني قريظة وما يبدو فيه من قسوة، تشير «آرمسترونج» إلىٰ «أنّ القرظيين أوشكوا أن يدمروا المدينة، ولو أنّ محمدًا أطلق سراحهم لعملوا علىٰ زيادة معارضة اليهود في خيبر، ولنظموا هجومًا آخر ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرىٰ، كما أنّ المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلىٰ ما لا نهاية، ويستمر معها المعاناة والموت»(٢). ولم يفُتْ «كارين آرمسترونج» أن تؤكد أنّ هذا الحادث لم يؤثر في موقف المسلمين من اليهود، فقد تعايشت المجموعات الدينية المختلفة جنبًا إلىٰ جنب في ظل الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. وتؤكد الباحثة أنّ «المعاداة للسامية خطيئة مسيحية غربية وليست خطيئة إسلامية . . . ففي ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود، مثلهم مثل المسيحيين، بحرية دينية كاملة . . . ولم يُعانِ اليهود في ظل الإسلام قط ما عانوه في ظل المسيحية»(٣).

❋ ❋ ❋

هذا؛ ولم تنتهِ قصة المسلمين مع اليهود بما كان بينهم وبين بني قريظة، فقد كانت لهم مع يهود خيبر -خارج المدينة- قصة أخرىٰ سنناقشها بعد قليل.

---

(١) كارين آرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص ٢٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠٩.

الفصل التاسع
من صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦-٩هـ): اتساع نطاق الدعوة وتأكيد هيبة الدولة

شهدت المرحلة التي أعقبت صلح الحديبية حتىٰ عام الوفود (٦-٩هـ/ ٦٢٨-٦٣٠م) نشاطًا ملحوظًا للدعوة الإسلامية، سواء أكان ذلك داخل شبه الجزيرة العربية أم خارجها. ثم إن هذه المرحلة شهدت أيضًا عددًا من الأحداث التي كان لها تأثيرها في دعم هيبة الدولة الإسلامية في الداخل والخارج.

وسوف نتناول في هذا الفصل -باختصار وتركيز- النقاط التالية:

١- كتب رسول الله ﷺ إلىٰ الملوك.

٢- فتح خيبر.

٣- عمرة القضاء.

٤- سرية مؤتة.

٥- فتح مكة.

٦- غزوة حنين والطائف.

٧- غزوة تبوك.

١- كتب رسول الله ﷺ إلىٰ الملوك:

تجمع مصادرنا التاريخية علىٰ أنّ الرسول ﷺ أرسل كتبه إلىٰ ملوك العالم وأمرائه يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام بعد صلح الحديبية، ولكنها لا تتفق علىٰ تاريخ إرسال هذه

الكتب علىٰ وجه الدقة. فتذكر بعض المصادر أنها أرسلت في ذي الحجة ٦هـ[١]، وتذكر مصادر أخرىٰ أنّ إرسالها بدأ في سنة ٧هـ[٢]. والجدير بالملاحظة أنّ الأعوام التالية شهدت مزيدًا من هذه الكتب. ومما يذكره الطبري في هذا السياق -رواية عن ابن إسحاق- أنّ الرسول ﷺ «فرق رجالًا من أصحابه إلىٰ ملوك العرب والعجم دعاة إلىٰ الله ﷻ فيما بين الحديبية ووفاته»[٣].

اختار الرسول ﷺ عددًا من صحابته لحمل كتبه إلىٰ الملوك والأمراء؛ فأرسل دحية ابن خليفة الكلبي بكتابه إلىٰ إمبراطور الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلىٰ المقوقس حاكم مصر، وعبد الله بن حذافة السهمي إلىٰ إمبراطور الفرس، وعمرو بن أمية الضمري إلىٰ النجاشي ملك الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلىٰ الحارث بن أبي شمر الغساني، وسليط بن عمرو العامري إلىٰ هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة[٤]. وكان ذلك في العام السابع للهجرة علىٰ أرجح الأقوال[٥]. وفي العام الثامن للهجرة أرسل عمرو بن العاص (وكان قد أسلم منذ زمن قصير) إلىٰ جَيْفَر وعباد ابني جُلَنْدَي صاحبي عُمان، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلىٰ المنذر بن ساوي صاحب البحرين[٦].

وتذكر مصادرنا بعض نصوص الكتب التي أرسلها الرسول ﷺ إلىٰ هؤلاء الملوك. فمن ذلك كتابه إلىٰ هرقل إمبراطور الروم، وهذا نصه كما يرويه البخاري: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلامٌ علىٰ من اتبع الهدىٰ. أمّا بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَم، وأسلم يؤتك الله

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٤٤، والكامل لابن الأثير، ج٢، ص ٢١٠، ومروج الذهب للمسعودي، ج٢، ص ٢٩٦.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص ٥٣١.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٤٥-٦٤٦، وأنساب الأشراف، ج١، ص ٥٣١.

(٥) أنساب الأشراف، ج١، ص ٥٣١.

(٦) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٢٩. هذا؛ ويقدم لنا اليعقوبي مزيدًا من أسماء رسل النبي ﷺ إلىٰ الملوك. فمن هؤلاء جرير بن عبد الله البجلي إلىٰ ذي الكلاع الحميري، وعمار بن ياسر إلىٰ الأيهم بن النعمان الغساني، والمهاجر بن أبي أمية إلىٰ الحارث بن عبد كلال الحميري. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٧٨.

أجرك مرَّتين، فإنْ توليت فعليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإنْ تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»(١).

وهذا نص كتابه إلىٰ إمبراطور الفرس: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس، سلامٌ علىٰ من اتبع الهدىٰ وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله إلىٰ الناس كافَّة لينذر من كان حيًّا ويحق القول علىٰ الكافرين. فأسلِم تسلم، فإن توليت فإنّ عليك آثام المجوس»(٢).

يقدم لنا هذان الكتابان مثالًا لجوهر ما تضمنته كتب الرسول ﷺ الأخرىٰ إلىٰ الملوك والأمراء. فهي تدور حول دعوة هؤلاء بالحسنىٰ إلىٰ اعتناق الإسلام. ولا نجد في إرسال الرسول ﷺ لهذه الكتب ما يدعونا إلىٰ الدهشة لأن الرسول ﷺ مكلف بإبلاغ رسالته إلىٰ البشر جميعًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تتجاوز مهمته هذا النطاق. أمّا الأمر المدهش حقًّا فهو أن نجد من المستشرقين من ينكر وثاقة هذه الكتب علىٰ أساس أنّ الإسلام دين موجه إلىٰ العرب فحسب، وقد تجاوز عدد من هذه الكتب حدود شبه الجزيرة العربية؛ ومن هنا فهم يعتقدون أنها من إضافات المتأخرين دفاعًا عما يتصورونه من عالمية الإسلام. ومن بين المستشرقين الذين يتبنون هذا الرأي «فازيليف»(٣) و«جرونباوم»(٤) و«جلوب»(٥) و«كارين آرمسترونج»(٦).

والحق أنّ عالمية الإسلام حقيقة أثبتها القرآن نفسه ولم يخترعها المتأخرون، ويتضح ذلك من العديد من الآيات، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص ٥٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٧٧.

(3) A. A. Vasiliev, History Of The Byzantine Empire, P. 211.

(4) G. E. Von Grunebaum, Classical Islam, P. 42.

(5) J. Glubb, The Great Arab Compuests, P. 89 f.

(٦) كارين آرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص ٣١٤.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ثم إن أقدم مصادر السيرة أثبتت بعض هذه الكتب، وعلىٰ رأسها صحيح البخاري. ونضيف إلىٰ ذلك أنّ إرسال هذه الكتب ينسجم تمامًا مع واقع حياة الرسول ﷺ بعد البعثة ومع مقتضيات دعوته[١]. وقد استعظم بعض المستشرقين أن يقدم الرسول ﷺ علىٰ إرسال كتب إلىٰ رجال في مكانة كسرىٰ وقيصر دون أن يخشىٰ بطشهم. ولكن حياة الرسول ﷺ تنبئنا أنه كان لا يبالي بما يلاقي في سبيل الدعوة، وهذا ما رأيناه في رحلة الطائف، وفي دعوته عتاة المشركين إلىٰ اعتناق الإسلام في مواسم العرب، وفي غير ذلك من المواقف.

ليس هناك إذن ما يدعونا إلىٰ الشك في وثاقة هذه الكتب. والجدير بالذكر أنّ أصداء هذه الكتب لدىٰ الملوك والأمراء كانت متباينة؛ فمنهم من رد ردًّا جميلًا كالمقوقس الذي أهدىٰ إلىٰ الرسول ﷺ جاريتين منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ[٢]، وكالنجاشي الذي أكرم رسول رسول الله ﷺ وذكر الإسلام بالثناء، بل يروي بعض المؤرخين أنه أسلم[٣]، وإن كان ذلك لم يثبت ثبوتًا قاطعًا. ومن الملوك من رد ردًّا قبيحًا كما فعل إمبراطور الفرس الذي مزق كتاب رسول الله ﷺ، فقال ﷺ عندما علم بذلك: «مُزِّق ملكه»[٤]!

لم تُسفِر هذه الكتب عن إسلام الكثير ممن أُرسلت إليهم، ولكنها -مع ذلك- أتاحت لهم فرصة التعرف إلىٰ دعوة الإسلام والتفكير فيها، وكان ذلك مقدمة لانتشار هذه الدعوة خارج شبه الجزيرة العربية في وقت لاحق.

٢- فتح خيبر (صفر ٧ هـ - مايو ٦٢٨م) وإخضاع يهود شبه الجزيرة:

كانت خيبر (شمالي المدينة) من أهم المراكز اليهودية في شبه الجزيرة العربية. وقد انضم إلىٰ يهود خيبر الأصليين بعض اليهود الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وخاصة يهود بني النضير. فليس من المستغرب -إذن- أن تصبح خيبر مركزًا للتآمر

---

(١) للمزيد من التفصيل حول ذلك ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة ص ٧٢-٨٣.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٤٧.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، ج١، ص ١١٩، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٤٣٨.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٥٤.

اليهودي ضد المسلمين. ومن هنا أراد الرسول ﷺ أن يقضي علىٰ شوكة اليهود في هذا المعقل الحصين حتىٰ يؤمن دولة الإسلام من كيد طائفة تعد من أخطر أعدائها.

وقد تميزت خيبر بحصونها المنيعة وما تشتمل عليه هذه الحصون من العدد والعدة. ولهذا كان أهلها -في مكرهم بالمسلمين- لا يبالون بهم، و«كانوا يُخرجون كلّ يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات! هيهات!»[1]. وكان من تبقىٰ بالمدينة من اليهود يقولون للمسلمين: «ما أَمْنَع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أنْ تصلوا إليهم!»[2].

وكان من الضروري أن يضع الرسول ﷺ حدًّا لهذا الخطر الذي يهدد أمن الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة. ولهذا خرج في صفر من العام السابع للهجرة[3] (مايو ٦٢٨م) علىٰ رأس ألف وأربعمائة من أصحابه، من بينهم مائتا فارس[4]، متوجهًا نحو خيبر، وكان اليهود عشرة آلاف مقاتل يقودهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق[5]. وقد استعانت اليهود بحلفائها من العرب من أسد وغفار وغيرهما، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة[6]. ومع كلّ ما حفلت به خيبر من عدد وعتاد، ورغم المقاومة العنيدة التي أبداها أهلها، فقد أخذت حصونها تتساقط أمام استبسال المسلمين وإصرارهم علىٰ فتحها. وقد استطاع المسلمون أنْ يستولوا علىٰ حصون «النَّطاة» و«الشِّق» و«الكتيبة». ويضم كلّ حصن من هذه الحصون الأساسية عددًا من الحصون الداخلية المنيعة. وكان حصن «ناعم» من أمنع حصون النطاة، وبه عدد من شجعان اليهود الذين قتلوا في أثناء هجوم المسلمين علىٰ الحصن، ومن أبرزهم الحارث ومرحب وياسر وأُسير وعامر[7]. وكان حصن «النزار» من أمنع حصون «الشِّق» وهو الذي أُسِرت فيه صفية

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٦٣٧.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٩٨، ويذكر ابن شاكر الكتبي أنّ جيش الرسول تكوّن من ١٤٠٠ راجل ومائتي فارس. انظر: عيون التواريخ، ج١، ص ٢٦٤.

(٥) المغازي، ج٢، ص ٦٤٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٠٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٥٧.

بنت حُيَيّ بن أخطب التي أصبحت فيما بعد إحدىٰ أمهات المؤمنين. أمّا أمنع حصون الكتيبة فهو حصن «القموص»، وكان اليهود بقيادة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق قد تحصنوا فيه بعد استيلاء المسلمين علىٰ حصون النطاة والشق، «فما هو إلَّا أن قيل: هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشق في أصحابه، وقد تهيأ أهل القموص وقاموا علىٰ باب الحصن بالنبل، فنهض كنانة إلىٰ قوسه فما قدر أن يُوتِرَها من الرِّعدة، وأومأ إلىٰ أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع في حصنه، فما رئي منهم أحد، حتىٰ أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب»[1].

وهكذا استسلم حصن القموص. ثم كان آخر ما استولىٰ عليه المسلمون من حصون خيبر حصن «الوطيح» وحصن «السُّلالم»[2]، وقد ضرب الرسول ﷺ عليهما حصارًا دام أربعة عشر يومًا، ثم طلب أهل الحصنين الصلح فأجابهم الرسول ﷺ إليه[3]. والجدير بالذكر هنا أنّ الرسول ﷺ عامل أهل خيبر -بعد استسلامهم- معاملة تتسم باللين والتسامح؛ فقد حقن لهم دماءهم وأقرهم علىٰ أرضهم يزرعونها علىٰ أن يكون لهم نصف ما تنتجه وللمسلمين النصف. وكان اليهود هم الذين اقترحوا علىٰ الرسول ﷺ أن يقيهم علىٰ أرضهم قائلين له: «نحن أعلم بها منكم وأعمر لها»[4]. وعندما تم الاتفاق السابق بين الرسول ﷺ ويهود خيبر اشتكىٰ اليهود إلىٰ الرسول ﷺ من أنّ بعض المسلمين يدخلون أرضهم فيأخذون من ثمارها، فأمر الرسول ﷺ من ينادي في المسلمين: الصلاة جامعة! فلما اجتمع المسلمون قام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «إن اليهود شكوا إليّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أَمَّنَّاهم علىٰ دمائهم وعلىٰ أموالهم والذي في أيديهم من أراضيهم، وعاملناهم؛ وإنه لا تحل أموال المعاهَدين إلَّا بحقها»[5]. فاستجاب جميع المسلمين لتوجيه الرسول ﷺ. وقد تم فتح خيبر في صفر ٧ هـ (مايو ٦٢٨م).

(١) المصدر نفسه، ص ٦٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٨٣.

(٣) المغازي، ج٢، ص ٦٧٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٥.

(٥) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٦٩١.

هذا؛ وقد كانت لليهود مراكز أخرىٰ بالقرب من خيبر، وهي فَدَك وتيماء ووادي القرىٰ، وعندما علم يهود فدك بما جرىٰ لجيرانهم من يهود خيبر تملكهم الرعب فقبلوا أن يصالحوا الرسول علىٰ نصف أموالهم دون قتال. ومن هنا أصبحت فدك خالصة لرسول الله ﷺ ولم تصبح فيئًا كخيبر؛ لأن المسلمين لم يُجْلبوا عليها بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا دونها(١).

أمّا يهود وادي القرىٰ فإنهم لم يذعنوا منذ البداية بل قاتلوا حتىٰ اضطروا إلىٰ التسليم وصالحوا رسول الله ﷺ علىٰ ما صالحه عليه أهل خيبر، وكان ذلك في جمادىٰ الآخرة سنة ٧هـ(٢). وأما يهود تيماء فقد أذعنوا للمسلمين دون قتال، وقبلوا أن يدفعوا الجزية بعد أن بلغهم ما آلت إليه مقاومة خيبر ووادي القرىٰ(٣). وهكذا دان اليهود للمسلمين ولم يعودوا يشكلون خطرًا علىٰ مسار الدعوة الإسلامية، ولكنهم في الوقت نفسه وجدوا من الرسول ﷺ كامل الرعاية لعهوده معهم فتمتعوا بالأمن علىٰ أنفسهم وأموالهم وبحرية العقيدة.

٣- عمرة القضاء: (ذو القعدة ٧هـ - مارس ٦٢٩م):

ذكرنا أنّ مشركي قريش صدوا رسول الله ﷺ والمسلمين عن المسجد الحرام في ذي القعدة سنة ٦هـ عندما ذهبوا معتمرين. وقد آل الأمر إلىٰ عقد صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وقريش، وكان من بين بنود هذا الصلح أن يخرج المسلمون معتمرين بعد انقضاء العام علىٰ أن تُخْلي قريش مكة لهم ثلاثة أيام، فلما انقضىٰ العام خرج الرسول ﷺ في ذي القعدة سنة ٧هـ معتمرًا عمرة القضاء، وخرج معه المسلمون ممن كانوا في عمرته تلك، فأخلت قريش لهم مكة فدخلها الرسول ﷺ والمسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، وقضوا عمرتهم ثم انصرفوا راجعين إلىٰ المدينة بعد أن ملأوا أرجاء مكة بذكر الله وأعلنوا فيها شعار الإسلام(٤). ورغم إخلاء قريش مكة للمسلمين فإنها كانت بحيث تستطيع أن ترقب هذا الحشد الهائل من المسلمين الذين جاءوا ليطوفوا بالبيت

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٧-٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨، والمغازي ج٢، ص ٧١١.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول عمرة القضاء ارجع إلىٰ: سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٢٤ وما بعدها.

العتيق في مشهد يأخذ بمجامع القلوب، ولا شك أن ذلك كان له عميق الأثر في نفوس الكثيرين[1].

٤- سرية مؤتة: (جمادىٰ الأولىٰ ٨هـ - سبتمبر ٦٢٩م):

أرسل الرسول ﷺ أحد أصحابه -وهو الحارث بن عمير الأزدي- إلىٰ ملك بصرىٰ -أحد ملوك الغساسنة بالشام- بكتاب له يدعوه فيه إلىٰ الإسلام، فاعترض طريقه شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله في مؤتة[2]. وعندما أرسل الرسول ﷺ شجاع بن وهب الأسدي إلىٰ الحارث بن أبي شمر الغساني أساء الأخير استقبال مبعوث رسول الله ﷺ وهدد بإعلان الحرب علىٰ المدينة[3]. ثم إن إساءات عرب الشام للمسلمين تجاوزت ذلك كله عندما أرسل الرسول ﷺ (في ربيع الأول سنة ٨هـ) خمسة عشر من أصحابه بقيادة كعب بن عمير الغفاري إلىٰ مكان يقال له: «ذات أطلاح» بالشام فوثبت عليهم «قضاعة» بجموعها فقتلتهم جميعًا إلَّا واحدًا نجا وبه رمق، فاستطاع أن يصل إلىٰ الرسول ﷺ ويخبره بما حدث[4].

اجتمعت هذه الأسباب كلها لتجعل الرسول ﷺ يتخذ قرارًا بتأديب عرب الشام الموالين للروم. وإذا كان قتل الغساسنة لمبعوث رسول الله ﷺ إلىٰ ملك بُصرىٰ يشكل دافعًا قويًّا وراء القرار فلا شك أنّ أقوىٰ هذه الدوافع كان فتك قضاعة بالدعاة المسلمين في ذات أطلاح، وهو الذي حدث قبل سرية مؤتة بحوالي شهرين.

هكذا أعدّ الرسول ﷺ جيشًا بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل ليقوم بمهمة محددة وهي تأديب عرب الشام الذين تطاولوا علىٰ المسلمين واستباحوا دماءهم، وجعل أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة.

---

(١) تقول كارين آرمسترونج: «ودهشت قريش حين شاهدت جموع المسلمين كلها وهي ترحل عن البلدة مع هبوط الظلام، وكان النظام الذي تسير به يبدو بعيدًا عن تصور أبناء مكة؛ إذ كانت الفرقة والفوضىٰ بينهم من العوامل التي أدت إلىٰ سقوطهم». انظر كتابها: سيرة النبي محمد، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ، ج٢، ص ١٢٨، وجـ ٤، ص ٣٤٣. والواقدي: المغازي، ج٢، ص ٧٥٥.

(٣) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٥٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ، ج٢، ص ١٢٧، والواقدي: المغازي، ج٢، ص ٧٥٢-٧٥٣.

تحرك الجيش الإسلامي من المدينة في اتجاه الشام في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨هـ (سبتمبر ٦٢٩م). وكان الرسول ﷺ قد أوصىٰ زيد بن حارثة ورجاله أن يتوجهوا إلىٰ مؤتة، حيث قتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلىٰ الإسلام. «فإن أجابوا، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم»[١].

والواضح أنّ عرب الشام عندما سمعوا بتحرك الجيش الإسلامي استعانوا بالروم؛ ذلك أننا نقرأ في مصادرنا أنّ جيش العدو بلغ مائتي ألف: مائة ألف من عرب الشام المتنصرة، ومائة ألف من الروم[٢]. وقد يكون في هذا الرقم قدر من المبالغة، ولكن الذي لا شك فيه أنّ جيش العدو بلغ أضعاف الجيش الإسلامي.

سار زيد بن حارثة بجيشه حتىٰ نزل «معان» (وهي إلىٰ الشمال الشرقي من مدينة أيلة)، وفي معان علم المسلمون أنّ جيش العدو قد نزل «مآب» من أرض البلقاء، وقد فاقت أعداده كلّ توقعاتهم[٣].

وعندما فوجئ المسلمون بما لم يكونوا يحتسبون من ضخامة جيش العدو تشاوروا فيما بينهم: ماذا يصنعون؟ ولكن عبد الله بن رواحة حسم الأمر بقوله: «ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة! ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدىٰ الحسنيين»، فقال المسلمون: «قد -والله- صدق ابن رواحة»[٤].

هكذا مضىٰ المسلمون للقاء العدو حتىٰ وصلوا إلىٰ البلقاء من أرض الشام، وهناك اتخذوا من قرية «مؤتة» بالأردن مركزًا لهم. وفي هذا المكان التقىٰ جمعهم القليل بجموع العدو الهائلة من الروم ومتنصرة العرب. وقد استشهد في بداية اللقاء زيد بن حارثة. ثم حمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد، ثم جاء الدور علىٰ عبد الله بن رواحة الذي تردد في البداية بعض التردد، ولكنه سرعان ما ذكّر نفسه بما تمناه من الشهادة، فتقدم متأسّيًا بصاحبيه زيد وجعفر، وحمل الراية وهو يُنشِد:

---

(١) الطبقات الكبرىٰ، ج٢، ص ١٢٨.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧-٣٨.

يـا نـفـس إلا تـقـتـلـي تـمـوتـي هـذا حِـمَـام الـمـوت قـد صَـلِـيـتِ
ومـا تـمـنـيـت فـقـد أعـطـيـتِ إن تـفـعـلـي فـعـلـهـمـا هـديـتِ

ثم قاتل حتىٰ استشهد[١]. ثم دُفعت الراية إلىٰ ثابت بن أرقم بن ثعلبة البلوي، ولكنه دفعها إلىٰ خالد بن الوليد، وقال له: «أنت أعلم بالقتال مني»[٢]. وكان خالد قد أسلم حديثًا (في العام نفسه)[٣]، وكانت مؤتة أول مشاهده في الإسلام[٤]. وكان علىٰ خالد أن ينقذ جيش المسلمين من الدمار الكامل، فاجتهد في أن يعدل وضع الجيش حتىٰ يوهم الأعداء أنّ مددًا قد جاءه من المدينة فلا يجترئوا علىٰ تعقب الجيش المنسحب. وقد نجحت خطة خالد فداور بالمسلمين حتىٰ انسحب بهم ووصل بهم المدينة دون خسائر تذكر. ولا شك أنّ صنيع خالد هذا كشف عن عبقرية عسكرية لا تدانىٰ، ولم يكتم الرسول ﷺ إعجابه به في هذه المناسبة فقال عنه: «اللهم إنه سيف من سيوفك»، فمنذ ذلك اليوم عرف خالد بـ «سيف الله»[٥].

كانت معركة مؤتة أول مواجهة مباشرة بين المسلمين والروم؛ فقد كانت الشرارة الأولىٰ في ذلك الصراع الذي استمر أكثر من ثمانية قرون بين الجانبين[٦]. والواضح أنّ المسلمين لم يفتحوا صفحة ذلك الصراع، فهم ما توجهوا للقاء الروم بل لتأديب عرب الشام الذين أمعنوا في استفزازهم، ثم وجدوا أنفسهم في مواجهة مفروضة عليهم من جانب الروم. ورغم أنّ المسلمين لم يحققوا نصرًا في هذه المعركة فمن الصعب أنْ نقول إنهم هزموا. فنحن نلاحظ أنّ الجيش الإسلامي رجع إلىٰ المدينة سالمًا، ولم يتجاوز عدد الشهداء المسلمين اثني عشر[٧]، بل إن بعض المصادر تذكر أنهم كانوا ثمانية[٨]. ولو كان ما حدث في مؤتة هزيمة بالمعنىٰ الدقيق لسُحِق الجيش

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩-٤٠.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج١، ص ٢٦٥.

(٣) أسلم هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة في الوقت نفسه، وذلك في صفر سنة ٨هـ انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج١، ص ١٢.

(٥) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٤٠-٤١.

(6) Philip Hitti, History of the Arabs. P. 177.

(٧) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٤٧.

(٨) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٧٦٩.

الإسلامي سحقًا. والجدير بالذكر في هذا السياق أنّ المسلمين المنسحبين لقوا شدة من سوء استقبال أهل المدينة لهم؛ فقد «لقيهم الصبيان يشتدون»! وجعل الناس يَحْثُون علىٰ الجيش التراب ويقولون: «يا فُرَّار! فررتم في سبيل الله!» فقال ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله!»(١)، وهذا هو ما كان.

٥- فتح مكة (رمضان ٨هـ - يناير ٦٣٠م):

كان من بين بنود صلح الحديبية أنّ من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وبناء علىٰ ذلك دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش وعهدهم.

وقد حدث في اثناء هدنة الحديبية أن عدت بنو بكر علىٰ خزاعة فأصابوا منها رجلًا. واقتتل الفريقان. وكان يمكن أن تمر هذه الحادثة دون أن تترك آثارًا بعيدة المدىٰ، ولكن قريشًا أمدت حلفاءها من بني بكر بالسلاح والرجال وتظاهر الجميع علىٰ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وقاتلوها فكانت لهم الكرة عليها. وهنا خرج أحد رجال خزاعة -واسمه عمرو بن سالم- حتىٰ قدم علىٰ الرسول ﷺ المدينة فشرح له ما حدث من نقض قريش لعهدها معه بمناصرتها لحلفائها من بني بكر علىٰ حلفائه من بني خزاعة، وأنشده أبياتًا منها:

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
فانصر -هداك الله- نصرًا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فوعده الرسول ﷺ بالنصر. ثم جاء خزاعي آخر هو بديل بن ورقاء في نفر من قومه إلىٰ الرسول ﷺ ليؤكدوا له نقض قريش لعهدها معه ويلتمس نصرته(٢).

أحست قريش بخطورة ما أقدمت عليه من انتهاك لعهدها مع رسول الله ﷺ وأدركت ما قد يترتب علىٰ ذلك من ردود أفعال من جانبه؛ ولهذا أرسلت إليه أبا سفيان بالمدينة ليؤكد معه عقد الحديبية ويزيد في مدته. ولكن مهمة أبي سفيان

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٣٨. وللمزيد من التفاصيل حول سرية مؤتة وملابساتها ودوافعها وتطوراتها ونتائجها ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص ٨٧-١٠٨.

(٢) انظر التفاصيل في تاريخ الطبري، ج٣، ص ٤٣-٤٥، ومغازي الواقدي، ج٢، ص ٧٨١-٧٨٩.

باءت بالفشل لأن رسول الله ﷺ رفض أن يجيبه. وقد حاول أبو سفيان أن يستعين ببعض كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعليّ ليشفعوا له لدىٰ رسول الله ﷺ، فرفضوا جميعًا، بل يروىٰ أنّ عمر قال لأبي سفيان: «أأنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلّا الذر لجاهدتكم به»![1].

خرج الرسول ﷺ في العاشر من رمضان سنة ٨هـ متوجهًا نحو مكة علىٰ رأس جيش بلغ عشرة آلاف رجل[2]. ولنا هنا أن نقارن بين هذا العدد وبين العدد الذي خرج معه عام الحديبية لنعرف الطفرة الهائلة التي حققتها دعوة الإسلام خلال هذين العامين. وقد كانت الدلائل كلها تشير عندئذ إلىٰ أنّ مكة ستستسلم للمسلمين دون قتال؛ فقد أصبح أتباع دين محمد ﷺ يمثلون قوة هائلة لا قبل لقريش بها، كما فقدت قريش كثيرًا من أئمة الكفر فيها وقادة الحروب ضد المسلمين كأبي جهل وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي البختري بن هاشم. ثم إنّ بعض أبطالها المعدودين قد أسلموا وأصبحوا حربًا علىٰ الوثنية كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص. هذا فضلًا عن أنّ فريقًا من ألد أعداء الإسلام -وهم اليهود- كانوا قد تجرعوا كأس الهزيمة المُرة علىٰ يد المسلمين بعد أن أمعنوا في التآمر عليهم، ففقدت قريش بذلك حليفًا مخلصًا في حربها ضد الإسلام. كلّ هذه العوامل جعلت استسلام مكة للجيش الإسلامي أمرًا مسلمًا به[3].

وفي أثناء تقدم الرسول ﷺ نحو مكة بجيشه لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مسلمًا مهاجرًا بعياله. وحين رأىٰ العباس هذا الجيش الهائل وعرف أنّ وجهته مكة قال: «واصباحَ قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوَةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلىٰ آخر الدهر»[4]! ومن هنا قرر أن يتصل بقريش ويطلب منهم أن يستسلموا لرسول الله ﷺ ويطلبوا منه الأمان نجاة بأنفسهم. ثم خرج يلتمس إنسانًا

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ١٢-١٣. وانظر أيضًا: المغازي للواقدي، ج٢، ص ٧٨٥، وص ٧٩٢-٧٩٣: ويروىٰ: «والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم»! المغازي، ص ٧٩٣. والذر هو النمل الأحمر الصغير.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٥٠.

(٣) انظر حول ذلك: د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج١، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٢٠.

ليحمله رسالته إلىٰ قريش، فالتقىٰ في طريقه بأبي سفيان، فقال له: «هذا رسول الله ﷺ ورائي قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به: بعشرة آلاف من المسلمين»![1] فقال أبو سفيان: فما تأمرني؟ فطلب منه العباس أن يصحبه إلىٰ رسول ﷺ بالمدينة ليطلب منه الأمان. ولعل العباس كان يدرك أنّ حصول أبي سفيان علىٰ الأمان من رسول الله ﷺ سوف يتبعه حصول أهل مكة في مجموعهم علىٰ الأمان؛ لأن أبا سفيان كان زعيم قريش وسيد مكة في ذلك الوقت. وقد استجاب أبو سفيان لاقتراح العباس وتوجه معه إلىٰ الرسول ﷺ. وفي أثناء مرورهم علىٰ جماعات المسلمين لمح عمر أبا سفيان بصحبة العباس فصاح قائلًا: «أبو سفيان! الحمد الله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد!» ثم ذهب مسرعًا إلىٰ الرسول ﷺ. ولكن العباس وأبا سفيان سبقاه إلىٰ هناك. فلما دخل عمر علىٰ الرسول ﷺ، وعنده العباس وأبو سفيان، قال: «يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله! قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه! فقال العباس: «يا رسول الله، إني قد أجرته». فقال له الرسول ﷺ: «**اذهب فقد أمَّنَّاه حتىٰ تغدو به عليّ بالغداة**». فلما أصبح غدا به علىٰ الرسول ﷺ فقال له: «**ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلَّا الله؟**» فقال: «بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنىٰ عني شيئًا». فقال له الرسول ﷺ: «**ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» فقال: «بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أمّا هذه ففي النفس منها شيء!!» فراجعه العباس حتىٰ شهد أنّ محمدًا رسول الله ﷺ![2].

وقد أراد العباس أن يضمن أنّ الأمان الذي منحه الرسول ﷺ لأبي سفيان سوف يشمل غيره من أهل مكة فقال: «يا رسول الله! إنّ أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا يكون في قومه»، فقال الرسول ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن**»[3]. وبهذا شمل هذا الأمان حتىٰ من أغلق عليه بابه، أي لم يقاوم زحف المسلمين إلىٰ مكة وسيطرتهم عليها. فلم يخرج عن نطاق الأمان إلَّا من سل سيفه في وجه المسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣-٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤.

وبعد هذا الأمان انطلق أبو سفيان إلىٰ مكة حتىٰ إذا جاءها صاح بأعلىٰ صوته: «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فقالوا: «قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟» فقال: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، فتفرق الناس إلىٰ دورهم وإلىٰ المسجد[1].

وهكذا لم تتأهب قريش في جملتها للقتال، فزحف الجيش الإسلامي نحو مكة، وعهد الرسول ﷺ إلىٰ أمراء جيشه حين أمَرهم أنْ يدخلوا مكة ألا يقتلوا أحدًا إلَّا من قاتلهم فدخل المسلمون مكة دون مقاومة إلَّا ما كان من صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، الذين جمعوا شرذمة من الناس وحاولوا التصدي لجناح من الجيش الإسلامي كان يقوده خالد بن الوليد، فانهزمت هذه الشرذمة أمام جيش خالد وفر زعماؤها[2].

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا توجه نحو البيت فطاف به سبعًا، واستلم الحجر الأسود، ثم قام علىٰ باب الكعبة، وقريش قد اصطفوا بها، فقال: «لا إله إلَّا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كلّ مأثرة أو دم أو مال يدَّعىٰ فهو تحت قدمي هاتين إلَّا سدانة البيت وسقاية الحج ... إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب»، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم! قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[3]. وأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يصعد فيؤذن علىٰ الكعبة وأشراف قريش جلوس بفنائها[4]. كما أمر بالأصنام فهدمت وهو يتلو قوله تعالىٰ ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١]. وعندما أمر بهبل فكسر قال الزبير بن العوام لأبي سفيان: «يا أبا سفيان، قد كُسِر هبل! أما إنك قد كنت منه يوم أحد في

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٢٣-٢٤.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٨٢٥-٨٢٦.

(٣) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٦٠-٦١، وسيرة ابن هشام، ج٤، ص ٣١-٣٢.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٣٣.

غرور، حين تزعم أنه قد أنعم!» فقال أبو سفيان: «دع هذا عنك يا ابن العوام، فقد أرىٰ لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان»![1].

كان فتح مكة في العشرين من رمضان سنة ٨هـ (يناير ٦٣٠م)، وأقام بها الرسول ﷺ بعد الفتح خمسة عشر يومًا[2]. وقد تكلم بعض الأنصار في احتمال أن يقيم الرسول ﷺ بمكة موطنه الأصلي بعد أن فتحها الله عليه وأن يتخلىٰ عن المدينة، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ قال: «**كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلىٰ الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم**»![3].

إن الأسلوب الذي عامل به الرسول ﷺ أهل مكة بعد فتحها يلخص فلسفة الإسلام في الحرب، فما شُرِعت الحرب في الإسلام إلَّا ردًّا لظلم واقع أو متوقع، وما كان الهدف منها قط الانتقام وسفك الدماء. لقد قاومت مكة الإسلام بكل ما أوتيت من حول وطول، وأخرجت الرسول ﷺ منها بعد أن دبرت لقتله، ومع ذلك لم يسع الرسول ﷺ إلَّا العفو بعد أن رأىٰ أنها أذعنت لكلمة الله. ومن الروايات الدالة في هذا السياق أنّ سعد بن عبادة نادىٰ أبا سفيان يوم فتح مكة قائلا: «يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحرمة! اليوم أذل الله قريشًا»! وقد أبلغ أبو سفيان رسول الله ﷺ مقالة سعد وقال: «إني أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس»! وقال عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان: «يا رسول الله، ما نأمن سعدًا أن يكون منه في قريش صولة»! فقال الرسول ﷺ: «**اليوم يوم المرحمة! اليوم أعز الله فيه قريشًا**»! وعزل سعدًا عن قيادة كتيبته وأعطىٰ لواءها لابنه قيس بن سعد[4].

٦- غزوة حنين والطائف: (شوال - ذو القعدة ٨هـ = فبراير - مارس ٦٣٠م):

حين خرج الرسول ﷺ لغزو مكة لم يكن العرب يعلمون غايته علىٰ وجه التحديد. وظنت قبيلة هوازن التي كانت تقيم جنوب شرقي مكة أنّ الرسول ﷺ متوجه لغزوها،

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٨٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٦٤-٦٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ٣٠٦.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٨٢١-٨٢٢.

فجمعت جموعها واستعدت للقتال. ثم توجه الرسول ﷺ نحو مكة وكان ما كان من الفتح العظيم. وهنا أدركت هوازن أنّ المد الإسلامي يوشك أن يجتاحها، فرأت حتمية الدخول مع المسلمين في جولة حاسمة تقضي بها علىٰ شوكتهم.

وأدركت هوازن أنها لا تستطيع تحقيق تلك الغاية ما لم تلجأ إلىٰ شريك قوي يشد من أزرها. وقد وجدتْ بغيتها في ثقيف ذات البراعة الفائقة في فنون الحرب والقتال وصاحبة التاريخ العريق في عدائها للإسلام. وهكذا تحالفت هوازن وثقيف علىٰ حرب المسلمين، وأقبلت جموعهم بقيادة مالك بن عوف بن سعد النَّصْري(١) أحد رجال هوازن، حتىٰ نزلوا حُنَينًا، وهو وادٍ بين مكة والطائف، وأخذوا يعدون العدة للقاء المسلمين. وكان رسول الله ﷺ ما زال في مكة لم يبرحها مع أصحابه بعد الفتح. وقد لجأ مالك بن عوف إلىٰ وسيلة يضمن بها استماتة رجاله في القتال، فأمر الناس أن يأخذوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم. وكان الشاعر المشهور دُرَيد بن الصِّمة (وهو من بني جُشَم من هوازن) يصحب الجيش. وكان شيخًا فانيًا ولكنه كان صاحب تجربة فأرادوا الاستنارة برأيه. وعندما رأىٰ دريد ما صنعه مالك بن عوف من اصطحابه للنساء والأبناء والأموال سأله عن الحكمة في ذلك فقال له: «أردت أن أجعل خلف كلّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم»، فقال له دريد: «راعي ضأن والله! هل يردّ المنهزمَ شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلّا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك»! ولكن مالك بن عوف أبىٰ إلّا الاستمساك برأيه(٢).

ولما علم الرسول ﷺ بما أجمعت عليه هوازن وثقيف من حرب المسلمين أرسل إليهم أحد رجاله -وهو عبد الله بن أبي حَدْرد الأسلمي- ليأتيه بمزيد من الأخبار عنهم. فذهب عبد الله في مهمته ثم رجع ليؤكد للرسول ﷺ صدق ما بلغه عن عدوه(٣). فخرج من مكة في شوال سنة ٨هـ (فبراير ٦٣٠م) في اثني عشر ألفًا من المسلمين، منهم ألفان من أهل مكة، أمّا الباقون فهم الذين فتح الله بهم مكة. ثم

---

(١) مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع، ينتهي نسبه إلىٰ نصر بن معاوية بن بكر بن هوزان. انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٢٦٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٧١. والمغازي، ج٣، ص ٨٨٧-٨٨٨.

(٣) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٧٣.

توجه إلىٰ لقاء العدو بوادي حنين، وقد أعجبت المسلمين كثرتُهم، فقال بعضهم: «لن نغلب اليوم من قلة»[(١)]!

ودخل المسلمون وادي حنين، وكانت هوازن وثقيف قد كمنوا لهم في شعابه ومضايقه، فبرزوا لهم في عماية الصبح من مكامنهم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. ولم يكن المسلمون قد أعدوا أنفسهم لمثل هذه المفاجأة. فسيطر الذعر والفوضىٰ علىٰ صفوفهم، واضطرب شملهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين! وهنا أظهر بعض أهل مكة ما في نفوسهم من الضغينة، فقد أسلم بعضهم ولما يدخل الإيمان في قلوبهم. ويروىٰ أنّ أبا سفيان بن حرب قال يومئذ: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»! وصرخ رجل يقال له كَلَدَة بن الحنبل (وهو أخو صفوان بن أمية لأمه) فقال: «ألا بطل السحر اليوم»[(٢)].

وفي مثل هذه المواقف الصعبة يصبح دور القائد أساسيًا لأنه يستطيع أن يحول الهزيمة إلىٰ نصر. وقد وقف الرسول ﷺ في مكانه ثابتًا كالطود ووقف بجانبه نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، ومنهم أبو بكر وعمر وعليّ والعباس والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد[(٣)]. وصاح ﷺ في المسلمين المنهزمين: أين أيها الناس؟ هلم إليّ! أنا محمد بن عبد الله! ونزل من علىٰ بغلته وهو يرتجز:

أنـــا الـــنـــبـــي لا كـــذبْ　　　أنـــا ابـــن عـــبـــد الـــمـــطـــلـــب!

ثم أمر عمه العباس -وكان جهوري الصوت- أن يصرخ: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمُرة![(٤)] يا أهل بيعة الرضوان! فأجابوا: لبيك لبيك[(٥)]! ورجعت الأنصار وهم يقولون: الكرة بعد الفرة[(٦)]! واجتمع إلىٰ الرسول ﷺ مائة من أصحابه استقبلوا عدوهم وقاتلوا قتال المستميت، فقال الرسول ﷺ حين رأىٰ القوم وهم

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٨٨٩-٨٩٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ٣٢١.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٧٤، والمغازي، ج٣، ص ٩١٠.

(٣) المغازي، ج٣، ص ٩٠٠.

(٤) السَّمُرة: اسم الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان.

(٥) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٧٥-٧٦.

(٦) المغازي، ج٣، ص ٨٩٩.

يجتلدون: الآن حمي الوطيس! وعندما رأىٰ بقية المسلمين ثبات هؤلاء النفر حول رسول الله ﷺ ثابوا إليه لتكون لهم الكرة علىٰ عدوهم[1]. وكان عليّ بن أبي طالب قد نجح في أن يقتل صاحب راية هوازن، فأدَّىٰ ذلك إلىٰ اضطراب شمل المشركين، فأحاط بهم المسلمون وأعملوا السيف فيهم فانهزموا أمامهم لا يلوون علىٰ شيء حتىٰ أتىٰ معظمهم إلىٰ الطائف بعد أن كان المسلمون قد قتلوا منهم وأسروا وسبوا[2] وغنموا غنائم كثيرة. وكان من بين الذين ذهبوا إلىٰ الطائف مالك بن عوف قائد جيش المشركين[3].

وهكذا تحصنت فلول هوازن وثقيف بالطائف وأغلقوا عليهم أبواب تلك المدينة المنيعة «وصنعوا الصنائع للقتال»[4]، فسار إليهم رسول الله ﷺ وفرض الحصار علىٰ الطائف في شوال ٨ هـ (فبراير ٦٣٠م)، وقد لقي المسلمون عناء في حصار الطائف؛ فقد كان أهلها من ثقيف أصحاب خبرة طويلة بالقتال من وراء الحصون، فاستطاعوا أن يقتلوا بالنَّبْل عددًا من المسلمين في اثناء الحصار، فأمر الرسول ﷺ المسلمين أن يرموا حصون الطائف بالمنجنيق، وكان المنجنيق من بين الأسلحة التي استولىٰ عليها المسلمون من حصون خيبر، كما «دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة[5] ثم زحفوا بها إلىٰ جدار الطائف ليحرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سِكَك الحديد محماةً بالنار فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل وقتلوا رجالًا، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون»[6].

وعندئذٍ أرسلت ثقيف إلىٰ الرسول ﷺ تسأله أن يدع لهم أعنابهم لله والرحم[7]،

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٧٥-٧٧.

(٢) كانت الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة من بين سبي هوزان. وقد أكرمها رسول الله ﷺ وردها إلىٰ قومها واعتنقت الإسلام يومئذ. انظر: الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٩١٣-٩١٤، وتاريخ الطبري، ج٣، ص ٨١.

(٣) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٧٨.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٩٢٤.

(٥) الدبابة بيت صغير يعمل من جلود الإبل والبقر تعمل للحصون، يدخلها الرجال فيقبون من داخلها، ويكون سقفها حرزًا لهم من الرمي. انظر: تخريج الدلالات السمعية للخزاعي التلمساني، ص ٤٩٣.

(٦) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ١٢٨.

(٧) المغازي، ج٣، ص ٩٢٨، وهامش ٢.

فتركها لهم، ثم أمر مناديًا فنادىٰ في ثقيف: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر». فخرج إليه منهم بضعة عشر رجلًا، فاشتد ذلك علىٰ أهل الطائف.

وقد استمر حصار الطائف ما يقرب من الشهر علىٰ اختلاف الروايات في ذلك. ثم أمر الرسول ﷺ برفع الحصار في ذي القعدة سنة ٨هـ (مارس ٦٣٠م)؛ ذلك أنه علم أنَّ ثقيفًا قد أعدت عدتها لحصار طويل، كما سقط من أصحابه اثنا عشر شهيدًا بنبال ثقيف ولم يظهر بعد ما يشير إلىٰ قرب استسلام الطائف. ولم يرفع الرسول ﷺ الحصار إلَّا بعد أن استشار أحد ذوي الخبرة من صحابته، وهو نوفل بن معاوية الديلي، وقال له: «**يا نوفل، ما ترىٰ في المقام عليهم؟**» فقال: «يا رسول الله، ثعلبٌ في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك»[1]!

وبعد رفع الحصار عن الطائف توجه الرسول ﷺ إلىٰ مكة معتمرًا، وفي طريقه إلىٰ مكة، في مكان يقال له: «الجِعرانة»[2] نزل بالمسلمين حيث قسم بينهم غنائم هوازن وكانت بالغة الكثرة، فقد «كان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يدرىٰ عدته»[3]. وبينما كان الرسول ﷺ بالجعرانة جاءه وفد هوازن يعلنون إسلامهم، فرد إليهم أبناءهم ونساءهم، ولم يكن في الوفد مالك بن عوف قائد هوازن، حيث كان مازال مع ثقيف بالطائف، فقال الرسول ﷺ لوفد هوازن: «**أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل**». فلما أخبر مالك بذلك تسلل ليلًا من الطائف دون أن تعلم به ثقيف، ثم لحق بالرسول ﷺ فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه، واستعمله الرسول ﷺ علىٰ قومه وعلىٰ من أسلم من القبائل حول الطائف، «فكان يقاتل بهم ثقيفًا؛ لا يخرج لهم سرح، إلَّا أغار عليه حتىٰ ضيق عليهم»[4].

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من رد سبايا هوازن إليهم أخذ يقسم الغنائم بين المسلمين، وقد خصَّ طائفةً ممن أسلموا حديثًا بمزيد من العطاء ليتألف قلوبهم، ومن

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٨٤، والمغازي، ج٣، ص ٩٣٧.

(٢) الجِعْرانة بكسر الجيم وسكون العين، أو كسر الجيم والعين وتشديد الراء، ماء بين الطائف ومكة، وهو إلىٰ مكة أقرب. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ١٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ١٣٤.

(٤) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٨٨-٨٩.

هؤلاء أبو سفيان بن حرب، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وغيرهم ممن أطلق عليهم لقب «المؤلفة قلوبهم». وقد أعطىٰ رسول الله ﷺ كلّ واحد من هؤلاء مائة بعير، وأعطىٰ غيرهم أيضًا مثل ذلك أو دون ذلك، ولكنه لم يعطِ الأنصار شيئًا، فتأثر بعضهم من ذلك واتصل سعد بن عبادة بالرسول ﷺ وكلمه في هذا الأمر نيابة عن الأنصار، فجمعهم الرسول ﷺ وقال لهم: «**يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله! وعالة فأغناكم الله! وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: «بلىٰ، لله ولرسوله المنّ والفضل»! قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدِّقتم، أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك وطريدًا فآويناك وعائلًا فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعة[1] من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلىٰ إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلىٰ رحالكم! فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شِعْبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**»! فبكىٰ الأنصار حتىٰ أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا[2]!

ثم واصل الرسول ﷺ مسيره إلىٰ مكة من الجِعرانة -بعد الانتهاء من تقسيم غنائم هوازن- ليؤدي العمرة، وكان ذلك في ذي القعدة، فلما فرغ منها عاد إلىٰ المدينة واستخلف علىٰ مكة عتَّاب بن أسيد[3].

إسلام ثقيف:

عندما رفع رسول ﷺ الحصار عن الطائف في ذي القعدة سنة٨هـ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله! ادع عليهم! فقال: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم»[4]! وحين انصرف الرسول ﷺ عن الطائف اتبع أثره سيد من سادات ثقيف وهو عروة بن مسعود

---

(١) اللعاعة: بقلة ناعمة. شبَّه بها زهرة الحياة الدنيا ومتاعها.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٩٣-٩٤، وسيرة ابن هشام، ج٤، ص ١٤٧-١٤٨.

(٣) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. أسلم يوم فتح مكة. انظر أسد الغابة لابن الأثير، ص ٥٥٦.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ١٣٤.

فأدركه قبل أن يصل إلىٰ المدينة فأسلم. ورجع إلىٰ قومه ليدعوهم إلىٰ الإسلام، فقتلوه[1]. وهكذا استمر أهل ثقيف علىٰ عنادهم بعد انصراف الرسول ﷺ عنهم حتىٰ بدؤوا يدركون أنه لا جدوىٰ من استمرارهم علىٰ ذلك.

فقد استسلمت هوازن لرسول الله ﷺ كما أشرنا، وانضم قائدها مالك بن عوف إلىٰ معسكر المسلمين بعد أن أعلن إسلامه، فأصبح حربًا علىٰ ثقيف. وقد رأينا كيف كان يقاتلهم بالقبائل التي أسلمت حول الطائف حتىٰ ضيق عليهم. ولا بد من أن نشير -فضلًا عن ذلك- إلىٰ أنّ الإسلام بعد فتح مكة بدأ ينتشر انتشارًا واسعًا ومطردًا في كلّ أرجاء شبه الجزيرة العربية، فأصبحت ثقيف جزيرة منعزلة في محيط يموج بكتائب الإسلام.

من أجل ذلك اجتمع سادة ثقيف وتشاوروا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: «ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلّا اقتطع به؟» وقال أحد زعمائهم: «قد أسلمت العرب كلها وليس لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم»[2]. ومن هنا اتفقوا علىٰ إرسال وفد إلىٰ رسول الله ﷺ يعرضون عليه الإسلام والبيعة. وعندما قدم وفد ثقيف علىٰ الرسول ﷺ عرضوا عليه أن يسلموا بشرط أن يترك لهم «اللات» ثلاث سنين وأن يعفيهم من الصلاة! وقد أبىٰ الرسول ﷺ أن يدع لهم اللات يومًا واحدًا، ولكنه أعفاهم من كسر أوثانهم بأيديهم وأرسل إليهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة ليقوما بذلك. وأمّا الصلاة فقد أكد لهم أنها جوهر الدين، «فلا خير في دين لا صلاة فيه»[3]. وعندئذ أذعنت ثقيف لدعوة الحق ودخلت في دين الله، وكان ذلك في (رمضان سنة ٩هـ)[4] أي بعد رفع الحصار عنها بحوالي عشرة شهور.

٧- غزوة تبوك: رجب ٩هـ (أكتوبر - نوفمبر ٦٣٠م):

حدث أول احتكاك مباشر بين المسلمين والروم في ميدان القتال في «مؤتة» كما أشرنا قبل ذلك. ولم يكن في حسبان المسلمين حينذاك أنهم سيحاربون الروم بل

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٩٦-٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٤) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٩٧.

عرب الشام الذي دأبوا علىٰ استفزازهم. وقد أدرك المسلمون بعد تجربة مؤتة أنّ الروم قد نزلوا بثقلهم في ميدان الصراع ضد الدولة الإسلامية وأصبحوا يضعون ذلك في اعتبارهم دائمًا.

وقد ترامت الأنباء إلىٰ الرسول ﷺ أنّ هرقل (إمبراطور الروم) يعد العدة لحرب المسلمين وأنه حشد حشوده من الروم والقبائل العربية الموالية له ليزحف علىٰ المدينة[1]. ولم يكن هناك ما يمنع من صدق هذه الأنباء بعد ما شهده المسلمون من الروم في مؤتة. ومن هنا أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، «وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد»[2]. وكان من عادة الرسول ﷺ عندما كان يخرج في غزوة ألا يذكر للمسلمين وجهته، ولكنه لم يفعل ذلك في غزوة تبوك حيث بينها للناس «لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يَصْمِد له ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم»[3]. وقد تخاذل بعض المنافقين وتخلفوا عن رسول الله ﷺ وثبطوا الناس عن المشاركة في الجهاد؛ وهم المُخلَّفون الذين نزل فيهم قوله تعالىٰ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ۝٨١ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

ورغم هذا الموقف المتخاذل من المنافقين فقد استجاب الكثير من المسلمين لنداء رسول الله ﷺ فخرج معه منهم ثلاثون ألفًا، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس[4]. وأنفق بعض المسلمين علىٰ هذا الجيش الذي أطلق عليه «جيش العُسرة» أموالًا طائلة[5]، ومن هؤلاء عثمان بن عفان الذي تبرع بألف دينار عينًا وثلاثمائة بعير بكل ما تحمل[6]، فقال ﷺ: «**اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ**[7]»!

(١) الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٩٩٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٠١.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. وانظر أيضًا: صحيح البخاري، ج٦، ص ٤، ويصمد أي يقصد.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٦٨.

(٥) نفس المصدر والصفحة. وانظر أيضًا: المغازي، ج٣، ص ٩٩١.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ٢٧٧، وابن القيم: زاد المعاد، ج٣ ص ٣.

(٧) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ١٧٢.

خرج الرسول ﷺ من المدينة في رجب سنة ٩هـ(١) (أكتوبر ٦٣٠م) علىٰ رأس جيشه متوجهًا صوب الشام حتىٰ وصل إلىٰ تبوك بشمال الحجاز علىٰ مشارف الشام في شعبان من العام نفسه. وقد أقام في تبوك بضع عشرة ليلة(٢)، وهناك عرف أنّ الروم وحلفاءهم من العرب لم يخرجوا بجيوشهم لمقاتلة المسلمين كما أشيع قبل ذلك، فاستشار أصحابه في مواصلة التقدم نحو الشمال أو العودة إلىٰ المدينة، فقال له عمر ابن الخطاب: «يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترىٰ، وقد أفزعهم دُنُوُّك، فلو رجعت هذه السنة حتىٰ ترىٰ أو يحدث الله ﷻ في ذلك أمرًا»(٣). وقد عبرت مشورة عمر عن حقيقة الموقف؛ ذلك أنّ الرسول ﷺ لم يخرج بجيشه ليحارب الروم بل ليصد هجومهم المتوقع، ويوقف زحفهم نحو المدينة. فلما تبين له أنه لا توجد حشود للروم تهدد أمن المدينة لم يجد مبررًا لاستمرار سيره نحو الشام. وفي ضوء ذلك لا نكاد نرىٰ مستندًا لما يدعيه بعض المؤرخين الغربيين من أنّ الرسول ﷺ كان يرمي من وراء قيامه بغزوة تبوك إلىٰ تنفيذ خطة توسعية في بلاد الروم(٤). ولو صح هذا الزعم لما اختار الرسول ﷺ لتنفيذ خطته تلك أكثر الأوقات بعدًا عن ملاءمة ظروف المسلمين مما يؤكد أنّ هذه غزوة أملتها الضرورة، ولم تُمْلِها الرغبة في تنفيذ خطة توسعية(٥).

وقد انتهز الرسول ﷺ فرصة وجوده بتبوك فأراد أنْ يضع حدًّا لما كان يتعرض له المسلمون من تهديد علىٰ يد القبائل العربية الموالية للروم. وهي التي كانت تقطن علىٰ طريق الشام، ومن هنا أرسل خالد بن الوليد علىٰ رأس قوة مكونة من أربعمائة وعشرين فارسًا إلىٰ دومة الجندل، وهي تبعد عن المدينة ثمانمائة كيلو متر تقريبًا في اتجاه الشمال. وقد استولىٰ خالد علىٰ دومة الجندل وأسر ملكها أكيدر بن عبد الملك السَّكوني الكندي وقدم به علىٰ الرسول ﷺ فصالحه علىٰ الجزية وأمَّن أهل دومة الجندل، وكتب لهم كتابًا بذلك. وعندما علم أهل المستوطنات القريبة بشأن هذا

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٦٨، وتاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٧٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٠٩. وفي المغازي (جـ ٣، ص ١٠١٥) أنه أقام بها عشرين ليلة.

(٣) الواقدي: المغازي، ج٣، ص ١٠١٩.

(4) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, P. 34.

(٥) لمزيد من التفصيل ارجع إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص ١١٤-١١٦.

الصلح اتصلوا بالرسول ﷺ وسألوه أن يصالحهم، فأجابهم إلىٰ ذلك، وهم أهل أيلة، وأذرح، ومقنا، والجرباء. وقد تعهد الجميع بدفع جزية سنوية للرسول ﷺ مقابل أمانهم علىٰ أنفسهم وأموالهم[1]. وهكذا يمكن القول إن غزوة تبوك حققت نتيجة مهمة وهي تأليف عدد من القبائل العربية علىٰ حدود الشام وكف الكثير من أذاها عن المسلمين، وكان ذلك مقدمة لإسلام معظمها فيما بعد. والجدير بالملاحظة أنّ هذه الغزوة كانت آخر غزوات الرسول ﷺ.

وبعد هذا الإنجاز العظيم غادر الرسول ﷺ تبوك متوجهًا صوب المدينة فوصلها في رمضان من العام التاسع للهجرة.

(١) حول صلح الرسول ﷺ مع أهل دومة الجندل وأيلة وأذرح ومقنا والجرباء، ارجع إلىٰ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧١-٧٤، وارجع أيضًا إلىٰ: د. عبد الرحمن سالم: المرجع السابق، ص ١١٦-١١٨.

الفصل العاشر
دخول شبه الجزيرة العربية في الإسلام
(من عام الوفود إلى وفاة الرسول ﷺ) (٩-١١هـ ٦٣٠/٦٣٢م)

قدوم وفود العرب إلىٰ المدينة معلنة إسلامها منذ العام التاسع الهجري:

يُعدُّ العام التاسع للهجرة معلمًا بارزًا في مسار الدعوة الإسلامية؛ فقد كان بداية مرحلة جديدة من الانتشار الواسع لدعوة الإسلام في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية. ولا غرو؛ فعندما حل ذلك العام كانت أهم مراكز الكيد للإسلام والتآمر ضده قد تهاوت؛ فقد استسلمت مكة معقل الوثنية في العام السابق، واندحرت هوازن وأذعنت للإسلام. أمّا ثقيف فقد جاءت في رمضان من العام التاسع تعلن دخولها في دين الله بعد أن كانت حربًا ضروسًا علىٰ الإسلام وأهله. وقبل هؤلاء جميعًا كان يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة قد أعطوا بأيديهم، ثم لحق بهم يهود خيبر في العام السابع للهجرة. ولكن لا بد أن نؤكد هنا أنّ استسلام قريش كان أهم هذه الانتصارات جميعًا. فمما لا شك فيه أنّ قريشًا كانت أقوىٰ عقبة في طريق الإسلام منذ ظهوره حتىٰ انضوائها تحت لوائه. يقول ابن هشام رواية عن ابن إسحاق: «وإنما كانت العرب تربَّصُ بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ. وذلك أنّ قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقادة العرب، لا يُنْكَرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوَّخها الإسلام عرفت العرب أنه

لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله- كما قال الله ﷻ- أفواجًا يضربون إليه من كلّ وجه»[1].

أدركت العرب -إذن- بعد استسلام قريش وبعد الانتصارات الساحقة التي أحرزها المسلمون- أنه من الأجدر بهم أن ينضووا تحت لواء هذا الدين؛ فهو دين الله إلىٰ الناس كافة، ولا جدوىٰ من الاستمرار في تجاهله والإعراض عنه. ومن هنا بدأت القبائل المختلفة تبعث وفودها إلىٰ الرسول ﷺ معلنة إسلامها. وقد شهد العام التاسع بداية هذه الوفود، ومن ثم عرف بـ «عام الوفود»[2]. فقد وفد فيه علىٰ الرسول ﷺ وفد بني تميم، وفيهم حاجب بن زُرارة، والأقرع بن حابس، والزِّبْرِقان بن بدر في عدد عظيم من بني تميم[3]. وقد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد، فآذوه بصياحهم، فنزل فيهم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [**الحجرات**: ٤، ٥][4]، كما وفد علىٰ الرسول ﷺ وفد بني أسد وقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولًا[5]، فأنزل الله قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [**الحجرات**: ١٧]. وقدم علىٰ الرسول ﷺ في العام التاسع أيضًا وفود بهراء وبني فزارة وبني البكّاء وبني سعد بن بكر[6]. وكان ضِمَام بن ثعلبة هو وافد بني سعد علىٰ الرسول ﷺ، وقد أسلم قومه جميعًا بإسلامه عندما رجع إليهم. يقول ابن عباس: «فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة»[7]! وفي العام نفسه أرسل ملوك حِمْير باليمن كتابًا إلىٰ الرسول ﷺ يقرون فيه بالإسلام، فكتب لهم كتابًا يذكر لهم فيه أنّ من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة «وأشهد علىٰ إسلامه وظاهر المؤمنين علىٰ المشركين فإنه من المؤمنين، له ما

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) وارجع في تفسير الآيتين إلىٰ الكشاف للزمخشري، ج٤، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ٢٨٧.

(٦) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٢٢-١٢٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

لهم وعليه ما عليهم، وله ذمة الله وذمة رسوله. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان علىٰ يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتَن عنها وعليه الجزية . . .» وأرسل إليهم من أصحابه جماعة علىٰ رأسهم معاذ بن جبل ليفقهوهم في الدين ويجمعوا صدقاتهم(١).

ولم تتوقف الوفود بانتهاء العام التاسع، بل إنها ازدادت تدفقًا في العام العاشر. فمن بين الوفود الكثيرة التي قدمت علىٰ الرسول ﷺ مقرة بالإسلام في ذلك العام وفد الأزد بقياد صُرَد بن عبد الله، ووفد مراد بقيادة فروة بن مُسَيك المرادي، ووفد زُبَيد بقيادة عمرو بن معد يكرب، ووفد عبد القيس بقيادة الجارود بن عمرو، ووفد كندة بقيادة الأشعث بن قيس، ووفد طيئ بقيادة زيد الخيل الذي سماه الرسول ﷺ زيد الخير، وقال عنه: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلّا رأيته دون ما يقال فيه إلّا ما كان من زيد الخيل فإنه لم يُبْلَغ فيه كلّ ما فيه»(٢). ومن بين وفود العام العاشر أيضًا وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة بن حبيب الذي ادعىٰ النبوة بعد ذلك(٣).

والجدير بالملاحظة هنا أنّ هذه الوفود والقبائل التي تمثلها لم تكن سواء في حقيقة موقفها من الإسلام؛ فقد أسلم بعضها إسلامًا حقيقيًا صادقًا؛ في حين أسلم بعضها الآخر إسلامًا سطحيًا، مجاراة للتيار وركوبًا للموجة. وإلىٰ هذا الفريق الثاني يشير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات: ١٤]. ولهذا كان هؤلاء سراعًا إلىٰ الردة بعد وفاة الرسول ﷺ. بل إن بعضهم ارتد قبل وفاته. ومما يروىٰ في هذا السياق أنّ مسيلمة بن حبيب كتب إلىٰ الرسول ﷺ كتابًا بعد انصرافه من المدينة مع وفد بني حنيفة يقول فيه: «من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله. سلامٌ عليك، فإني قد أُشرِكت في الأمر معك؛ وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون»! فكتب إليه الرسول ﷺ يقول: «**من محمد رسول الله إلىٰ مسيلمة الكذاب، سلامٌ علىٰ من اتبع**

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٠-١٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول وفود العرب ارجع إلىٰ: تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٣٠-١٤٥ والكامل لابن الأثير، ج٢، ص ٢٩٣-٢٩٩، وزاد المعاد لابن القيم، ج٤، ص ٢٦-٤٩.

الهدىٰ، أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»[1]، وقد تنبأ أيضًا قبل وفاة رسول الله ﷺ طليحة بن خويلد الأسدي، وخرج ثائرًا في بلاد بني أسد، وكان طليحة أحد أعضاء وفد بني أسد الذين قدموا علىٰ الرسول ﷺ بالمدينة[2]. كما تنبأ وثار أيضًا باليمن الأسود العنسي (وهو عبهلة بن كعب)[3] قبل وفاة الرسول ﷺ[4]. ولكن هذا لا يمنعنا من تقرير حقيقة أساسية وهي أنّ الإسلام منذ العام التاسع أخذ يضرب بجذوره في أرجاء شبه الجزيرة العربية ويثبِّت قواعده، ودانت بلاد العرب في مجموعها لكلمة الله بعد أن قاومتها زمنًا، ولهذا ذكَّر الله رسوله ﷺ بهذا الفضل حين قال له في سورة النصر التي نزلت بمنىٰ في حجة الوداع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

حجة الوداع: (١٠هـ - ٦٣٢م)

في ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة تجهز الرسول ﷺ للحج وأمر الناس بالجهاز له، ثم خرج مع أصحابه إلىٰ مكة لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة[5]. وقد عرفت هذه الحجة بـ «حجة الوداع» وسميت بذلك بعد وفاة الرسول ﷺ[6] لأنه ودع فيها الناس ولم يحج بعدها. ويطلق علىٰ هذه الحجة أحيانًا اسم «حجة الإسلام» لأن الرسول ﷺ لم يحجّ من المدينة غيرها، كما تسمىٰ أحيانًا «حجة البلاغ» لأن الرسول ﷺ بلغ شرع الله في الحج قولًا وفعلًا كما يقول ابن كثير[7]، وبين للناس خلالها ما بينه من مبادئ الإسلام في خطبته المعروفة التي تكرر فيها حديثه عن تبليغ الدعوة[8].

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٤٦.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص ٩٥.

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٥.

(٤) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٤٧.

(٥) الواقدي: المغازي، ج٣، ص ١٠٨٩، وسيرة ابن هشام، ج٤، ص ٢٧٢.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٦٨.

(٧) البداية والنهاية، ج٤، ص ٩٩.

(٨) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٠٩-١١٢.

فقد خطب ﷺ عندئذ خطبة عميقة التأثير، «وكان الذي يُبلِّغ عنه بعرفة ربيعة بن أمية ابن خلف لكثرة الناس»[(١)]. ومما جاء في هذه الخطبة قوله: «أيها الناس اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلىٰ أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلىٰ من ائتمنه عليها، وإنَّ كلَّ ربا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون. قضىٰ الله أنه لا ربا .. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوىٰ ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه علىٰ دينكم .. واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوانٍ[(٢)] لا يملكن لأنفسهنَّ شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلغت، واعقلوه. تَعَلَّمُنَّ أنّ كلّ مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلَّا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم هل بلغت!»[(٣)].

هكذا انتهز الرسول ﷺ فرصة هذا الجمع الحاشد في هذا الموقف المهيب فأبرز أهم ما في الإسلام من معانٍ وقيم كحرمة الدماء والأموال وتحريم الربا وأهمية أداء الأمانات إلىٰ أهلها وحقوق النساء وحسن معاملتهن وقيمة الأخوة الإسلامية، وهذه القيم والمعاني كانت مقررة ومؤكدة في الإسلام قبل حجة الوداع، ولكن الرسول ﷺ أراد أن يضفي عليها من خلال هذا الموقف ما يزيدها قوة وتأكيدًا.

ويمكن القول إن دعوة الإسلام وصلت إلىٰ غايتها عند ذلك الوقت وتكاملت الرسالة بأداء محمد ﷺ أمانة التبليغ رغم ما اعترض طريقه من صعوبات وعقبات، فنزل عندئذٍ -والرسول ﷺ ما زال بعرفة- قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فكانت هذه الآية آخر ما نزل من

(١) ابن الأثير: الكامل ج٢، ص ٣٠٢.

(٢) عوان جمع عانية، وهي الأسيرة.

(٣) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٥٠-١٥١. وانظر هذه الخطبة أيضًا مع بعض الاختلاف في العبارة- في تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص ١١٠-١١٢، والمغازي للواقدي، ج٣، ص ١١١١-١١١٣.

القرآن الكريم وكانت تتويجًا لذلك النضال الطويل الذي خاضه رسول الله ﷺ في سبيل تبليغ كلمة الله. ويروىٰ أنّ رجلا من اليهود جاء إلىٰ عمر بن الخطاب وهو خليفة فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا -معشر اليهود- نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: وأي آية هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية. فقال عمر: «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه علىٰ رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها علىٰ رسول الله ﷺ: عشية عرفة في يوم جمعة[1]».

ويروىٰ أنّ عمر بن الخطاب بكىٰ حين نزلت هذه الآية، فقد أحس أنها نذير بقرب وفاة الرسول ﷺ بعد أن اكتمل الدين الذي أرسله الله به[2].

وفاة الرسول ﷺ: (١٢ من ربيع الأول ١١هـ - يونيو ٦٣٢م)

بعد عودة الرسول ﷺ إلىٰ المدينة من حجة الوداع أخذ يعد العدة لإرسال سرية إلىٰ بلاد الشام بهدف تأديب القبائل العربية الموالية للروم هناك، وهي القبائل التي طال استفزازها للمسلمين قبل ذلك، ولم تنجح سرية «مؤتة» في تأديبهم نظرًا لما قدمه الروم لهم من عدد وعدَّة. ولم يكن وضع المسلمين في «تبوك» يسمح لهم بالتوغل شمالًا بسبب الظروف القاسية التي أحاطت بهذه الغزوة. وقد تحدثنا عن استشهاد قادة المسلمين الثلاثة في مؤتة وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة. والحق أنّ استشهاد هؤلاء كان سببًا في زيادة إصرار الرسول ﷺ علىٰ أن يُنْزِل بهذه القبائل العربية المعادية للمسلمين ما تستحقه من عقاب. وقد اختار لقيادة هذه السرية أسامة بن زيد بن حارثة الذي استشهد أبوه في مؤتة، وكان هذا الاختيار تعبيرًا عن الهدف الذي أراده الرسول ﷺ من إنفاذه لهذه السرية. وقد كان أسامة حينئذ فتىٰ صغير السن، في حدود العشرين من عمره[3]، وكان في جيشه جلة المهاجرين والأنصار، ولهذا اعترض البعض علىٰ إمارته، فقال ﷺ: **«قد بلغني أنّ أقوامًا يقولون في إمارة أسامة، ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبل، وإن كان أبوه لخليقًا للإمارة، وإنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة»**[4].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ٤٦.

(٤) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٨٤.

بعد أن أتم أسامة استعداداته تحرك في آخر صفر سنة ١١هـ على رأس جيش مكون من ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم حتىٰ وصل إلىٰ «الجُرف» علىٰ بعد حوالي خمسة كيلومترات إلىٰ الشمال من المدينة، وهناك علم بمرض الرسول ﷺ فلم يبرح مكانه. وقد تطور هذا المرض إلىٰ وفاته ﷺ، فعاد أسامة إلىٰ المدينة، ثم كان **إنفاذُ بعثه** علىٰ الوجه الذي أراده الرسول ﷺ **أولَ قرارات أبي بكر**[١].

وقد ابتدأ برسول الله ﷺ مرضه في الأيام الأخيرة من صفر سنة ١١هـ[٢]، وكان مرضه الحمىٰ، وقد اشتد به الوجع يومًا فقال لمن حوله: «أهريقوا عليّ من سبع قِرَب من آبار شتىٰ»[٣]. ولكن المرض لم يشغله عن الاهتمام بشؤون المسلمين، فقد كان حريصًا علىٰ متابعة أخبار مسيلمة باليمامة والأسود العنسي باليمن وطليحة الأسدي بنجد، فقد اهتم بإرسال الرسل إلىٰ هؤلاء وغيرهم ممن نقضوا عهدهم وارتدوا عن الإسلام[٤].

ويروي المؤرخون أنّ الرسول ﷺ خرج إلىٰ أصحابه بعد أنْ اشتد المرض عليه، فجلس علىٰ المنبر ثم قال: «**إنَّ عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله**». ففهم أبو بكر إشارة الرسول ﷺ وعلم أنه ينعىٰ لهم نفسه، فبكىٰ وقال: «بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا»، فقال ﷺ: «**علىٰ رسلك يا أبا بكر! انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة في المسجد (أي النافذة إليه) فسدوها إلَّا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل عندي في الصحبة يدًا منه . .**» ثم قال: «فإني لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صحبةٌ وإخاءُ إيمانٍ حتىٰ يجمع الله بيننا عنده»![٥].

وعندما أقعد المرض رسول الله ﷺ عن أن يؤمّ المسلمين في الصلاة عهد بهذه المهمة إلىٰ أبي بكر، ولكن عائشة حاولت أن تثنيه عن قراره بقولها: «إن أبا بكر رجل

---

(١) حول ظروف بعث أسامة وتطوراته ونتائجه ارجع إلىٰ د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص ١٢٧-١٣٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٠-١٩١، وسيرة ابن هشام ج٤، ص ٣٢٧-٣٢٨.

رقيق وإنه متىٰ يقوم مقامك لا يطيق»! فلم يتزحزح عن موقفه، وقد صلىٰ أبو بكر بالمسلمين ثلاثة أيام في اثناء مرض الرسول ﷺ[1].

وقد انتقل الرسول ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ في منتصف نهار يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١هـ (٨ من يونيو ٦٣٢م)، وكان في بيت السيدة عائشة، وعندما ثقل في حجرها نظرت في وجهه فإذا نظره قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلىٰ من الجنة»! فقالت عائشة: «خُيِّرْتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق»، وفاضت روحه الطاهرة[2].

لم يكن من السهل علىٰ المسلمين أن يستوعبوا خبر وفاته ﷺ، وذلك لشدة ارتباطهم به وحبهم له، وما حدث من عمر بن الخطاب يومئذ يوضح ذلك المعنىٰ، فقد روي عنه أنه قال: «إن رجالًا من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله ﷺ توفي. وإن رسول الله -والله- ما مات، ولكنه ذهب إلىٰ ربه كما ذهب موسىٰ بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعنّ رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله مات»![3].

ثم أقبل أبو بكر -وعمر يكلم الناس- فقال أبو بكر: علىٰ رسلك يا عمر! ثم تكلم أبو بكر في المسلمين فأقبلوا عليه، فقال بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه: «أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤][4]. يقول أبو هريرة -وكان أحد شهود ذلك الموقف:- «فوالله لكأن الناس لم يعلموا أنّ هذه الآية نزلت علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ تلاها أبو بكر يومئذ. وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم»[5]. عندئذ أدرك

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٣) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٢٠٠، وسيرة ابن هشام، ج٤، ص ٣٣٤.

(٤) سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٣٣٥.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها، وتاريخ الطبري، ج٣، ص ٢٠١.

الجميع أنّ رسول الله ﷺ قد فارقهم، وكان عليهم أن يواجهوا مسؤولية تلك اللحظة الدقيقة فكانوا علىٰ مستوىٰ الموقف واجتمعوا علىٰ بيعة أبي بكر في اليوم نفسه الذي توفي فيه الرسول ﷺ.

صفة رسول الله ﷺ ونبذة عن أخلاقه:

كان رسول الله ﷺ ظاهر الوضاءة، أبيض اللون مشربًا بحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينيه دَعَج[1]، وفي لحيته كثافة، حلو المنطق، عريض الصدر والكتف، بعيد ما بين المنكبين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، رحب الراحتين، ذريع المشية، إذا مشىٰ كأنما ينحطّ من صَبَب[2]، وإذا التفت التفت معًا، خافض الطرف، جُلُّ نظره الملاحظة[3].

وقد كانت أخلاق الرسول ﷺ انعكاسًا صادقًا لمبادئ الدين الحنيف الذي دعا إليه وناضل في سبيله، ومن هنا كانت شخصيته مثالًا يحتذىٰ أمام المسلمين جميعًا، وهكذا وصفه الله -سبحانه- حين قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد كان الرسول ﷺ طوال حياته مثالًا **للأمانة والصدق**، وقد رأينا كيف كان يلقب قبل البعثة بالأمين، وقد لُقِّب أيضًا بالصادق لأنه ما كذب قط، بل إن كفار قريش شهدوا بذلك حين دعاهم إلىٰ الإسلام وقال لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» فأجابوه: ما جربنا عليك كذبًا!

وكان **العفو** طبيعة متأصلة في نفس الرسول ﷺ. وقد كان يعفو وهو أقدر ما يكون علىٰ العقوبة. لقد عفا عن عتاة المشركين من قريش بعد فتح مكة، وكان بوسعه أن ينتقم منهم أقسىٰ انتقام جزاء كيدهم للإسلام وبغيهم علىٰ المسلمين، ولكنه قال لهم تلك الكلمة الباقية: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»! وتصفه عائشة بقولها: «ما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلَّا أن يُنتهك شيء من محارم الله فينتقم لله ﷻ»[4].

---

(١) الدَّعَج شدة سواد العين مع سعتها، وعين دعجاء.

(٢) الصَّبَب ما انحدر من الأرض.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١١٦.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٥، ص ٨٤-٨٥.

وكان ﷺ **ليِّن العريكة رَحْبَ الصدر**، ويروىٰ في هذا السياق أنّ الرسول ﷺ قال للناس في مرض موته: «أيها الناس، من خشي من نفسه شيئًا فليقم أدعُ له»، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إني لكذاب وإني لمنافق، وما شيء إلَّا وقد جنيته! فقال له عمر ابن الخطاب: فضحت نفسك أيها الرجل! فقال ﷺ: «**يا ابن الخطاب، فُضوح الدنيا أهون من فُضوح الآخرة! اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا وصيِّر أمره إلىٰ خير**»[1]. ولو لم يكن الرسول ﷺ بهذا القدر من اللين والسماحة وسعة الصدر لأعرض الناس عن دعوته. وقد سجل القرآن الكريم هذا الجانب في شخصيته في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أما العدل فقد كان ﷺ نموذجًا متكاملًا له، وكثيرة هي الأمثلة التي يمكن أن تقدم في هذا السياق، فمن ذلك ما يروىٰ من أنه خرج في مرض موته إلىٰ المسجد فقال للناس: «من كنت جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإنَّ أحبكم إليَّ من أخذ مني حقًّا إن كان له، أو حلَّلني فلقيت الله وأنا طيب النفس...»[2].

وقد كان زاهدًا في حطام الدنيا رغم ما أتيح له من كلّ أسباب الوفرة والثراء.. دخل عليه عمر بن الخطاب يومًا وهو علىٰ حصير قد أثر في جنبه فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا! فقال: «مالي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلَّا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»[3].

وكان **أجود الناس** كما يروي ابن عباس، «وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلَرسولُ الله أجود بالخير من الريح المرسلة»، وهو القائل: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلَّا وملكان يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا»[4].

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٩٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٨٩-١٩٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص ٤٤-٤٥.

وكان **جم التواضع رقيق المعاملة** لخدمه وأهل بيته، جاءه رجل فقال له: يا سيدنا وابن سيدنا! فقال ﷺ: «**لا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله ورسوله. والله ما أحب أنْ ترفعوني فوق ما رفعني الله**»! وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أنّ الرسول ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»[1]. وكان الرسول ﷺ لا يحب أن يقوم له أصحابه، وكان أصحابه إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك[2]. وقد طالت خدمة أنس بن مالك للرسول ﷺ فكانت معاملته له غاية في التواضع والرقة. يقول أنس: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتىٰ أمر علىٰ صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي . . . فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أُنَيسُ، أذهبت حيث أمرتك؟ . . . قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلتَ كذا وكذا؟! ولا لشيء تركتُه: هلَّا فعلتَ كذا وكذا؟!»[3]. وقد سئلت عائشة: كيف كان رسول الله ﷺ في أهله؟ فقالت: «كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان ضحَّاكًا بسَّامًا»[4]. وسئلت أيضًا: هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ فقالت: «نعم، كان يخصف نعله ويخيط ثوبه . . .»[5].

وكان من خلقه **الوفاء والعرفان بالجميل** ورده إلىٰ أهله، وبلغ في ذلك غايةً لا تدانىٰ، وقد رأينا كيف ظل مخلصًا لذكرىٰ خديجة طوال حياته، ولم ينسَ لها مواقفها العظيمة معه قبل البعثة وبعدها . . وكيف غضب من عائشة عندما قالت له: «قد أبدلك الله خيرًا منها» وأنكر عليها قولها. وكان موقفه من أبي بكر تعبيرًا عن روح الوفاء عنده وحفظ الجميل لأهله، وهو القائل في مرض موته: «لو كنت متخذًا خليلًا

---

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص ٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٥، ص ٧٠-٧١.

(٤) البداية والنهاية، ج٦، ص ٤٦.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صحبةٌ وإخاءُ إيمانٍ حتىٰ يجمع الله بيننا عنده».

وكان **مضرب المثل في الشجاعة والثبات عند الشدائد،** يروىٰ عن علي بن أبي طالب أنه قال: لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسًا»[١]. وقد تقدم في غزوة حنين أنه لما فر جمهور أصحابه ثبت في مكانه كالطود في نفر قليل من أصحابه، وعندما رأىٰ المسلمون المنهزمون ما عليه رسولهم ﷺ من قوة وثبات رجعوا فحملوا علىٰ المشركين، فكانت لهم الكرة عليهم، وكان ذلك بفضل شجاعة القائد ورباطة جأشه.

ويطول بنا الحديث لو أردنا أنْ نتقصىٰ جميع جوانب العظمة في شخصية الرسول ﷺ، ولكننا نقتبس هنا تلك الكلمات البليغة المركزة التي قالها عليّ بن أبي طالب في وصف أخلاق الرسول ﷺ حيث ذكر أنه كان «أجرأ الناس صدرًا، وأجود الناس كفًّا، وأصدق الناس لهجةً، وأوفىٰ الناس بذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفة أحبَّه»[٢]! وصدق الله العظيم إذ يقول وهو يُجمِل كلّ الجوانب الخلقية في رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٩٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: العربية والمترجمة

آرمسترونج (كارين)

- سيرة النبي محمد. ترجمة د. فاطمة نصر. ود. محمد عناني. كتاب سطور (١). القاهرة ١٩٩٨م.

ابن الأثير (عز الدين عليّ بن محمد)

- أسد الغابة في معرفة الصحابة. دار الشعب. القاهرة ١٩٧٠م.
- الكامل في التاريخ. دار صادر بيروت. ١٩٧٩- ١٩٨٢م.
- اللباب في تهذيب الأنساب. دار صادر. بيروت ١٩٨٠م.

الأصفهاني (أبو الفرج عليّ بن الحسين)

- الأغاني. الأجزاء من ١ إلىٰ ١٦: نشر المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٣م. والأجزاء من ١٧ إلىٰ ٢٢: نشر الهيئة العامّة للكتاب. القاهرة ١٩٧٠- ١٩٧٣م.

الأصفهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله)

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ).

أمين (الدكتور أحمد)

- فجر الإسلام. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٩م.

البخاري (محمد بن إسماعيل)

- صحيح البخاري. دار الشعب. القاهرة (دون تاريخ).

البلاذري (أحمد بن يحيىٰ بن جابر)

- أنساب الأشراف. الجزء الأول. بتحقيق الدكتور محمد حميد الله. دار المعارف. القاهرة ١٩٨٧.

- فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩١م.

بول (Fr. Buhl)

- مادة «بعاث» في دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. الجزء السابع. دار الشعب. القاهرة (دون تاريخ).

بول (Fr. Buhl) وعرفان شهيد

- مادة «الحيرة» في دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. الجزء السادس عشر. دار الشعب. القاهرة (دون تاريخ).

بيستون (A. F. L. Beeston)

- مادة «أبرهة» في دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. الجزء الأول. دار الشعب. القاهرة (دون تاريخ).

جواد عليّ

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين. بيروت، ومكتبة النهضة ببغداد: ١٩٨٠م.

ابن حبيب (أبو جعفر محمد)

- المحبر. حيدرآباد الدكن ١٩٤٢م.

- المنمق في أخبار قريش. بتحقيق خورشيد أحمد فاروق. حيدرآباد الدكن ١٩٦٤م.

ابن حجر (أحمد بن عليّ العسقلاني)

- الإصابة في تمييز الصحابة. دار الكتاب العربي. بيروت (دون تاريخ).

ابن حزم (عليّ بن أحمد بن سعيد)

- جمهرة أنساب العرب. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٣م.

حسان بن ثابت

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري. شرح وتعليق عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٩٠م.

الحلبي (عليّ بن برهان الدين)

- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (الشهير بالسيرة الحلبية). نشر مصطفىٰ البابي الحلبي. القاهرة ١٩٦٤م.

حميد الله (الدكتور محمد)

- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة (دون تاريخ).

الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. دار الكتب العلمية. بيروت (دون تاريخ).

الخزاعي التلمساني (أبو الحسن عليّ بن محمد)

- كتاب تخريج الدلالات السمعية علىٰ من كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة. ١٩٩٥م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (الشهير بتاريخ ابن خلدون). دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٢م.

ركِنْدورْف (Reckendorf)

- مادة «الأرقم» في دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. الجزء الثالث. دار الشعب. القاهرة (دون تاريخ).

الزمخشري (محمود بن عمر)

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار الريان للتراث. القاهرة ١٩٨٧م.

الزيات (أحمد حسن)

- تاريخ الأدب العربي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. الطبعة الرابعة والعشرون. القاهرة (دون تاريخ).

سالم (عبد الرحمن)

- قراءة نقدية في كتابات مونتجومري وات في السيرة النبوية. بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر، العدد ٨٢، نوفمبر- ديسمبر ١٩٩٦- يناير ١٩٩٧م.

- كتاب سيرة النبي محمد للمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونج. ترجمة الدكتورة فاطمة نصر والدكتور محمد عناني (عرض ودراسة): مقال منشور في مجلة كلية دار العلوم. العدد ٢٣. يونيه ١٩٩٨م.

- المسلمون والروم في عصر النبوة. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٩٧م.

السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد)

- الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٧م.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)

- تاريخ الخلفاء، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٨٨م.

شلبي (الدكتور أحمد)

- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. الجزء الأول. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٦٤م.

الخضري (محمد)

- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. دار نهر النيل للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة (دون تاريخ).

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)

- تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبري). بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٩م.

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله)

- فتوح مصر وأخبارها. بتحقيق تشارلزتوري. نيوهافن ١٩٢٢م.

العقاد (الأستاذ عباس محمود)

- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية. المكتبة العصرية. بيروت (دون تاريخ).
عليّ (محمد كرد)
- خطط الشام. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٦٩م.
ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
- المعارف. بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة. الهيئة المصرية العامّة للكتاب. القاهرة ١٩٩٢م.
القلقشندي (أحمد بن عليّ)
- صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا. المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٣م.
ابن القيم (محمد بن قيم الجوزية)
- زاد المعاد في هدي خير العباد. مكتبة مصطفىٰ البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٠م.
الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد)
- عيون التواريخ. الجزء الأول. تحقيق حسام الدين القدسي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٨٠م.
المسعودي (عليّ بن الحسين)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر. بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرىٰ. القاهرة ١٩٤٨م.
مسلم (أبو الحسين بن الحجاج)
- صحيح مسلم بشرح النووي. دار الريان للتراث. القاهرة ١٩٨٧م.
ابن منظور (محمد بن مكرم بن عليّ)
- لسان العرب. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٩م.
مؤنس (د. حسين)
- أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة ١٩٨٧م.
نولدكه (تيودور)
- أمراء غسان، ترجمة الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق. بيروت ١٩٣٣.

ابن هشام (عبد الملك)

- سيرة النبي ﷺ (الشهيرة بسيرة ابن هشام). بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الهداية. القاهرة (دون تاريخ).

هيكل (الدكتور محمد حسين)

- حياة محمد، دار المعارف. القاهرة ١٩٨١م.

الواقدي (محمد بن عمر بن واقد)

- المغازي. بتحقيق الدكتور مارسدن جونس. عالم الكتب. بيروت ١٩٨٤م.

ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي)

- معجم البلدان. بتحقيق فريد عبد العزيز الجندي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٠م.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر)

- تاريخ اليعقوبي. دار صادر. بيروت ١٩٩٢م.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

Ali (S. A Meer):

A Short History Of The Saracens. London, 1961.

Brockelman (V.)

History Of The Islamic People. London and Henley, 1980.

Glubb (J. B.):

The Great Arab Conquests. London, 1963.

Grunebaum (G. E. Von)

Classical Islam. London, 1970.

Hitti (Ph. K.)

History Of The Arabs. London, 1970.

O'Leary (De Lacy)

History Of Arabia Before Muhammad. Lahore, 1989.

Trimingham (J. S.)

Christianity Among The Arabs In Pre-Islamic Times. Librairie du Liban, 1979.

Watt (W. M.)

Muhammad at Mecca. Oxford, 1953.

Muhammad at Medina. Oxford, 1956.

Muhammad: Prophet and Statesman, Oxford, 1961.


عالم الأدب
للترجمة والنشر



(١٥) الآنسة القلوب الوحيدة .... ترجمة: خالد بن المهدي (٤$)

(١٦) الخبيئة .... محمود توفيق (٦$)

(١٧) السيد الرئيس (ميغيل أنخل أستورياس) .... ماهر البطوطي (١٢$)

(١٨) عمالقة الأدب الغربي (برتون راسكو) ....
.... ترجمة: دريني خشبة - أحمد قاسم جودة (٢٠$)

(١٩) فلسفة المحدثين والمعاصرين (أ. وولف) .... ترجمة: أبو العلا عفيفي (٤$)

(٢٠) أيامي في برلين (درعمي في بلاد الفرنجة) .... د. محمد متولي (١٠$)

(٢١) الحياة.. دليل إرشادي .... تحرير: أحمد سالم (٩$)

(٢٢) همسات للبنات .... إشراق الجزار (٤$)

(٢٣) خلف أسوار المدرسة .... عمار سليمان (٧$)

(٢٤) أباطرة الإعلام العربي .... ترجمة: فهد حسنين (١٠$)

(٢٥) يوم الجراد (ناثانييل واست) .... ترجمة: رحاب لحمر (٨$)

(٢٦) مواويل الغجر (فديريكو غرسية لوركا) .... ترجمة: ماهر البطوطي (٣$)